

روايــــة

رباعية الأسكندرية

جوستين

لورانس داريل

ترجمة : د. فخرى لبيب


دار سعاد الصباح

الطبعـــة الأولــــى ١٩٩٢

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ ـ الكويـت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

الاشراف الفنى : حلمى التونى

جوستين

جوستين

رواية « جوستين » هي الجزء الأول من (رباعية الإسكندرية) التي كتبها «لورانس داريل » عن الإسكندرية . وهي تحكي قصة امرأة تعيش في حمأة خطيئة لا تزهدها ... إنها تتذوق كل من تراه عيناها ، لكنها أبدًا لا ترتوى .. فهي تنهل من ماء ملح آسن يزيد من لهيب ظمئها .

وإذا كانت جوستين هي المحور الرئيسي للرواية ، فإن هناك محاور ثانوية عديدة :

هناك « نسيم » الزوج الغافل ، المنتقم دون أن يصل إلى مبتغاه .. و«بلتازار» فيلسوف الخطيئة والشذوذ ، و « كليا » التي تعشق جوستين وتهيم بها . و «كابود يستريا » الثعبان الناعم العابث . و « سكوبى » الإنجليزى الطاعن في السن الذي عينته الحكومة المصرية حينذاك ـ كرمًا منها وزلفى ـ كمسئول عن مكافحة الرذيلة ، فبلغت الرذيلة في عهده حدًا هائلاً غدا بعده من الضرورى ترقيته ونقله . و « ميليسا » المومس الفاضلة ، وأكثر المجموعة شرفًا ونقاء .

وتتجمع كل تلك المحاور في حبكة رائعة وبأسلوب شعرى لتعطينا صورة عن الحياة التي كان يعيشها في الإسكندرية قطاع من الأجانب ومن ارتبط بهم . إنها حياة تغطى سطحها الخضرة المزدهرة بينما تمور أعماقها بالعفن والعطن.

الجـــزء الأول

البحر هـائج اليوم مرة أخرى ، وللـريح عصف مدو . وفي وسعك أن تحس تباشير الـربيع في قلب الشتـاء . وسماء مـن لـؤلـؤ عـار دافئ حتى الظهيرة ، والجنادب تحتمي بالأمـاكن الظليلة . وتبسط الريح الآن السهـول الشاسعة ، تنهب السهول الشاسعة ...

لقد هـربت إلى هذه الجزيـرة ، ومعي بعض الكتب القليلـة والطفلة ــ طفلة «ميليسا » ـ إنني لا أدرى لم استخدمت كلمة « هربت » ، فالفلاحون يقولون في مزاح ، إن الرجـل العليل وحده هو الذي ينتقي مكـانًا نائيًا كهـذا المكان ليجدد قواه . حسنـًا . إذا ابتغيت أن تضع الأمر على هذا النحو ، إذن فقـد أتيت إلى هنا لتندمل جراح نفسي .

في الليل ، عندما تـزمجر الريح وتنام الطفلة في هـدوء ، في سريرها الخشبي الهزاز ، إلى جوار المدفأة المليئـة بالأصداء ، أشعل مصباحًا وأنـا أهيم ، أفكر في أصدقائي ــ في « جوستين » و « نسيم » ، في « ميليسا » و « بلتـازار » ـ وأعود حلقة بعد حلقة من أول سلسلة الذكريات إلى آخرها ، إلى المدينة التي استوطناها معًا لفترة قصيرة : المدينـة التي عاملتنا كنبتها فـرسبت في نفوسنا تنـاقضات كـانت في الـواقع تنـاقضـاتها هي ، لا تنـاقضـاتنـا نحن كما اعتقـدنـا خطأ : «الإسكندرية » الحبيبة .

ما كان في وسعـى أن أدرك الأمر كله ، إلا بعد أن أذهب بعيدًا عنهـا كل هذا البعد . وأنا إذ أعيش على هذه الصخرة العارية ، تنتزعني نجمة « الدب الأكبر » من الظلام كل ليلـة ، بعيدًا عن غبـار تلك العصاري الصيفيـة ، المحمل بالجير ، أصل في النهايـة إلى أنه ليس صـوابًا أن يدان أى منـا بما حدث في الماضي ، إنها

المدينة التي يجب أن تدان ، وإن كان يتحتم علينا نحن أبناءها أن ندفع الثمن .

* * *

أولاً وقبل كل شيء ، ما كنه مدينتنا هذه ؟ ما الذي تبعثه في النفس كلمة الإسكندرية ؟ في لمحة خاطفة أرى بعين خيالى ألف شارع كتم الغبار أنفاسها . إنها اليوم ملك للذباب والشحاذين ، وهؤلاء الذين يحظون بوجود يتوسط هذين الفريقين . خمسة أجناس ، وخمس لغات ، و « دستة » من المذاهب : خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء . إلا أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليوناني الشعبي متميزًا فيما بينها . والغذاء الجنسي الذي يرقد في متناول اليد مذهل في تنوعه وغزارته . ولكن لا تتوهم أبدًا أنه مكان سعيد . إن العشاق الرمزيين للعالم الهيلينى الحر ، قد استبدلوا هنا ، في هذا المكان ، بشيء ناعم مخنث ، شيء مقلوب على نفسه . إن الشرق لا يرحب بفوضى الجسد الحلوة ، لأنه قد تخطى مشكلة الجسد . إنني أتذكر « نسيم » وهو يقول ذات مرة - وفى اعتقادى أنه كان يقتبس ما يقول - إن « الإسكندرية » تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ ، وإن الخارج منها إما أن يكون رجلا مريضا أو يعانى الوحدة أو نبيًّا — أعنى بما أقول ، كل الذين جرحوا بعمق في قدرتهم الجنسية .

* * *

ملاحظات عما تتركه المناظر الطبيعية من أثر ... تتابع طويل للمشاهد ، الضوء ينساب خلال عطر الليمون . الهواء مشحون بتراب الآجر برائحته الحلوة . رائحة الأرصفة الحارة وقد أطفئت بالماء . سحابات خفيفة ندية ، تقرب الأرض ، لكنها نادرًا ما تحمل أمطارًا . وينتشر فوق هذا كله اللون الأحمر المغبر ، والأخضر المغبر ، والأرجواني الجيري ، والقرمزي ، فوق هذا كله ، وقد صبغ مياه البحيرة . وفي الصيف تعطي رطوبة البحر للهواء لمعانًا خفيفًا . ويقبع كل شيء تحت غطاء صمغي .

ثم يهب في الخريف هواء جـاف سريع ، قاس بما حمل من كهرباء سـاكنة ، يلهب الجسد خلال ملبسـه الخفيف . ويعالج الجسد ، وقد عـادت إليه الحياة ، قضبان سجنه . وعاهرة سكرى تسير بالليل في شارع مظلم ، تنثر شذرات من أغان كأوراق الـزهر . أتـرى في هذا المكـان سمع « أنطونيـو » ألحان موسيقى رائعة تخدر القلب ، أغرته أن يستسلم إلى الأبد للمدينة التي أحبها .

وتشرع أجسـاد الشبـاب الخاملة في البحث عـن صحبة عـاربـة . ويجلس الفتيان في تلك المقاهى الصغيرة ، حيث كان « بلتازار » وشاعر المدينة الشيخ [1] يترددان كثيرًا ، يلعبـون النرد تحت مصـابيح البترول ، وهم لا يستقـرون على حال ، تـزعجهم ما تثيره تلك الريح الصحراويـة الجافة التي تفتقد الشاعـرية وتبعث في النفس القلق ، يتلفتون يـراقبون كل غريب . إنهم يجاهـدون لالتقاط أنفاسهم ، ويتذوقون طعم الجير الحى مع كل نسمة من نسمات الصيف .

* * *

كان عليَّ أن أحضر إلى هذا المكـان حتى أعيد من جديد تشييـد تلك المدينة في ذهنى تشييدًا كـاملاً . المناطق التي تخيم الكـآبة عليها كما رآهـا الرجل الشيخ مليئة بحطـام حياته الأسـود . طنين عربات الترام وهي تنقض فـوق قضبانها الحديديـة تخترق ميدان « الأزاريطة » الملـون بلون اليود . أوراق بلـون الذهب والفسفور والمغنسيوم . هنا كثيرًا ما التقينا . وفي الصيف كـانت توجد دكة قد رصت عليها شرائح البطيخ الأحمر الذي كـانت تحب أكله . والمشروبات المثلجة المنعشة . بالطبع كانت تحضر متأخرة بضع دقائق . لعلها قادمة لتوها من لقاء في غـرفـة معتمة ، الأمـر الـذي أنأي عنـه بفكرى . ولكـن كم كانت شفتـاهـا المنفرجتـان حول فمهـا كأوراق الزهـر رطبة وفتيـة وهي تنقض عليَّ كصيف ظامئٍ . ربما ما يزال الرجل الذي تركته يجتر ذكراها مرة بعد أخرى ، وربما ما

---

(١) الشاعر ك . ب . كافافي .

تزال هي كما لو كانت مغبرة بلقاح قبـلاته . إلا أن هذا لا يهم على أىّ حال ، فأنا أحس بثقل جسـدها اللـدن وهي تتكئ على ذراعي تبتسم في صفـاء الناكـرين لذاتهم ، هؤلاء الذين لا يخفون أسرارًا . لقد كان ممتعًا أن نقف هناك ، مرتبكين، خجلين ، إلى حـد ما ، تتـلاحق أنفاسنـا ، لأننا نـدرى ما يبغى كل من الآخـر . فالرسـائل تمضى وراء وعينا ، خلال الشفاه الممتلئـة ، والعيون ، والمشروبات المثلجة ، والـدكة الملونة . نقف هنـاك لا نبالى بما حولنا ، وأصبعـانا الصغيران متشابكان ، نشرب جزءًا من المدينة ، في الأصيل المفعم برائحة الكافور .

* * *

كنت الليلة أقلب النظر خلال أوراقي . لقد تحول بعضها إلى ما يفيد المطبخ ، والبعض الآخـر أتلفته الطفلـة . إن هـذا النوع من الحكم الصـادر على أوراقي يعجبني ، لأنه يتضمن لا مبالاة العـالم الخارجي بما يشيده الفن ، « لا مبالاة » بدأت أنا أشارك فيها . ومع ذلك فما جدوى تشبيه رقيق « لميليسا » بينما ترقد هي مدفونة على عمق ، كأية مومياء ، في رمال المصب الأسود الضحلة الدافئة .

إلا أن تلك الأوراق التي أحرص عليها بعناية هي المجلدات الثلاثة التي كانت تدون فيها « جوستين » يومياتها . كذلك الأوراق التي تسجل جنون « نسيم » . لقد أعطاها « نسيم » كلها إلىّ ونحن نفترق قائلاً :

« خذ هذه واقرأها . هناك الكثير فيها عنا جميعًا . إنها ستعاونك على احتمال ذكـرى « جوستين » دون إجفـال ، كما كان علىَّ أن أفعل » . لقـد حدث هـذا في القصر الصيفى بعد موت « ميليسا » ، وهـو لا يزال على يقين بأن « جوستين » ستعـود إليـه . إنني كثيرًا مـا أفكـر والـرهبـة تخيم علىَّ ، في حب « نسيم » «لجوستين » . أي حب يمكن في ذاته أن يكون أكثر عمقـًا وأمتن أساسًا من ذلك الحب ؟ لقد لـون تعاستـه بنوع من النشوة ، بـاستعذاب الألم الـذي تتوقع أن تلقاه عنـد القديسين لا مجرد العشـاق . ومع ذلك فلمسة واحـدة من الملاطفة

كانت كفيلـة بأن تنقذ نفسـه من ذلك الألم الهائل العميق . إنني أعـرف أنه من السهل أن ينتقد الإنسان غيره . إنني أعرف ذلك .

البحر : هـو المقياس الـوحيد للـزمن في تلك الأمسيـات الشتويـة بسكونها الشـامل . إن إيقـاعـه الواهن في الـذهن هـو اللحن الـذي كتبت على نغمـه تلك الكتابات . الإيقاعات الخاوية لمياه البحر ، تلعق جراحها ، تهدر على طول منافذ الدلتـا ، تفور فـوق تلك الشطـآن المهجورة ، الجرداء ، جـرداء إلى الأبد ، تحت طيور النورس : بلونها الرمادى الذي يتخلله الأبيض ، والتي تمضغها السحب. لو حـدث وكانت هنا أيـة سفينة شراعية ، لتحطمت قبل أن يظللهـا الشاطىء . وغُسل حطامها فوق نتـوءات الجزر ، حيث ينتهى في جوف المياه الأزرق ، آخر جزء فيها ، وقد أكلته عوامل التعرية ... ثم ينتهى .

* * *

أنا والطفلة وحيدان تمامًا ، ما خلا الفـلاحة العجوز المجعدة الوجه . والتي تأتي فوق بغلهـا كل يوم من القريـة ، لتنظيف المنزل . الطفلة سعيـدة ونشطة وسط هـذا المحيط الـذي لم تألفه . لم أطلق عليهـا اسماً بعـد ، لكنـه بالتأكيـد سيكون « جوستين » ـ وهل هناك اسم غيره ؟

أما بـالنسبة لي . فأنـا لست سعيدًا ولا تعيسًا . أنـا أرقد معلقـًا كشعرة أو ريشة في خليط الذكريات الضبابية . لقد تكلمت عن عدم جدوى الفن ، ولكني لم أضف شيئًا صادقًا عما يبعثه في النفس من سلوان . إن العزاء الذي يمنحه مثل هـذا العمل الذي أقـوم بـه بعقلي وقلبي يكمن فقط في أعماق صمت الرســام أو الكاتب ، حيث يمكن أن يعاد تشكيل الحقيقة وصيـاغتها وبناؤها حتى تكشف عن وجهها المعبر . وفي الحقيقة فإن تصرفاتنا الظاهرة ما هي إلا الغطاء الخشن الذي يخفي نسيـج الذهب ـ يخفي دلالـة النموذج الـذي نعنيه . لأنـه يبقي لنا نحن الفنانين ، ذلك التصـالح الودي الممتع ـ من خـلال الفن ـ مع كل ما أصابنا بالجراح أو الخذلان ، خـلال حياتنا اليـومية .ونحن على هـذا النحو لا نتجنب

القدر كما يحاول عامة الناس أن يفعلوا ، لكننا نسعى إلى تحقيقه بقدرته الأصيلة ـ نحققه بالخيال . وإلا فلماذا يوجع كل منا الآخر ؟ كلا . فإن الغفران الذي أنشده ـ والذي قد أناله ـ ليس غفرانًا يمكن أن أراه في عيني « ميليسا » » الورديتين اللامعتين ، ولا في نظرة « جوستين » القاتمة ، قتامة حاجبها . لقد سلك جميعنا الآن سبلاً متباينة ، لكننى أحس في هذا التمزق الهائل الذي يصيبني لأول مرة وأنا في سن النضج ، بأبعاد فني وسبل حياتي وقد عمقت بذكراهما إلى أبعد الآماد . إنني أستعيدهما بفكري من جديد ، وكأنما هنا فقط ـ حيث المنضدة الخشبية جوار البحر تحت شجرة الزيتون ، هنا فقط في وسعى أن أوفيهما ما تستحقان ، حتى تستمد كتابتي هذه طعمها من بعض عناصر حياتهما ـ من أنفاسهما ، جلدهما ، أصواتهما . ولأنسجها جميعًا في الأنسجة المرنة لذاكرة الإنسان . إنني أودهما أن يبعثا من جديد ، أن يبعثا إلى الحد الذي يغدو فيه الألم فنًا . ربما كانت تلك محاولة فاشلة ، لكننى لا أستطيع أن أقرر ذلك . إذ ليس في وسعى إلا أن أحاول .

انتهينا اليوم ، أنا والطفلة ، من بناء أرضية مدفأة المنزل . كنا نتحدث خلال العمل في هدوء ، أنا أتحدث إليها كما لو كنت أحدث نفسي عندما أكون بمفردي ، وكانت تجيب بلغة مليئة بالحماس من صنعها هي . ودفنًا الخاتمين اللذين اشتراهما كوهين « لميليسا » في الأرض تحت قاعدة المدفأة طبقًا لعادات تلك الجزيرة فهذا العمل يجلب الحظ الطيب لسكان المنزل .

* * *

عندما إلتقيت « بجوستين » كنت ، على وجه التقريب ، رجلاً سعيدًا . لقد انفتح أمامي فجأة باب يقودني إلى علاقة وصال مع « ميليسا » ـ علاقة وصال لم ينل من روعتها أنها لم تكن متوقعة ، وأنني لم أكن أستحقها على وجه الإطلاق . فأنا ككل الأنانيين لا أطيق العيش وحيدًا . وأقول صادقًا ، إن آخر سنة من سنى العزوبة قد أعيتني ، وقادني إلى اليأس قصوري عن الإلمام

بالشئون المنزلية ، وعجزى التام فيما يخص أمور الملبس والمأكل والمصروفات النقدية . وكنت ، أيضًا ، قد سئمت الحجرات التي تتخذها الصراصير مأوى لها حيث كنت أعيش حينذاك ، يقوم على خدمتي خادم نوبي أعور يدعى « حميد » . إن « ميليسا » لم تخترق تحصيناتي المتداعية بأىّ من الصفات التي يمكن أن يعددها المرء في المعشوق ـ أو الجمال النادر ، أو الذكاء ـــ كلا ، وإنما اخترقتها بقوة ما ، لا أملك إلا أن أدعوها برًّا وإحسانًا ، بالمعنى اليوناني للكلمة . لقد تعودت أن أراها ، كما أذكر ، شاحبة ، أقرب إلى الهزال ، ترتدى سترة رثة من جلد كلب البحر ، تقود كلبها الصغير خلال الشوارع وقد غلفها الشتاء . ويداها المعروقتان كيدى مسلول ، وحاجباها مصنوعان مدببان إلى أعلى ليحملا عينيها البديعتين الجريئتين الصريحتين ، كنت أراها باستمرار ، يوميًّا ، لشهور عديدة غير أن جمالها المصبوغ العابس لم يثر في نفسي أية استجابة . كنت أمر بها يومًا بعد يوم وأنا في طريقي إلى مقهى (الأقطار) حيث كان ينتظرني «بلتازار» بقبعته السوداء ليلقي عليّ « بتعاليمه » . لم يدر بخاطري قط أني سأغدو عشيق « ميليسا » .

كنت أعلم أنها قد عملت ذات مرة كموديل في أحد المراسم ـ وهي وظيفة لا تحسد عليها ـ وأنها تعمل الآن راقصة . وأكثر من ذلك كنت أعلم أنها كانت محظية تاجر فراء عجوز ، رجل سوقي فظ من تجار المدينة . إنني أكتب هذه الملاحظات ، لأسجل فقط قطاعًا من حياتي سقط في البحر « ميليسا !ميليسا !».

* * *

إنني أعود بأفكاري إلى ذلك الوقت الذي كان فيه إحساسنا نحن الأربعة بالعالم حولنا يكاد يتلاشى ، الأيام غدت مجرد فواصل بين الأحلام ، فواصل بين مواقع الزمن المتغيرة ، بين الادعاء والتمثيل . والحياة خارج الإطار المحيط بنا ... مد من الأحداث التي لا معنى لها ، يتحسس طريقه على طول المدى الذي تفقد فيه الأمور كيانها ، دون الدخول في أى جو محدد ، لا يقودنا إلى مكان ما ،

ولا يطلب منا شيئًا إلا المستحيل ــ وهو أن نوجد . و « جـوستين » تقول ، إننا قـد وقعنا في نطـاق إرادة أقوى وأحـزم من أن تكـون إرادة إنسانيـة ـ نطـاق الجاذبية الـذي تحيط به « الإسكندريـة » هؤلاء الـذين اختارتهم كنماذج تعبر عنها .

* * *

الساعـة السادسـة . وقع أقدام أناس تـرتدي الملابس البيضــاء من ميدان المحطة . الحوانيـت تمتلئ وتفرغ كـالرئات في شارع الـراهبات . أشعـة شمس الأصيل المتطاولـة تلون منحنيـات الحديقة . والحمائم المبهـورة ، كحلقات من ورق مبعثـر، تصعـد إلى المنائر ، لتنـال آخـر شعـاعات الضـوء المتـلاشي على أجنحتها . رنين الفضة فـوق موائد الصيارفة ، والسـور الحديدي خارج البنك مـا زال أسخن من أن يلمس . جلجلة العـربات التي تجرهـا الخيل وهـي تحمل الموظفين بطرابيشهم الحمراء التي تشبه أصص الزهور ، إلى المقاهي المطلة على البحر . هذه هي السـاعة التي أضيق بها أكثر من غيرها ، عنـدما ألمحها على غير انتظار من شرفتي، تسير متثـاقلة نحو المدينة ، وقـد انتعلت صندلها الأبيض ، وهي بعد نصـف نائمة ، وتتمـدد المدينة كسلحفـاة عجوز تمعن فيهـا النظر ، وهي تنحي جانبًا ، للحظة قصيرة ، خرق الجسد المزقة . بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشيـة ، شذرات خنفـاء من أغنية حب دمشقيـة قادمـة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة ، تقاسيم محشرجة كصوت العظام وهي تطحن إلى دقيق .

والآن يفتح الرجال المجهدون مصاريع شرفاتهم ، يخطون في الضوء الحار الشـاحب . يرمشون بأعينهم ـ كـزهور أسقمها الحرمان من الضياء ، يقضـون ما بعد الظهر في ضيق ، يتقلبون على سرر كـريهة ، تغلفهم الأحلام . لقد غدوت واحـدًا من هـؤلاء الكتبة البـؤسـاء أصحـاب الضمير ، مواطنـًا من مـواطني «الإسكندرية » . إنها تمر تحت نافذتي وهي تبتسم وكأن أمرًا خاصًا يرضيها ،

تروّح وجنتيها بمروحة صغيرة مصنوعة من الغاب . إنها ابتسامة قد لا أراها مرة أخرى ، فهي تضحك فقط ، عندما تكون في صحبة الآخرين ، فتظهر تلك الأسنان البيضاء الرائعة إلا أن تلك الابتسامة الحزينة الخاطفة ، مليئة بميزة لا يعتقد المرء أنها تملكها ـ إنها القدرة على الإيذاء . لقد كان في وسعك أن تقول بأن شخصيتها أكثر ميلا للطابع المأساوى وأنها تفتقر إلى روح الدعابة العادية. إن الذكرى الملحة لتلك الابتسامة فقط ، هي التي ستجعلني أشك ، في قادم الأيام ، في صحة هذا الأمر .

* * *

كنت قد لمحتها مرات عديدة في أوقات مختلفة . وكنت بالطبع أعرفها شكلاً فحسب ، قبل أن نلتقي بزمن طويل ، معرفة جيدة . فلا يمكن في مدينتنا أن يكون مغمورًا ، من كان دخله السنوى يزيد على مائتى جنيه . **كنت أراها بمفردها تقرأ جريدة وتأكل تفاحة ، قرب البحر ، أو في ردهة فندق «سيسيل» ، بين أشجار النخيل المتربة** . وقد ارتدت رداء مرصعًا بالفضة يشبه غمد الخنجر ، تمسك بفرائها الفاخر على ظهرها كما يمسك القروي عباءته ، وقد ثنت سبابتها الطويلة على مشبكه المعدني . ويتوقف « نسيم » عند باب صالة الرقص ، التي كان الضوء والموسيقى يغمرانها .... لقد افتقدها . وتحت أشجار النخيل ، جلس كهلان ، في خلوة عميقة ، يلعبان الشطرنج . وتوقفت « جوستين » كى ترقبهما . إنها لا تعرف شيئًا من تلك اللعبة ، لكن جو الصمت والتركيز الذي تفيض به الخلوة كان يخلبها . فتقف هناك طويلاً بين اللاعبين اللذين لا يسمعان شيئًا ، وبين عالم الموسيقي ، وكأنها حائرة في أيهما تغمر نفسها ، وأخيرًا يجىء « نسيم » في رقة ، ليأخذ ذراعها ، وليقفا معًا للحظة، هي تراقب اللاعبين وهو يرقبها . وأخيرًا تذهب في رقة ، وعلى مضض ، وبرزانة إلى العالم المضاء ، وقد أطلقت تنهيدة قصيرة .

وفي أحوال أخرى ، كانت جوستين بلا شك ، لا تشرف نفسها كثيرًا ، ولا

تشرفنــا نحن الباقين جميعــًا : ومع ذلك فما أشد قــدرتها على التأثير وما أشــد طراوة أنوثتها ، تلك المرأة التي كانت أكثر النساء استرجالاً وأوسعهن حيلة . لم يكن هناك مفر من أن تذكرني بتلك السلالــة من الملكات الرهيبات اللائى تركن خلفهن رائحــة حبهن المحرم النفــاذة كرائحــة الأمونيــا (النوشــادر) لتحوم كسحابة فوق وجدان سكان « الإسكندريــة » . إن القطط العملاقة آكلة الرجال مثل « أرسينو » كن شقيقاتها الحقيقيات . ومع ذلـك فإن شيئًا آخر كان يكمن وراء تصرفات « جوستين » ، شيئًا هو وليد فلسفة مأساوية حديثة توزن فيها الأخلاق والشخصية المخادعة أمام بعضهما البعض في كفتى ميزان واحد . لقد كــانت ضحية شكــوك حقيقيــة مثيرة . ورغم ذلك فقد كــان في وسعي أن أرى علاقــة مباشرة بين صــورة « جوستين » وهي تنحني فوق بــالوعــة قذرة بها الجنين (السَّقْطْ) ، وبين « صوفيا » البائسة عشيقــة « فالنتينوس » التي ماتت من أجل حب كان كاملاً بقدر ما كان خاطئًا من أساسه .

* * *

يشاركني في شقتي الصغيرة ، التي تقع في شــارع « النبى دانيال » موظف صغير بالسلك القنصلي يــدعى « جورج بومبال » . وهــو شخصية متميزة بين الدبلومــاسيين إذ يبدو منتصب القامــة . إن طاحونة البروتــوكول والحفلات ـ والتي تشبه كابوسًا سرياليًّا ـ تغدو بالنسبة إليه مليئة بسحر غريب . إنه يرى الدبلومــاسية بعيني « دونير روسو » . وينغمس فيها دون أن يــدعها تلتهم ما بقى من عقله . وفي اعتقــادي أن سر نجاحه يكمن في كسله الهائل الــذي يكاد أن يكون خارقًا .

إنــه يجلس إلى مكتبه في القنصليــة العــامة ، وقــد غمــره سيل لا ينقطع من بطاقــات تحمل أسماء زملائه . إنــه رجل ضخم الجثة كســول ، إنسان شــديد البطء ، مولع بقيلــولة ما بعد الظهــر « وبكر بيلون الإبن » . تفوح من منــاديله رائحة « ماء البرتغال » الرائعة ، والنســاء هن مدار حديثه المفضل . إنه بالقطع

يتكلم عن تجربة، فتتابع الزائرات إلى الشقة الصغيرة لا ينتهى. ونادرًا ما يرى المرء نفس الوجه مرتين. « الحب هنا يمتع الرجل الفرنسي. فالنساء يقدمن قبل أن يفكرن بروية، وعندما يحين وقت الشك، ومعاناة تأنيب الضمير، يكون الوقت حارًّا للغاية، وليس هناك من له القدرة على ذلك. إن هذه الحيوانية تفتقد اللباقة، إلا أنها تلائمني. لقد أبليت قلبي وعقلي بالحب، وأبغي أن أترك وحيدًا ـ وخاصة يا عزيزى من هذا الهوس الديني لتشريح وتحليل الموضوع. إنني أود العودة، سليم القلب، إلى مزرعتي في « نورمانديا » .

ويقضي « جورج بومبال » فترات طويلة من الشتاء بعيدًا في إجازة. وأنفرد أنا بالشقة الصغيرة الرطبة، ساهرًا إلى ساعة متأخرة، أصحح كراسات التمرين ولا رفيق لى إلا « حميد » بشخيره. لقد بلغت في هذه السنة الأخيرة، ذروة الانحطاط النفسي. إنني أفتقد قوة الإرادةلأصنع أى شيء بحياتي، لأحسِّن وضعى بالعمل الشاق، أن أكتب: حتى أن أضاجع. إنني لا أدري ماذا حل بي. إنها المرة الأولى التي أصادف فيها فشلاً حقيقيًّا لإرادتي في أن أحيا. وأقلب ما بين الحين والحين لفة مخطوط، أو نسخة أصلية أو كتاب شعر في إهمال يثير التقزز، في حزن، كشخص يطالع جواز سفر قديم.

من وقت لآخر كانت إحدى فتيات « جورج » الكثيرات تضل طريقها إلى وكرى بأن تزور الشقة وهو غائب عنها. ومثل تلك الواقعة كانت، لفترة ما، تزيد من حدة « تبرمي بالحياة ». إن « جورج » إنسان كريم كثير التفكير في مثل تلك الأمور. فقبل رحيله (ولمعرفته كم أنا فقير) كان يدفع مقدمًا نقودًا لواحدة من السوريات من حانة « جولفو » ويأمرها بأن تقضي بعض الليالي في الشقة « تحت تصرفي » كتعبيره هو. وواجبها أن ترفه عني، وهي مهمة لا تحسد عليها بأى حال من الأحوال، خاصة وأنه لا يوجد في مظهري ما ينبئ عن افتقاري إلى البهجة. وأضحت قلة الحديث سلوكًا مفيدًا للآلية التي تستمر طويلاً بعد أن يفقد المرء حاجته للكلام. وإذا اقتضى الأمر ففي وسعى أن

أضاجع بارتياح ، ولكن دون عاطفة أو اهتمام ، فالمرء لا ينام نومًا جيدًا في هذا المكان !

إن بعض تلك اللقاءات مع مخلوقات مسكينة مرهقة دفعتها الحاجة المادية إلى أقصى حد ، ممتع ومؤثر كذلك ، إلا أنني قد فقدت كل اهتمام بتصنيف عواطفي ، حتى أنهن قد ظللن بالنسبة إلى كصور مهزوزة تومض على شاشة . لقد قالت « كليا» ذات مرة ، « هناك أشياء ثلاثة يمكن القيام بها مع امرأة ، أن تحبها ، أن تعاني من أجلها .... أو تحيلها إلى مادة للأدب » . وكنت أعاني إفلاسًا في مجالات كل تلك المشاعر .

إنني أسجل هذا لأظهر المادة الإنسانية التي لا يرجى منها والتي اختارت «ميليسا » أن تمارس عملها عليها ، أن تنفث في خياشيمي بعض أنفاس الحياة . لم يكن سهلاً عليها أن تحمل هذا العبء المزدوج إلى جانب مرضها وأحوالها الخاصة البائسة . أن تضيف أعبائى إلى أعبائها يحتاج إلى شجاعة حقيقية ، لعل اليأس قد ولد لديها هذه الشجاعة ، لأنها ، هي الأخرى ، كانت قد بلغت الحضيض . لقد كنا زملاء في الإفلاس .

كان تاجر الفراء العجوز يتبعني لأسابيع خلال الشوارع ، يحمل مسدسًا يثقل جيبه . ولقد كان مطمئنًا أن أعرف من أحد أصدقاء « ميليسا » أن المسدس لم يكن محشوًا . إلا أن مطاردة هذا الرجل العجوز لى كانت رغم ذلك أمرًا مزعجًا . ولابد أن كلاً منا ، في خياله ، قد أطلق الرصاص على الآخر عند كل ركن من شوارع المدينة . ومن ناحيتي ، لم أكن أطيق النظر إلى هذا الوجه البليد المجدور بعناقيد الكآبة البهيمية لملامحه المعذبة التي تكسو وجهه . لم أكن أطيق التفكير في ملاطفاته السمجة الثقيلة لها : هاتين اليدين الصغيرتين الراشحتين عرقًا المغطتان كالقنفذ بالشعر الأسود الكثيف . لقد استمر هذا الحال لفترة طويلة ، ثم نما فيما بيننا ، بعد عدة شهور ، شعور غريب بالألفة . كنا كلما التقينا نومئ ونبتسم لبعضنا البعض . وذات مرة التقينا في أحد البارات ،

ووقفت إلى جواره قرابة نصف ساعة ، وكدنا نتبادل الحديث ، إلا أن أحدًا منا لم تكن لديه الشجاعة ليبدأه . لم يكن هناك من موضوع مشترك للحديث سوى « ميليسا » . وبينما أغادر البار لمحته في إحدى المرايا الطويلة ، وقد أحنى رأسه يحملق في كأس . لقد صدمني شيء ما في هيئته ، شيء في مظهره ، كعجل بحر مدرب يتشبث بالمشاعر الإنسانية . وأدركت لأول مرة ، أنه من المحتمل أن يكون قد أحب « ميليسا » بالعمق الذي أحببتها به . ورثيت لقبحه وعجزه الموجع الضائع والذي يواجه به مشاعر جديدة عليه ، مشاعر كالغيرة والحرمان من المحظية التي يعزها .

وفيما بعد ، حينما كانوا يقلبون جيوبه ، رأيت بين خليط الحاجيات الموجودة زجاجة عطر صغيرة فارغة من النوع الرخيص الذي كانت تستعمله « ميليسا » ، فأخذتها معي إلى الشقة ، حيث بقيت على المدفأة لعدة شهور قبل أن يلقي بها « حميد » خلال حملة التنظيف الشامل للشقة . ولم أخبر « ميليسا» بهذا الأمر . ولكن عندما أكون وحدي بالليل بينما «ميليسا » ترقص أو ربما تضاجع واحدًا من معجبيها ، بسبب الحاجة ، كنت غالبًا ما أتفحص تلك القارورة الصغيرة في حزن وانفعال ، أتأمل وأفكر في حب هذا الرجل العجوز ، هذا الحب الفظيع ، وأقيسه بحبي . وأتذوق ـ واضعًا نفسي مكانه ـ ذلك اليأس الذي يجعل المرء يتشبث بشيء صغير منبوذ ، ما زال مشبعًا بذكرى الحبيب الخائن .

لقد عثرت على « ميليسا » فوق سواحل « الإسكندرية » الموحشة ، وقد غسلتها المياه كطائر أوشك أن يغرق ، وقد تحطم فيها جانبها الجنسي .

* * *

شوارع تنطلق من أحواض السفن ، مثقلة بمنازل عفنة نخرة ، تتنفس في أفواه بعضها البعض ، مقلوبة على ذاتها . شرفات تعج بالفئران ، وعجائز

النساء وقد امتلأ شعرهن بدم القراد . جدران تقشر طلاؤها تميل سكرى شرقًا وغربًا عن مركز ثقلها الحقيقي . شريط الذباب الأسود يلصق نفسه إلى شفاه وعيون الأطفال ـ ومسابح رطبة من ذباب الصيف في كل مكان ، ينهش ثقل أجسامها أوراق الذباب العتيقة المعلقة على المقاهى والأكشاك البنفسجية . رائحة الرواد المستحمين فى رغوة عرقهم تشبه رائحة سجادة سلم بالية . ثم ضجيج الشارع : صياح وصليل بائع العرقسوس الصعيدي يدق أقداحه المعدنية معًا كوسيلة للإعلان عما معه ، والصرخات التي لا يكترث بها أحد ، تخترق الضوضاء من حين لآخر كصرخات حيوان رقيق التكوين تزال أحشاؤه. الآلام كالبرك ، حضّانة للشقاء الإنساني بمقادير تجعل المرء مأخوذًا، وقد فاضت مشاعره الإنسانية في طوفان من التقزز والهلع .

كنت أبغى لو أستطيع تقليد طريقة « جوستين » المباشرة الواثقة من ذاتها ، وهي تشق طريقها خلال تلك الشوارع نحو مقهي « الباب » حيث كنت في انتظارها . جلسنا عند القوس المتهدم ، الذي يجاوره باب المقهي ، نتجاذب أطراف الحديث بكل براءة إلا أن حديثنا قد غدا بالفعل مشبعًا بتفاهم مشترك ، اعتبرناه ، فألا سعيدًا بصداقة خالصة . وتملكتنا فقط ، ونحن فوق تلك الأرضية الموحلة الداكنة . نحس محور الكرة الأرضية يبرد في سرعة مائلاً نحو الظلام ، رغبة في أن تتصل آراؤنا وخبراتنا التي تخطت مجال الفكر المألوف للحديث بين الناس العاديين . كانت تتكلم كرجل . وكنت أخاطبها كما لو كانت رجلاً . في وسعي فقط أن أتذكر طراز وقيمة تلك الأحاديث ، لامادتها . وأنا إذ أجلس هناك متكئًا على كوع نسيته ، أشرب العرقي الرخيص ، وأبتسم لها ، أستنشق عطر الصيف الدافئ المنبعث من ردائها وجلدها ، عطر يسمى ، ولا أدرى لماذا ، « جاميه ده لاف » *..

---

* أى « أبدًا بالمرة » .

هناك لحظات تمتلك الكاتب لا العاشق ، لحظات تعيش إلى الأبد ، لحظات في وسع المرء أن يعود إليها في ذاكرته مـرة وأخرى ، أو يستخدمها معينًا يمكن أن يشيـد عليـه دوره في الحيـاة ، ألا وهـو الكتـابـة . في وسع المرء أن يلـوث تلك اللحظات بالكلمات ، ولكن ليس في وسعه أن يفسـدها . وفي هذا السياق أيضًا ، أستعيد لحظة أخرى مماثلة ، وأنا راقد إلى جوار امرأة نائمة في حجرة رخيصة قـرب الجامع . في ذاك الفجر الـربيعي المبكـر ، بنـداه الكثيف ، المرسوم فـوق الصمت ، الـذي يبتلع المدينة بأكملهـا قبل أن توقظهـا الطيور ، التقطت أذنـاى صوت المؤذن الأعمى العـذب وهو يرتل ـــ صوت معلق كالشعـرة في الطبقات العليا لجو الإسكندريـة وقد رطبها النخيل ـ يـرتل كلمات الآذان وبعض آيات القرآن القصيرة يتحدث خلالها عن كمال الإله ، الدائم (وهي تكرر ثلاث مرات، كل منها أبطأ مـن السابقة في تنغيم عـذب مرتفع) وكمال الإلـه المراد ، الدائم ، الواحد ، العالى : كمال الإله الواحد الأحد ، كماله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، لا يعصيه أحد ، ولا ينوب عنه أحد ؛ ليس له كفو ولا خلف ، كماله المعظم .

ويشق الدعـاء العظيم من الكلمات الوضـاءة طريقه إلى وجـداني الناعس ، كحية ، لفة بعد لفة ، وصـوت المؤذن يهبط في هيبة من نغمة إلى نغمة حتى يبدو الصبـاح جميعه كثيفـًا بقدرتـه الغـريبة على لأم الجراح ، وإيماءات منـة غير مستحقة أو منتظرة تعمر تلك الحجرة الرثة ، حيث رقدت « ميليسـا » تتنفس في هدوء كطير النورس وهي تهدهد فوق لأ لأ المحيط بلغة لن تعرفها أبدًا .

* * *

من الذي يستطيع أن يزعم ؛ بأن « جوستين » ، لم يكن لها جانبها الأحمق؟. عبادة اللذة ، الخيلاء العابـرة ، الإهتمام بأن يكون لمن دونها فكرة طيبة عنها ، التعالي . كان في وسعها ، إذا شاءت ، أن تكون مثيرة للمتاعب . حقًا ، حقًا . إلا أن كل الشوائب يغـذيها المال . إنني لا أقول إلا أنها كانت تفكـر كرجل في كثير من

الأمور ، بينما كـانت تتمتع في تصرفاتها بشيء من الاستقـلال الواضـح المنطلق الذي يبدو في مظهر الرجال . كـانت الألفة التي تجمعنا ذات طابع عقلي غريب . واكتشفت منذ فترة مبكرة أن في مقدورها قراءة الأفكار بطريقة لا تخطئ . لقد كانت تـواتينا الأفكـار في ذات الوقت . إنني أتـذكر ذات مـرة أدركت فيها أنها تشاركني بعقلها فكرة كانت لتوها قد انبثقت في عقلي ، وهي أن هذه المودة يجب ألا تمتد أكثـر من ذلك ، وأن ما سننتهي إلى تكشفه وراء ألوان الشهـوة القاتمة النسيج ، سيكون صداقة قد تعمقت إلى المدى الذي سيجعلنا أسيراها أبد الدهر. لقد كان هذا ، إذا أحببت ، غزلاً بين عقلين أرهقتهما قبل الأوان تجربة ظهر أنها أخطر بكثير من حب قائم على الجاذبية الجنسية .

وعجزت عن تأمل تلك الفكرة ، دون أن ينتابني الفزع ، فقد كنت أعرف حب « جوستين » الكبير « لنسيم » كما كنت أنا نفسي أحبه حبـًا جمًا . كانت ترقد إلى جـواري تتنفس في هـدوء وتحملق بعينيها الكبيرتين في السقف الـذي تكسـوه الملائكة . وقلت لها : « إن حبًا كحبنا هـذا ، بين مدرس فقير وواحدة من سيدات المجتمع السكندري ، لن يؤدي إلى شيء . وكم سيكون مرًا على النفس ، أن ينتهي كل شيء إلى فضيحة من تلك الفضـائح التقليدية التي تتركنـا وحيدين ، وتضع على عاتقك عبء اتخاذ قرار في كيفية التخلـص مني » . كانت « جوستين » تكره سماع الحقيقـة . فـاستدارت على مـرفقهـا تحملق في بعينين مضطـربتين لمدة طويلة ، ثم قالت بصوتها الأجش الذي غدوت أحبه كثيرًا ، « لا مجال للخيار في هذا الأمر ، إنك تتكلم كما لو كان هناك مجال للخيار . إننا لسنا أقوياء أو أشرارًا بالدرجة التي تمكننا من ممارسة الاختيار . إن كل هذا إنما هو جزء من تجربة قد دبرها شيء آخر ، ربما تكـون المدينة ، أو جزء آخر من ذواتنا ، من أين لي أن أعرف » .

إنني أتذكرها جالسة أمام المرايا المتعددة عند الخياطة ، تجرب لها رداء من « الشارك سكين » وهي تقول :

« انظر ، خمس صور مختلفة لنفس الشيء ، لو أنني مارست الكتابة لحاولت إظهار تأثير تعدد الأبعاد في الشخصية . نوع من تعدد زوايا الرؤية . لماذا لا يعبر الناس عن أنفسهم بأكثر من زاوية واحدة في نفس الوقت » .

ثم تثاءبت وأشعلت سيجارة . وجلست فوق السرير وقد أمسكت كعبيها الدقيقين بيديها ، وهي تتلو في بطء ونطق معوج تلك الأبيات الرائعة للشاعر اليوناني الشيخ عن قصة حب ، مضى عليها زمن طويل ـ إلا أن الأبيات فقدت مذاقها وهي تتلى بالإنجليزية .

وأحسست مرة أخرى ، وأنا أسمعها تتلو أبيات الشاعر ، وتلمس في رقة كل مقطع من شعر هذا المفكر اليوناني الساخر ، بالقوة الغامضة الغريبة لتلك المدينة ــ وأرضها المسطحة الغرينية وأجواءها المرهقة ــ وأدركت أنها ابنة حقيقية للإسكندرية ، تلك المدينة التي لا هي باليونانية أو السورية أو المصرية ولكنها خليط ، شيء مشترك ، من كل هؤلاء .

وبأى إحساس بلغت المقطع ، الذي يلقي فيه الشيخ جانبًا رسالة الحب القديمة التي أثارت أشجانه إثارة بالغة ويصرخ : « إنني أخرج في حزن إلى الشرفة ، أفعل أي شيء لأغير مجرى تلك الأفكار ، حتى لو كان مجرد رؤية حركة هامسة في المدينة التي أحب ، في شوارعها ومتاجرها » . وتدفع «جوستين» بنفسها المصاريع لتقف في الشرفة المظلمة ، فوق مدينة من الأضواء الملونة ، تحس ريح المساء تهب من تخوم « آسيا » . وقد غفت للحظة عن جسدها .

* * *

« الأمير نسيم » ، إنها بالطبع نكتة ، على الأقل بالنسبة لأصحاب الحوانيت والتجار ذوى المعاطف السوداء الذين كانوا يرونه راكبًا سيارته « الرولز » الفضية الفخمة بأغطية مدار عجلاتها الصفراء الباهتة في لون زهرة «الدافوديل» ، السائرة بهدوء في الطريق الظليل . ولتقديمه ، فقد كان قبطيًا ،

ولم يكن مسلماً . ومع ذلك فقد اختير لقبه اختياراً موفقًا ، إذ كان « نسيم » كالأمراء في ترفعه عن الجشع العام الذي انغمست فيه غرائز السكندريين المبجلة بما فيهم أشدهم ثراء . ومع ذلك فإنه لم يكن في أى من العوامل التي جلبت عليه سمعة الشذوذ ، ما يثير الانتباه عند هؤلاء الذين عاشوا خارج نطاق الشرق . فهو لم يكن يبالى بالمال إلا لإنفاقه ـــ تلك أولى خصاله ، أما الثانية فهي أنه لم يكن يمتلك شقة يمارس فيها الرذيلة ، لقد بدا شديد الإخلاص «لجوستين » ، وهي حالة نادرة الوجود . ولما كان شديد الثراء فقد سيطر عليه نفور عميق من المال ، جعله لا يحمل بنفسه أى شيء منه . كان ينفق على الطريقة الغربية ويعطي لأصحاب الحوانيت صكوكًا بخط يده . وكانت النوادي الليلية والمطاعم تقبل شيكاته الموقع عليها بإمضائه . ومع ذلك فإنه كان يفي بديونه في دقة ، إذ يرسل سكرتيره « سليم » بالسيارة كل صباح ، كى يتعقب طريقه في اليوم السابق ، ويسدد كل ما تجمع عليه من ديون .

واعتبر سكان المدينة مسلكه هذا ضربًا من الشذوذ والتعالي إلى أقصي الحدود ، فقد كانت لهم خصال مكتسبة فظة واهتمامات منحطةوثقافة خاطئة لا تمدهم بأى خيط يقودهم لمعنى السلوك بمفهومه الأوربي ، ولكن « نسيم » لم يكن قد تعلم هذا السلوك فحسب واكتسبه ، بل لقد ولد له هذا السلوك . ففي هذا المجتمع المحدود ، والذي يحكمه سعار مخطط لجمع المال ، لم يكن ليجد مجالاً لفاعلية الروح ، خاصة إذا كانت رقيقة ، ميالة إلى التأمل . كان أقل الرجال ادعاء ، تعبر عنه أعماله التي تحمل الطابع الحقيقي لشخصيته . لقد كان الناس ميالين إلى أن يعزو سلوكه إلى ثقافته الأجنبية ، ولكن « ألمانيا » و«إنجلترا » لم تؤثرًا في الحقيقة فيه إلا قليلاً ، لقد بلبلتاه ، وجعلتاه غير لائق لحياة المدينة . غرست الأولى فيما كان عقلاً فطريًا من عقول البحر المتوسط ، نزعة تأملية لما وراء الطبيعة ، بينما حاولت « أكسفورد » أن تجعله متعاليًا ، ولكنها لم تنجح إلا في تطوير نزعته الفلسفية إلى الحد الذي غدا فيه عاجزًا عن

ممارسة الرسم ، الفن الذي أحبه أكثر الحب . لقد فكر وقاسى كثيرًا ، إلا أن التصميم على الإقدام — وهو أول الصفات اللازمة لمن يتدرب على الفن — كان ينقصه .

كان « نسيم » والمدينة على طرفي نقيض ، إلا أن رجال الأعمال فيها والذين كانوا على صلة يومية به لثروته الضخمة ، قد عمدوا إلى تخفيف كراهيتهم له بمعاملته في رفق يثير الضحك ، تفضل كهذا الذي يتعطف به المرء على أبله . لم يكن هنالك ما يثير الدهشة إذا ما دخلت عليه في مكتبه ـ هذا التابوت الحجري بفولاذه المجوف وزجاجه المضاء — لتجده جالسًا إلى المكتب الكبير (المغطى بالأجراس والبكرات والأضواء الباهرة) كاليتيم ـ يأكل خبزًا قاتم اللون وزبدًا ويقرأ « فارساى » بينما يوقع الرسائل والمستندات ، بدون انتباه . كان ينظر إليك بذلك الوجه اللوزي الشاحب ، وقد كساه تعبير متجهم منكمش يكاد يكون توسلاً . ومع ذلك فقد كان هناك حبل من الصلب ممتد خلال كل تلك الرقة ، حيث كان يُفاجَأموظفوه على الدوام باكتشاف معرفته كل تفاصيل العمل ، رغم مظهره الساهي . كان من النادر أن تثبت صفقة عقدها ، أنها لم تكن قائمة على تقدير صائب . كان بالنسبة لموظفيه شيئًا يذكرهم بمن يوحى إليهم . ورغم ذلك (كانوا يتنهدون في حسرة ويهزون أكتافهم) فقد بدا وكأنه لا يبالي بالربح، وذاك ما تُعرِّف به « الإسكندرية » الجنون .

كنت أعرفهما بالعيان ـ كما كنت أعرف كل امرئٍ في المدينة ، لمدة شهور عديدة ، قبل أن ألتقى بهما لقاء مباشرًا . كنت أعرفهما بالعيان وبما يتمتعان به كذلك من سمعة . فإن حياتهما الفخمة المنطلقة والتي لا تراعي أى عرف أو تقليد ، قد جعلت لهما سمعة خاصة بين قاطنى المدينة المحليين : اشتهرت «جوستين » بكثرة عشاقها ، ونُظر إلى « نسيم » باعتبار أنه زوج « مجامل » .... ولقد راقبتهما يرقصان معًا مرات عديدة ، هو نحيل منخفض الخصر كامرأة ، ويداه طويلتان منحنيتان جميلتان . و « جوستين » برأسها الجميل وأنفها

العربي بطرفه الحاد الانحناء وعينيها الصافيتين وقد وسعتهما « البلادونا » . كانت تتفرس فيما حولها كفهد نصف مدرب .

ولقد أقنعني البعض ، في ذاك الوقت ، بأن أحاضر عن شاعر المدينة في مرسم الفنون الجميلة ــ وهو نوع من النوادي التي يمكن لهواة الفن الموهوبين أن يجتمعوا فيها وأن يستأجروا غرفًا للرسم ، وما شابه ذلك . وقد وافقت لأن ذلك كان يعني مبلغًا قليلاً من المال لشراء معطف « ميليسا » الجديد ، خاصة والخريف على الطريق . إلا أن ذلك كان مؤلمًا لى ، كنت أحس بالشاعر الشيخ يملأ المكان حولي . وهكذا كان على أن أحاضر ناثرا الشوارع الحزينة حول حجرة المحاضرة بشذا تلك الأبيات التي اعتصرها مما مارسه من حب أمتعه رغم سوقيته ، حب ربما اشتراه بالمال ، فلم يدم إلا للحظات قصار ، إلا أنه يحيا الآن في شعره . لقد أمسك عن قصد ، وبكل حنان ، تلك اللحظة العابرة ليثبت كل ألوانها . يالها من صفاقة أن يحاضر المرء عن شاعر ساخر ، انتقى مادة موضوعاته بطريقة طبيعية للغاية ، وبمثل تلك الغريزة المرهفة ، من شوارع ومواخير « الإسكندرية » ، وأن يتوجه المرء بالحديث ، فوق ذاك ، لا إلى مساعدي باعة الخردوات وصغار الكتبة ـ جمهوره الذي خلده ـ ولكن إلى شبه حلقة وقورة من سيدات المجتمع اللواتى كن ينظرن إلى الثقافة التي عبر عنها باعتبار أنها نوع من بنوك الدم : فجئن كى يمارسن عملية نقل الدم . والحقيقة أن الكثيرات منهن قد تركن حفلة للعلب « البريدج » من أجل تلك المحاضرة ، رغم إدراكهن بأنهن سيكتئبن بدلاً من أن ينتعشن .

إنني لا أتذكر سوى قولي بأن وجهه يلازمني ـ الوجه المُفزَع الحزين الرقيق كما بدا في صورته الفوتوغرافية الأخيرة . ولاحظت عندما تقاطرت نساء ، أعضاء النادى ، الوقورات أسفل السلم الحجرى ، إلى الشوارع المبتلة حيث كانت سياراتهن المضاءة في انتظارهن ، وقد تركن الحجرة الهزيلة تسبح في رائحة عطورهن ، إنهن قد تركن خلفهن طالبة وحيدة من طلبة العواطف

والفنون . كانت تجلس في آخر الصالة تدخن سيجارة وقد اتخذت سمت المفكر واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى بطـريقة الرجال . لم تكن تنظر إليّ ولكنها كانت تنظر إلى الأرض تحت قدميها بطريقـة غير مهذبة . وأحسست بالزهو إذ فكرت أن هناك شخصًا واحدًا ، ربما قدر ما أواجه من صعاب ، فجمعت حقيبة أوراقي الرطبة ومعطفي القديم الواقـي من المطر وأخذت طريقي إلى حيث كان رزاز خفيف نفاذ قـادم من جهة البحر ، يجتاح الشوارع . وتـوجهت إلى منزلي حيث لابد وأن تـوجد « ميليسا » الآن مستيقظـة وقد أعـدت لنا عشاءنـا فوق المنضدة المغطـاة بأوراق الجرائد . لابد أنها قد أرسلت « حميـد » أولاً إلى الفرن ليحضر اللحم المشوى ــ حيث إننا لا نمتلك فـرنًا خاصـًا بنا في البيت ، وعبرت الشارع البارد إلى شعلات الحوانيت المضاءة في « شارع فؤاد » ورأيت في نافذة بقال علبة زيتون ، علبة تحمل اسم « أورفيتو » ، فدخلت الحانوت وقد تملكني حنين مفاجئٌ أن أكون على الجانب الحقيقي من البحر المتوسط ، وابتعت العلبة وفتحتها هناك : ثم جلست إلى مائدة رخامية في ذاك الضوء البشع ، وبدأت آكل « إيطاليـا » ، جسدها الأسمـر المقدد ، تربتها الـربيعية وقد نسقتهـا الأيادى ، أعنابها المخصصة للنـذور . وأحسست أن « ميليسا » لن تستطيع فهم هذا على الإطلاق ، وعلى أن أتظاهر بأني قد فقدت النقود .

لم أر في بادئٌ الأمر سيارتها الفارهة التي كانت قد تركتها في الشارع وآلتها تدور . ودخلت الحانـوت بغتة ، بطريقـة سريعة مليئـة بالعزم ، وقـالت في ثقة تتظاهر بها النساء السحاقيات أو الثريات مع معدم واضح الحاجة .

« مـاذا عنيت بمـلاحظتك التي أبـديتهـا عن الطبيعـة المتناقضـة لقـواعـد السخرية» .

ونظـرت إليهـا بطـريقة خشنـة ، فقـد كنت عـاجـزًا عن انتـزاع نفسي من «إيطاليا». ورأيتهـا تنحني إلى أسفل متجهة نحوى من المرايا التـي تغطي ثلاثة حوائط للحجرة ، وقد كسا وجهها الأسمر المثير ، تحفظ متعال حائر . وكنت قد

نسيت بالتأكيد ، ما قلته بخصوص السخرية أو أى شيء آخر له علاقة بهذا الموضوع . فقلت لها ذلك في لا مبالاة طبيعية ، وتنهدت تنهيدة قصيرة كأنما تعبر عن ارتياحها بطريقة عادية ، ثم جلست أمامي وأشعلت سيجارة «كايورال » فرنسية ، وأخذت أنفاسًا قصيرة مبتورة ثم أطلقت نفثات خفيفة من الدخان الأزرق في الضوء الحاد . ونظرت إلى في عبث طائش ، وأحسست بالحرج بينما كانت تراقبني بطريقة صريحة ـ وبدا الأمر وكأنها تحاول أن تقرر أى فائدة يمكن أن ترجى منى . وقالت : « إنني أحب الطريقة التي اقتبست بها أشعاره عن المدينة . إن يونانيتك جيدة ، لا شك أنك كاتب » . قلت : « لا شك في ذلك » . إنه لشيء يؤلم النفس أن يكون الإنسان مغمورًا . وبدا لى أنه لا يوجد ما يبرر متابعة هذا الحديث كله ، فقد كرهت على الدوام تلك المناقشات الأدبية . فقدمت لها حبة زيتون أكلتها في سرعة وبصقت النواة في يدها المكسوة بالقفاز كالقطة حيث أمسكتها دون أن تدرى ، وهي تقول :

« إنني أريد أن آخذك إلى « نسيم » ، زوجي ، هل تصحبني ؟ » كان رجل البوليس الذي ظهر في الممر واضح القلق بسبب السيارة المهجورة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها بيت « نسيم » الكبير بتماثيله والممرات التي يظللها النخيل ولوحات « كوربت » و « بونارد » وما شابه ذلك . لقد كان جميلاً وبشعًا في نفس الوقت . وأسرعت « جوستين » تصعد السلم الضخم . ولم تتوقف إلا لكي تنقل حبة الزيتون من جيب معطفها إلى زهرية صينية ، وهي تنادى « نسيم » طوال الوقت ، وأخذنا نتنقل من حجرة إلى أخرى محطمين الصمت . وأخيرًا أجاب « نسيم » نداءها من المرسم الضخم الواقع فوق السطح، وانطلقت « جوستين » إليه ، وبدت لناظرى ككلب صيد ألقي بي عند قدميه ، ثم وقفت بعيدًا تهز ذيلها . لقد أجهزت علىَّ .

كان « نسيم » جالسًا يقرأ على قمة سلم ، وأخذ ينزل إلينا في بطء ناظرًا في أول الأمر إلى واحد منا ثم إلى الآخر . كان خجله يفوق منظرى الرث ، وشعرى

المبتل ، وعلبـة الزيتـون . ومن ناحيتي لم يكن في وسعى أن أقـدم تفسيرًا يبرر وجـودى ، حيث إني لم أكن أدرى لأى غـرض أحضرتني « جوستين » إلى هـذا المكان .

وأشفقت عليه فقـدمت له زيتونـة ، وبينما نجلس سويًا أتينـا على صفيحة الـزيتون بينما « جـوستين » تعد لنـا الشراب وتتحـدث ، إذا كنت أتذكـر ، عن «أورفيتو » ، حيث لم يـذهب أىٌ منا . إنه عـزاء كبير أن أعود بـذاكرتى إلى ذلك اللقاء الأول . لم أكن قريبًا إلى كليهما في يـوم من الأيام كما كنت في ذلك اليوم ، أعنى قريبـًا من حياتهما الـزوجية ، لقد بـديًا لى حينئـذ وكأنهما ذلك الحيوان الـرائع ذو الرأسين الـذي يمكن أن يكـونه الـزواج . وأدركت وأنـا أراقب ذلك الـدفء الشفـوق في عينيـه ، بينما استعـدت كل الشـائعـات الفـاضحـة عن «جوستين» . إنه مهما كان ما فعلته ، حتى ما كان آثمًا أو ضارًا في أعين العالم ، فإنها قد فعلته ، من زاوية مـا ، من أجله . كان حبها له يشبه جلـدًا يرقد داخله وقـد خيط من حـولـه مثل « هـرقل » الطفل ، ولقـد قـادتها على الـدوام كل محاولاتها لتحقيق ذاتها في اتجاهه لا بعيدًا عنه . أنا أعرف أنه لا يوجد في العالم مكان لمثل هذا التناقض الظاهري ، ولكـن بدا لي حينئذ أن « نسيم » كان يعرفها ويتقبلها بطـريقة يستحيـل شرحها لامـرئ ما زال الحب بـالنسبة إليـه مقيدًا برغبة الامتلاك . ولقد قال لي « نسيم » ذات مرة ـ فيما بعد : « ماذا كان علىّ أن أفعل ؟ لقد كانت « جوستين » بالنسبة إلىَّ ، قوية للغاية في نواح عديدة جدًا ، لقد كان في وسعى أن أتفـوق في حبى لها ، وكان ذلك مطلبى على المدى البعيـد . لقد تقـدمتها ـــ متوقعـًا كل عثرة ، وحيث سقطت في كل مـرة ، وجدتني هنـاك في انتظارهـا مستعدًا أن أعاونها لتقف على قـدميها ، مظهرًا أن مـا حدث لا يهم . ومع ذلك فإنها عرضت للهوان أضـأل شيء في ذاتي ـ سمعتي » .

لقـد دار هـذا الحديث بعـد لقائنـا الأول بكثير . فقبل أن تجرفنـا البـلايـا بتشابكاتها المشئـومة . لم نكن نعرف بعضنا البعض بالقـدر الكافى لنتحدث في

صراحة كتلك الصراحة ، وأتذكره أيضـًا وهو يقـول ذات مرة ـ وكـان هذا في الفيللا الصيفيـة قرب « بـرج العرب » : « ستصيبك الحيرة عنـدما أخبرك أنني كنت أعتقد بأن « جوستين » عظيمة على نحو ما . وأنت تعلم أن هناك أنواعًا من العظمة تـدمر الحيـاة العاديـة إن لم تمارس في الفن أو الدين . ولقـد أسىء إلى موهبتها عندما وجهت نحو الحب . لقد كـانت بالطبع سيئة في عديد من الأمور ولكنها كانت أمورًا بسيطة . كما انه ليس في وسعى أن أقول : إنها لم تؤذ أحدًا ، ولكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم قـد صيرتهم أكثر نضجًا . كانت تخلع عن الناس نفوسـهم البالية . ولابد أن ذلك كان يؤلمهم . وأخطأ الكثيرون في فهم طبيعة الألـم الذي أوقعتهم فيه ، ولكني لم أكن واحدًا منهم » . وابتسم ابتسامته التي كانت تمتزج فيها الحلاوة بمرارة يصعب التعبير عنها . وعاد يكرر في رقة نفس الكلمات من تحت أنفاسه « ولكني لم أكن واحدًا منهم » .

* * *

« كابوديستريـا » .... كيف نقدمه في هذا المقام ؟ إنه أقـرب للشيطان منه إلى الإنسان الذي تظنه . رأسه كراس الحية ، مسطحـة مثلثة بفصوصـها الأمامية الضـخمة . ينمو شعره إلى الأمام بنفس الطريقة التي ينمو بها الشعر على رأس أرملة . يميل لسـانه إلى البياض وهو لا يستقر على حال ، يعمل دائماً في المحافظة على شفتيه الـرقيقتين رطبتين . إنه ثرى ثـراء فاحشًا ولا يحتــاج إلا لأن يرفع أصبعًا حتى يجاب إلى طلبه . يجلس طوال اليوم في شرفة نادي السماسرة يرقب النسوة العـابرات ، بعين لا تهدأ ، عين امرئ تعبث بـلا توقف خلال مجمـوعة قديمة من أوراق اللعب الملونة . ثم تصـدر عنه ما بين الحين والحين « طرقعة » شبيهـة بتلك التي تصدر عن لسـان الحربـاء ـ إشـارة لا يكاد يلمحهـا إلا من يتابعه . وعندها ينساب من الشرفـة خيال رجل يلاحق المرأة التي أشار إليها . ويوقف رجاله النساء أحيانًا علانيـة ويلحون عليهم باسمه ذاكرين قدرًا معينًا من المال ، وفي مـدينتنـا لا يحس بـالمهانـة عنـد ذكـر المال . إن بعض الفتيـات

يضحكن في بساطة . والبعض الآخر يقبلن في الحال . لن ترى ألبتة غضبًا يكسو سماتهن . إذ لا يمكن أن ندعى الفضيلة أو الرذيلة ، فكلاهما أمر طبيعى .

ويجلس « كابوديستريا » بعيدًا عن كل ما يجرى ، في معطفه الطاهر الذيل المصنوع من الشارك سكين وقد تدلى منديله الحريرى الملون على صدره . حذاؤه الرفيع يلمع . إن أصدقاءه يدعونه باسم « داكابو » لما اشتهر به من قدرة جنسية ضخمة كثروته ـ أو قبحه . إنه يمت بصلة قرابة غامضة إلى «جوستين » التي تقول عنه : « إنني أرثى لحاله ، فقد ذبل قلبه وتيبس في أعماقه، وبقيت له حواسه الخمس ، كحطام زجاجة من النبيذ » . ومع ذلك يبدو أنه لا يضيق بمثل تلك الحياة الشديدة الرتابة . ولقد تميزت عائلته بحوادث الانتحار التي وقعت فيها ، ميراثه النفسي شقى بتاريخه الحافل بالاضطرابات والأمراض العقلية . ورغم ذلك لا يبدو عليه القلق ، وهو يلمس صدغيه بسبابته الطويلة ويقول « لقد اختل أسلافي جميعًا ،.هنا في الرأس ، حتى أبى . لقد كان زير نساء كبير ، وعندما غدا عجوزًا للغاية كان لديه نموذج مصنوع من المطاط للمرأة الكاملة بحجمها الطبيعى . كان من الممكن ملؤه بالماء الساخن في الشتاء . كانت فائقة الجمال . وكان يدعوها باسم أمه « سابينا » . ويأخذها معه إلى كل مكان . كان يهوى السفر على عابرات المحيط . ولقد قضي بالفعل العامين الأخيرين من حياته على ظهر واحدة منها ، يقطع البحر إلى « نيويورك » جيئة وذهابًا . وكان « لسابينا » صوان ملابس يثير العجب . كان مشهدًا مثيرًا أن تراهما يدخلان غرفة الطعام ، وقد ارتديا ثياب العشاء . كان يسافر مع حارسه ، رجلاً يدعى « كيلى » . وبينهما كانت تسير « سابينا » بملابس السهرة الرائعة ، وقد أسندها كل من ناحية ، كامرأة جميلة سكرى . وفي الليلة التي مات فيها قال « لكيلى » أبرق إلى « ديمتريوس » وأخبره أن « سابينا » قد ماتت الليلة بين ذراعي دون أن تعاني ألمًا » . وقد دفنت معه على مسافة بعيدة من « نابولي » وضحك « كابوديستريا » ضحكة لم أسمع ألبتة ، أكثر منها صدقًا وطبيعية .

واكتشفت فيما بعـد وأنـا أكـاد أجن من القلق وقـد أثقلتني ديـون «كابوديستريـا » أنه أقل مجاملة مما كنت أعتقد ، إذ حـدث ذات مساء أن كانت «ميليسا » تجلس هناك نصف سكرى فوق مسنـد الأقدام إلى جوار النار ، وقد أمسكت بأصابعهـا الطويلة المتأنيـة سند الدّين الـذي كتبته له وقـد خط عليه بالحبر الأخضر كلمة « خالص » تلك الكلمة المقتضبـة ... إنها ذكريات موجعة . وقالت « ميليسـا » . « كان من الممكن أن تـدفع « جوستين » دينك مـن ثروتها الضـخمة . ولكنى لم أشأ أن أراها تشدد قبضـتهـا عليك . فضـلاً عن أنى ما زلت أرغب في أن أفعل شيئًا من أجلك ، رغم أنك لم تعد تبالى بى ـ وتلك أقل تضـحية . لم أكن أعتقد أنه سيـؤلمك كثيرًا أن أنام معه . ألم تفعل أنت نفس الشـىء معى ـ أعنى ألم تقترض أنت النقـود من « جوستين » كـى ترسلنى بعيـدًا كى أكشف بأشعة X ؟ رغم أنك قد كذبت علىّ بهذا الخصوص وقـد عرفت أنا ذلك . أما أنا فلا أكذب ـ لا أكذب أبدًا . هيا ، خذها ومزقها ، ولكن لا تقامر معه بعد ذلك . إنه ليس من طينتك » .

وصدر عنهـا وهي تدير وجههـا صوتًا كـذلك الصوت الذي يأتيـه العرب عندما يبصقون .

إنني لا أرغب في الكتـابـة عن حيـاة « نسيم » الخارجيـة ـــ عن حفـلات الاستقبال الفخمة المملة ، والتي كانت تقام في البدء خصيصًا لزملائه من رجال الأعمال ثم كرست فيما بعـد لغايـات سياسية غـامضة . كنت أتـوقف لحظة ، بينما أنسل عبر البهـو الكبير وفوق السلالم إلى المرسـم ، لأقرأ اللـوح الجلدي الكبير الموضوع فـوق المدفأة وعليه تصميم المائدة ـــ لأرى من الذي وضع إلى يمين « جوستين » ويسارهـا . لقد قاما لمدة قصيرة بمحـاولة رقيقة لضمى إلى تلك الاجتماعات إلا أننى سرعان ماسئمتها محتجًا بالمرض ، رغم سعادتي بأن أفعل ما أشـاء في المرسم والمكتبة الضخمة . وكنـا نلتقي فيما بعد كالمتـآمرين ، فتطرح « جوستين » ما تتقنع به في حياتها الاجتماعية من عواطف المرح ، والملل

والنزق . كانـوا يرفسون أحذيتهم في ضـوء الشموع ، ويلعبون بأوراق اللعب كل إثنين معا . وعندما تذهب إلى فراشها فيما بعد كانت تنظر إلى نفسها في المرآة الموجودة بـالطابق الأرضي وتقول لصورتها : « أيتهـا اليهودية المتعبة الـدعية المختلة » .

* * *

يقع محل « منمجيان البابليونى » الحلاق على ناصية شارع « فؤاد الأول » و « النبى دانيال » . هنا يتمدد بومبال كل صباح إلى جوارى في المرايا . كنا نُرفع معًا في وقت واحد ثم نؤرجح في هدوء إلى أسفل نحو الأرض وقد لففنا كفراعنة أمـوات ، ثم نعود للظهـور على السقف في نفس اللحظـة وقـد بسطنا كعينـات نموذجية . لقد فرد علينا صبى صغير أسود قطع قماش بيضاء ، بينما الحلاق « يطرقع » وهـو يقلب رغوته الكثيفـة الحلوة الرائحة في قـدح الحلاقة الكبير « الفيكتـورى » الطـراز ، قبل أن يضعهـا على خـدودنـا بضربـات مبـاشرة من الفرشاة. ثم يسلم عمله وقد تمت المرحلـة الأولى منه إلى مساعده ، بينما يتوجه هو إلى سير جلـدى كبير يتدلى بين أوراق اصطيـاد الذبـاب على الحائط الداخلى للمحل ويأخذ في شحذ موس إنجليزي النوع .

إن « منمجيان » الصغير ، قزم ذو عين بنفسجية لم تفقد طفـولتها أبدًا . إنه الـرجل الذي يحتفظ بكل شيء في ذاكـرتـه ، إنه أرشيف المدينـة . فإن رغبت في معرفة أسلاف أو دخل أغلب العابرين بطريق الصدفة ، ما عليك إلا أن تسأله ، فيتلو عليك التفاصيل في صوت منغم بينما يشحذ موسه ويجربه في شعر زنده الأسود الخشن . وفي وسعه أن يكتشف ما لا يعـرفه في لحظات معدودة . وهو فضلاً عن ذلك حجة في الموتى كما في الأحياء . أعنى هذا بالمعنى الأدبى للتعبير ، حيث يستخدمه المستشفى اليوناني ليحلق لضحاياه ويعدهم قبل أن يعهد بهم إلى الحانـوتية ـــ عمل يؤديـه بمتعـة يلونها حماس يتميـز به بنى جنســه . إن صنعته العتيقة تضم العالمين ، وتبدأ بعض من أفضل ملاحظاته بالجملة التالية

« كما قال فـلان ـ وفـلان وهو يلفـظ آخر أنفـاسه » . ويشـاع عنه أنـه جذاب للنساء على نحو غـريب ، ويقال إنه قد كون ثروة صغيرة كسبتهـا له المعجبات به. إلا أن لـه كذلك عـدد من الزبائن الـدائمين من عجائز السيـدات المصريات ، نساء وأرامل بعض الباشوات واللواتى يتردد عليهن في فترات منتظمة ليصفف لهن شعورهن . وهن كما يقول في خبث ، « قد تجاوزن كل الحدود » . ويمد يده ليبلغ ظهره ، يتحسس حـدبته القبيحـة المنظر والتي تتـوج ظهره ويضيف في افتخار « إنها تثيرهن » . ولديه بين أشياء أخـرى علبة سجائر ذهبية أعطتها له واحـدة من تلك المعجبـات ، وهـو يحتفظ فيهـا بكميـة من ورق السجـائر غير الملفوفة . إن يونانيته ركيكة ولكنهـا جريئة وحية كما أن « بومبال » يرفض أن يسمح له بأن يتحدث الفرنسية ، اللغة التي يجيدها أكثر من اليونانية .

وهو يؤدي لصديقي بعض الخدمات اللطيفـة . ويدهشنى فيه دائماً قدرته على التحليق الشـاعري الفجـائي الـذي يجيده عنـدمـا يصف النساء اللـواتي يضعهن تحت حمايته . إنـه ينحني فوق وجه « بـومبال » الذي يشبـه القمر . ويقول ، مثلا ، في صوت خافت حذر ، وقد أخذ موس الحلاقة في الهمس «عندى لك شيء ـــ شيء خصـوصي » . وتلتقي عين « بـومبـال » بعيني في المرآة فيبعـد ناظريه سريعًا حتى لا تنتقل عـدوى الابتسام من أى منا إلى الآخر . ويدمدم في حذر . ويميل « منمجيان » في خفة على أطراف قـدميه ، وفي عينيه حول خفيف ، والصوت الخافت المداهن يثير معنى مـزدوجًا حول كل مـا يقول ـ وحـديثه لا يقل إثارة للانتبـاه ، حيث يقطعه بتنهيدات المتعب من الـدنيا . ويستمر لفترة لا يضيف لما قال شيئًا . في وسعى أن أرى قمـة رأس « منمجيان » في المرآة ـ ذلك البروز القبيح من الشعر الأسـود الذي شذ به على كل من صـدغيه على صورة خصلة كـالبصقة ، آملا دون شك في شـد الانتباه بعيدًا عن ذلك الظهـر المقوس الذي يميـزه . وبينما يعمل بالموس تغيـم عيناه وتغدو مـلامحه خاليـة من كل تعبير وكأنها ملامح زجاجة وتنتقل أصابعه فوق وجوهنا الحية ببرودة تماثل

تلك التي ينتقل بها فـوق وجـوه المتأنقين والموتى (وهم المحظـوظون حقـًا) .
ويقول « منمجيـان » : « سينشرح صدرك هـذه المرة من جميع الـوجوه . إنها صغيرة ، رخيصة ونظيفة . ستقول لنفسك إنها طـائر قطًا صغير ، قرص شهد عسله كله ما يزال بداخله ، يمامـة . إنها تعانى بعض المتاعب المالية . فقد عادت مؤخرًا من مصحة الأمراض العقلية في حلـوان . حيث حاول زوجها أن يودعها هناك بدعوى أنها مجنونة . لقد أعـددت لها مكانًا تجلس فيه في « الروزمارى » عند آخر منضدة على الرصيف . اذهب وعاينها الساعة الواحدة ، فإن أردت أن تصطحبك ، اعطها البطـاقة التي سأعدهـا لك ، ولكن تذكر ، الـدفع لى وحدى . وهذا هو الشرط الوحيد الذي أضعه بين سيـد مهذب وسيد مهذب آخر يتعامل معه » .

ولا يقول المزيـد حينذاك . ويحملق « بومبال » في نفسـه في المرآة ، يتصارع فضوله الطبيعي مع هواء الصيف البائس الكسول . وأخيرًا سينطلق دون شك إلى الشقة ومعه مخلوقـة مرهقة مختلة لا تثير ابتسامتها المشـوهة في نفسه إلا الشفقـة . ليس في وسعى القـول بأن صـديقى ينقصه العطف والحنـان ، إنـه يحاول دائماً تـوفير عمل من أى نوع لهؤلاء الفتيـات . وفي الحقيقـة فإن أغلب القنصليات متخمة بالعاملات اللـواتى جمعته الصدفة بهن من قبل ، واللواتى يحاولن جهدهن الظهور بمظهر المستقيمات ، إنهن مـدينات بوظائفهن لإلحاح «جورج » على زمـلائه في المهنة . ومع ذلك فلا تـوجد امرأة لم تنل من رعـايته المظهرية مهما كانت هذه المرأة ذليلة أو متهدمة أو عجوزًا ، لم تنل من تصرفاته البسيطة القائمة على النخوة والمروءة ولمحـات الفطنة ، والتي بدأت أربط بينها وبين المزاج « الغالى » (*) . إنه السحر الفرنسى المزوق المندفع والذي يتحول في سهولة كبيرة إلى كبرياء وكسل عقلي ، كالفكـر الفرنسي الذي ينساب سريعًا إلى قوالب رملية ، كالنفس الفطرية وقد تصلبت في الحال إلى آراء هزيلة . فإن لعبة

(*) Galli,

الجنس السهلة والتي تهُوم حول أفكاره وأفعاله لا تحمل أى جو من الإثرة مما يجعلها ، مثلاً ، تختلف اختلافًا كيفيًّا عن أفكار وأعمال « كابوديستريا » ، الذي يلحق بنا في أغلب الأحيان بينما نحلق في الصباح . إن ! « كوبوديستريا » القدرة الفطرية الخالصة على أن يقلب كل شيء إلى امرأة . فتحت نظرات عينيه تعانى المقاعد الألم لإحساسها بعرى سيقانها ، إنه يلقح الأشياء بعينيه ، ولقد رأيت بطيخة فوق المائدة وقد غدت حساسة تحت نظراته حتى أنها أحست بالبذور التي في أحشائها وهي تنبض بالحياة . وتحس النسوة عندما ينظرن إلى وجهه الضيق المفلطح بلسانه الذي لا يكف عن الحركة عبر شفتيه الرقيقتين بإحساس الطيور التي تتصدى لها أفعى سامة . إنني أفكر في « ميليسا » مرة أخرى :ـ

أختي العروس التي تشبه حديقة مغلقة .

* ** *

قالت « جوستين » : ـ « إنك تنظر إلينا في ازدراء . إذ كيف يمكن أن تكون واحدًا منا إلى هذا الحد ومع ذلك ... فإنك لست كذلك ؟ » . إنها تمشط شعرها الفاحم في المرآة ، وفمها وعيناها مشدودة نحو سيجارة ، « لابد ، لكونك «أيرلنديًا » ، أن تكون لاجئًا بسبب أفكارك ، إلا أنك لا تعاني ما نعانيه نحن من قلق » . إن ما تسعى إليه « جوستين » إنما هو في الحقيقة ذلك الشيء الخاص المميز والذي لا ينبعث منا نحن ولكن من المناظر الطبيعية ـ إنها روائح الإرهاق التي تشبه رائحة المعدن والتي تملأ أجواء مريوط .

وأفكر أنا ، بينما تتكلم « جوستين » ، في الرجال الذين أسسوا المدينة ، في الجندي ـ الإله في تابوته الزجاجي ، الجسد الشاب ملفوفًا في الفضة يمخر النهر نحو مقبرته . أو في ذلك الرأس الزنجي الضخم الممتلئ وهو يردد ما توصل إليه من خلال التأمل الفكرى الخالص عن تصوره للإله ـ «بلوتينوس». وكأن هموم هذه الرقعة من الأرض قد تمركزت في مكان ما بعيدًا عن متناول المواطن

العادي ـ في منطقة يضطر فيها الجسد ، وقد جرده تسامحه الزائد عن الحد من أسراره الأخيرة ، إلى الخضوع إلى سيطرة أكبر شمولاً بكثير : أو أن يهلك في نفس الإرهاق الذي عبرت عنه أعمال « الموسويين » لعب الخناث الخالي من الفن في ساحات العلم والفن المورقة . والشعر محاولة فجة تصيب عرائس الشعر بعقم زائف : ويلمع التشبيه الأحمق المؤلم المأخوذ عن شعر « برنيس » في سماء الليل فوق وجه « ميليسا » النائم . لقد قالت « جوستين » ذات مرة « آه ، لابد أن يكون هناك شيء بلا مقابل ، شيء يمت إلى « جزر الباسفيكى » في تلك الإباحية التي نحياها » . وربما أضافت : أو حتى شيء يمت إلى البحر المتوسط حيث يختلف مغزى القبلة في « إيطاليا » أو « إسبانيا » ، هنا تحك الرياح القاسية الجافة والتى تهب من صحارى « أفريقيا » أجسادنا فنجبر على أن نستبدل الحب برقة ذهنية أشد قسوة ، إنها تؤكد بالضرورة وحشتنا بدلاً من أن تحد منها .

وغدا للمدينة الآن قطبًا جاذبية ـ القطب الحقيقي وقطب الجاذبية الشمالي والذي يحمل طابعها ، وبينهما يتوهج مزاج سكانها في قسوة كشحنة كهربية مفرغة ومنطلقة . إن مركزها الروحى كان في مكان « السوما » الذي ذهب في طي النسيان حيث دفن يومًا ما جنديها الشاب الحائر في إلوهيته المستعارة ، ومركزها الدنيوى في نادي السماسرة حيث جلس سماسرة القطن «كالقباليين»[1] يرشفون قهوتهم ويدخنون السيجار الفاخر ، ويراقبون كابوديستريا ـ كما يراقب الناس على ضفة النهر ما يحرزه الفنان أو الصياد من تقدم . لقد كان الأول بالنسبة لي رمزًا لانتصارات الإنسان في مجالات المادية والزمان والمكان ـ والتي يجب أن تخضع بصورة حتمية خبرتها المريرة في الهزيمة للمنتصر الراقد في نعشه ، أما الآخر فإنه لم يكن رمزًا ، ولكنه كان

---

(١) مجموعة من الناس تعمل وتتآمر سرًا ، تدعو إلى الفلسفة الدينية السرية لاحبار اليهود .

حافة الجحيم الحية للإرادة الحرة التي تجوس خلالها محبوبتي ، تبحث في وحدانية ذهنية مخيفة عن شرارة الكمال والتي يمكن أن ترفعها إلى ما تطمح فيه من رؤيا جيدة لنفسها . ففي أعماقها كواحدة من بنات « الإسكندرية » كانت الإباحية ـ على نحو غريب ــ شكلاً من أشكال إنكار الذات ومسخًا للحرية. ولو نظرت إليها كنموذج للمدينة فلا يعنى هذا بالضرورة «الإسكندرية » أو « بلوتينوس » الذي أجبرت على التفكير فيه ، ولكنها كانت كابنة « فالنتينوس » الثلاثين الحزينة والتي سقطت « لا كما سقط الشيطان بالتمرد على الإله ، ولكن بالرغبة العارمة في الاتحاد به » . إن أى تماد ينقلب إلى خطيئة .

وسقطت ــ كما يقول الفيلسوف التراجيدي ــ لانفصالها عن الانسجام الإلهي مع ذاتها ، وغدت مظهرًا للمادة ، تشكل عالم مدينتها كله ، والعالم جميعه من عذابها وتأنيب ضميرها . إن البذرة المأساوية التي نمت عنها أفكارها وأعمالها كانت بذرة القدرية التشاؤمية .

إنني أعرف أن هذا التعريف صحيح ـ فقد حدث بعد ذلك بوقت طويل أن سمحت لي ، في كثير من الريب والهواجس ، أن أنضم إلى الحلقة الصغيرة التي كانت تجتمع كل شهر حول « بلتازار » والذي كان حديثه عن القدرية هو أكثر ما يشد انتباهها دائماً . إنني أتذكرها وهي تسأله ذات ليلة في قلق وتوسل عما إذا كانت قد أولت فكره تأويلاً صحيحًا ، « أعنى أن الله لم يخلقنا ولم يرغب في أن نخلق ، ولكننا من صنع إله صانع أقل مرتبة ، اعتقد خطأ بأنه الإله [1] ؟ ياللسموات ! كم يبدو هذا الاحتمال مرجحًا ، وتلك العجرفة التي ورثناها ثم نورثها لأبنائنا » . وبينما نسير أوقفتني بأن وقفت أمامي وأمسكت بثنيات

---

(١) في الفلسفة اليونانية هناك إله متكبر يترفع عن صناعة أى شيء وهناك إله صانع هو الذي كلف بخلق البشر إلخ ...

معطفي وحملقت بحماس في عيني وقــالت : « ما الــذي تؤمن بــه ؟ إنك لا تتكلم ألبتة ، وأكثر ما يصدر عنك أن تضحك في بعض الأحيان » . لم أعرف بم أجيبها فقد بدت لى كل الأفكـار متماثلة الجودة ، وحقيقة وجودهـا وبقائها يبرهن على أن هناك قوة خالقة . فهل يهم إن كانــوا ، موضوعيًا ، على خطأ أم على صواب ؟ إنهم لن يستمروا هكذا لفترة طويلة . ولكنها صرخت وهي تؤكد بطريقة مؤثرة « ولكنه يهم ، بصورة عميقة ، بصورة عميقة يا حبيبي » .

إننا أبناء الطبيعة المحيطة بنا ، وهي تملى علينا سلوكنا وحتى فكرنا بالقدر الــذي نستجيب به لها . لم يكن في وسعى أن أفكــر في تعـريف أفضل من ذلك ـ «إن تشككك مثــلاً ، والــذي يتضمن قــدرًا كبيرًا مــن القلق ومثل هــذا التعطش للحقيقة المطلقة ليختلف إلى حــد بعيد عن الشك اليوناني ، عن التــلاعب الذهني الذي تتميــز به عقلية البحر المتــوسط والذي يلجأ عامدًا للسفسطــة كجزء من لعبة الفكر ، لأن فكرك سلاح ، ولا هوت » .

« ولكن كيف يمكن أن يحكم على الفعل بغير هذه الطريقة ؟ » .

« لا يمكن أن يحكم عليــه حكماً شامــلاً قبل أن يقيم الفكر ذاتــه ، فأفكارنــا ذاتها إنما هي أفعال . إن محاولــة إصدار أحكام جـزئية على أى منها هــو الذي يقود إلى الريب والشكوك » .

أحببت كثيرًا الطريقــة التي تجلس بها فجأة على حائط أو عمــود مكسور في الفناء الخلفي المتهدم لعمود « بومبي » ، وتغـرق في حزن لا يخمد لفكرة طرأت للتو على ذهنها . « هل هذا حقًّا هو ما تعتقـد ؟ » .، تقولها بطريقة حزينة تجعل المرء يتأثر منها ويطرب لها في نفس الوقت . « ولماذا تضحك ؟ إنك تضحك دائماً من أكثر الأمور جدية . آه بالتأكيـد يجب أن تكون حزينًا » . لو لم تكن تعرفني ألبتة ، لاكتشفت فيما بعد بــالضرورة أنه بالنسبة لنــا نحن الذين نحس الأمور بعمق ، والذين نعى كل ذلك التشابك المعقد للفكر الإنساني ، فإنه لا يصدر عنا سوى رد فعل واحد ـ هو الصمت والرقة الساخرة .

لم يكن هناك ما أفعله ، في ليلة تلمع بالنجوم حيث تعيد اليراعات المنتشرة في العشب الجاف الحاد بـريقها الأرجـواني الشاحب كـالطيف إلى السماء ، إلا أن أجلس إلى جوارها أربت تلك الهامة الفاحمة من الشعر الجميل ، ولا أقول شيئًا. ومن تحتنـا انطلق كنهر داكن ، ذلك الاقتبـاس الجليل الذي اتخذه « بلتـازار » مرجعـًا له والذي كـان يقرؤه وهو ينتفض بعض الشيء من العـاطفة والبعض الآخر من الإرهاق الـذي يعانيه من كل ذلك الفكـر الغامض . « إن نهار الجسد هـو ليل الروح . فعنـدما تكف الأجســاد عن العمل تبـدأ الأرواح الإنسـانيـة في العمل . إن صحوة الجسـد إنما هي نوم الروح . ونوم الـروح إنما هو صحوة الجسد » . وأخيرًا قـال في صوت كهزيم الرعـد : « إن الإثم هو أفضل سبيل إلى الضلال » .

* * *

كنت أشك لفترة طويلة في أن « نسيم » قد وضع « جوستين » تحت المراقبة ، ومع ذلك بدت طليقـة كالوطواط وهي تطير خلال الليـل عبر المدينة ، لم أسمعه يطلب منهـا أن تقدم لـه حسـابًا عـن تحركاتها . ليس سهـلاً أن تتجسس على شخص لا يستقر على حال ، متصل بحياة المدينة في أمـاكن عديدة للغاية . ومع ذلك فمن المحتمل أنها كـانت تحت المراقبة حتى لا يصيبهـا أذى أو ضرر . ففي إحـدي الليالى ذكـرتني إحـدى الحوادث بتلك الفكـرة ،إذ كنت مـدعوًّا لتنـاول العشـاء في البيت القـديم . وكنا نتنـاول العشـاء ، حينما يكـونا بمفـردهما في «شـاليه» صغير في نهايـة الحديقة حيث يمكن أن تمتـزج رطوبـة الصيف مع خرير الماء المتسـاقط من رءوس الأسود الأربعة المحيطة بالنـافورة . وتأخرت «جـوستين » في تلك المناسبـة الخاصة ، وجلس « نسيم » بمفـرده وقد شـدت الستائر إلى الخلف نحـو الغرب ، يلمع في أناة بـأنامله الطـويلة الرقيقـة حجرًا أخضر من « اليشب » من مجموعته .

كان قـد مضى بالفعل أربعـون دقيقة على ساعـة العشاء فأشـار كي يقدم

الطعام وفي تلك اللحظة صَدر عن التليفون الداخلي الصغير الأسود صوت أشبه بصوت الإبـرة ، فعبر المكان إلى المنضدة والتقطـه وهو يتنهد ، وسمعتـه يقول وقد نفد صبره : « نعم » ، ثم تكلم لبرهة بصوت منخفض ، مغيرًا لغته فجأة إلى اللغة العربية ، وللحظة انتابنى شعور داخلي مفاجئ بأن « منمجيان » هو الذي يتحدث إليـه عبر الأسلاك . لم أدر لم انتابني ذلك الإحسـاس . وخط شيء ما في سرعة على مظروف ، ووقف يستظهر مـا كتب بعد أن وضع سماعة التليفون . ثم استـدار إليّ ، وفجأة غـدا « نسيم » الـذي يحدثني شخصا آخـر غير الـذي أعرفه، وقال « ربما احتاجت « جوستين » إلى أن نقدم لها يد العون والمساعدة ، فهل تحضر معى ؟. ودون انتظـــار لجواب انـــدفـع يهبط درجـــات السلم إلى «الجاراج » عبر بركة الزنابق . وتبعته على قدر ما استطعت . لم يستغرق الأمر دقائق وانطلقت بنا سيارته الرياضية الصغيرة عبر البوابات الثقيلة إلى « شارع فؤاد » وأخذ يشق طريقه عبر شبكة الشوارع التي تنحدر نحو « رأس التين » . كان المارة قليلين رغـم أن الوقت لم يكن متأخـرًا ، وانطلقنا على طول شـواطئ الكورنيش نحو « نادى اليخت » بعد أن لحقنا بعربات الحنطور القليلة (عربات الحب) والتي كانت تتسكع صعودًا وهبوطًا على شاطئ البحر .

وانحرفنـا عند الطـابية ودخلنا الأحيـاء المزدحمة القذرة التي تـرقد خلف شارع « التتـويج » ، ومصابيـح السيارة الأماميـة تكشف بأنـوارها الـزاهية المقاهي المليئة بالنـاس كعش النمل والميادين المزدحمة ، إنها تكشفه بإشعاع لم يألفه النـاس في هذا المكان ، ومن مكـان ما خلف المنازل المحطمـة والخالية من القـوائم الخشبيـةوالموجـودة أمـــامنـا مبـاشرة ، انطلقت الصرخـات الحادة و«الولولات » من أحـد المآتم وقد جعلت الندابات المحترفـات الليل موحشًا بما يرددنه من رثاء عن الميت . وتـركنا السيارة في شارع ضيق إلى جوار الجامع ، ودخل « نسيم » بـوابة عمارة كبيرة مظلمـة يتكون نصفهـا من مكاتب مغلقـة عليها لـوحات بأسماء أصحابها وقد طمســت الكتابة الموجودة عليهـا . وهناك

بواب وحيد يجلس على مصطبة يدخن نـارجيلة قصيرة الساق ، وقد لف نفسه في خرق ، فبدا للناس أجمعين كشيء منبوذ (كإطار سيارة قديم) . وتحدث إليه « نسيم » بطريقـة حادة ، وقبل أن يجيب الـرجل كان « نسيم » قـد عبر خلفية البناء من أولها إلى آخـرها إلى مكـان يبدو كفنـاء خلفي مظلم تمتد على جـانبيه مجموعـة من المنازل المتهدمة المبنيـة من الطوب الطيني وقد تساقط طـلاؤها . ولم يتـوقف إلا ليشعل ولاعتـه ، التي بـدأنا على ضـوئهـا الخافت بحثنًـا عن الأبواب . وعند البـاب الرابع أطفأ الولاعة وأخذ يطـرق الباب بقبضته . ولما لم يجبه أحد دفع الباب وفتحه .

وواجهنا ممر يقـود إلى حجرة صغيرة معتمة يضيئها نـور مصابيح زيتية خافتة . وكان من الواضح أن هذه الحجرة هي مقصدنا .

كان المنظـر الذي اقتحمناه منظـرًا غريبًا بصـورة وحشية ، إن لم يكن لأى سبب غير الضـوء المنطلق من الأرضية الطينيـة إلى أعلى ، وقد لامس حـواجب وشفاه وعظام وجنـات الموجودين في الغرفة بينما تـرك بقعًا كبيرة من الظلال على وجوهـهن ـ فبدوا وكأن الفئـران قد نهشت نصف وجوهـهن ، تلك الفئران التي كنا نسمعهـا وهي تتدافع بين العـوارض الخشبية لتلك البنايـة التعسة . كانت دار دعارة للمومسات الصغيرات ، وفي العتمة وقفت « دستة » من الفتيات بشعورهن المنكوشة وقد لبسن قمصـان نوم مضحكة على نمط القمصـان التي جاء ذكـرها في التوراة ، وطلين شفاهـهن وارتـدين عقودًا من الخرز المزركش ، وخـواتم رخيصـة ، لم يكن قـد تجاوزن سن العـاشرة كثيرًا ، وكـانت بـراءة الطفولة التي تشع من تحت الملابس الملـونة تتناقض تناقضًا مفـزعًا مع المنظر الهمجي لبحـار فـرنسي ضخم الجثـة واقف في منتصف الحجـرة على سـاقين معوجتين ، ووجهـه المشوه المعـذب قد خـرج من عنقه نحـو «جوستين» التي وقفت وقد اتجه جـزء من وجهها نحونـا . إن القوة التي نطق بها الكلمات التي كان يصرخها للتو والتي تلاشت في الصمت كانت ما تزال واضحة في نتوء ذقنه

وعضـــلات عنقه المشـــدودة السوداء . أمـــا عن « جوستين » فقـد كان وجههـا مضيئًا بنوع من الصرامة الغامضة المتألمة . كانت تمسك بزجاجة وترفعها بيد واحدة ، وكان واضحـًا أنها لم تلق بواحدة مثلها من قبل ، فقـد كانت تمسكها بطريقة خاطئة .

وتمددت فـوق كنبة بـالية في ركن مـن أركان الحجـرة أضاءه الظل الـدافئ المنعكس عن الحيطان ، فتاة صغيرة وقد انكمشت داخل قميص نومها بصورة بشعة تـوحي بالموت . كان الحائط فـوق الكنبة مغطي بنقوش زرقـاء لكفوف صغيرة ، إنها التميمـة التي تحمي المنـزل في هـذا الجزء من العـالم ، من العين الشريـرة ، كانت الـزخـرفـة الوحيـدة في الحجـرة ، وفي الحقيقة كـانت أكثـر الزخارف انتشارًا في كل الحي العربي من المدينة .

ووقفنا هناك أنا و « نسيم » لفترة ليست بالقصيرة مأخوذين بالمنظر الذي أمامنا والذي كان له نوع من الجمال المخيف ـ إنها تشبه على سبيل المثال بعض الصـور المحفورة الملـونة البشعـة لإنجيل من العصر الفيكتـورى ثمنه فلسـًا واحدًا، وقـد شوهت واستبـدلت مادة موضـوعة : كـانت « جوستين » تشهق بطريقة توحى بأنها قد أوشكت على البكاء .

وانقضضنا عليها ، على ما أعتقد ، وسحبنـاها خارجًا إلى الطريق ، وعلى أى حال فإنني لا أتذكر سوانًا نحن الثلاثة وقد بلغنا الشاطئ وانطلقت بنا السيارة على طول « الكورنيش » في ضوء القمر البرونزي الرائق ، ومرآة السيارة تعكس وجـه « نسيم » الحزين الصـامت ، وصـورة زوجتـه الصامتـة الجالسـة إلى جـواره، تحملق في الأمـواج الفضية وهي تتكسر بينما تـدخن السيجـارة التي اقترضتها من جيب سترته . وأخيرًا قبلت « جوستين » « نسيم » برقة في عينه ، ونحن في « الجاراج » ، قبل أن نغادر السيارة .

* * *

لقد اعتبرت كل هـذا نوعًا مـن المقدمة إلى ذاك اللقـاء الأول الحقيقي ، اللقاء

وجهًا لوجه ، حينما انتهى التفاهم الـذي استمتعنا به حتى ذلك الحين ـ والذي تمثل في المرح والصداقة القائمين على ميول مشتركة بيننا نحن الثلاثة ـ إلى شيء لم يكن هو الحب ـ وكيف كان من الممكن أن يكونه ؟ ـ ولكن إلى نوع من الشاغل الذهني الذي لعبت فيه الـرغبة الجنسية الحادة أقل الأدوار . كيف سمحنا لها أن تنطلق ــ ونحن كما كنـا أندادًا أفـذاذًا في الخبرة ، وقـد عبرنا أحـزان الحب وتأقلمنا معها في أماكن أخرى .

في الخريف تتحول إناث شجر الغار إلى اللـون الفوسفوري الذي لا يستقر على حال ويشعر المرء بعـد الأيام الطويلة الملتهبة المليئة بـالغبار بأول نبضات الخريف ، كجناحًا فراشة يخفقان ينفضان ما عليهما . وتتحول « مريوط » إلى اللون الأرجواني الشاحب ترصـع شطآنها الطينية مسطحات شقائق النعمان اللامعة ، النامية على طين الشاطئ اللزج الذي تغوص فيه الأقدام . ولقد عرجت على البيت ذات يـوم بينما كان « نسيم » في « القـاهـرة » لأقترض بعض الكتب ولدهشتي وجدت « جوستين » في المرسم بمفردها ، كانت ترتق بلوفرًا قديماً . لقـد استقلت قطار الليل وعـادت إلى « الإسكندريـة » تاركـة « نسيم » ليحضر بعض الاجتماعات الخاصة بالأعمال . وتناولنا الشاى معًا ، ثم أخذنا حاجيات السبـاحة استجـابة لخاطـر مفاجئ وانطلقنـا بالسيـارة خلال أكـوام الخبث الصدئة الموجودة « بالمكس » نحو شواطئ « برج العرب » الرملية ، والتي تلمع في الضوء الأرجـواني الشاحـب لأصيل يسرع نحو الغـروب . هنا كـان البحر الطليق يهدر فوق بسـط الرمال الـرطبة التي لها لـون الزئبق المتأكسـد ، كان وقعه الشجـي العميق يشكل خلفية منـاسبة لمثل الحديث الـذي كنا نتبـادله ، وسرنا تغمرنا المياه حتى مفاصل أقـدامنا ، في تلك البرك الضحلة اللاسعة التي تشبه « النُقـَر » ، وقد غصت هنا وهنـاك بالإسفنج الـذي اقتلع من جذوره ثم ألقي به على الشـاطئ . ولم نمر بأحد ونحن على الطـريق ـ على ما أتذكـر ـ غير شاب بدوى ضـامر يحمل على رأسه قفصًا مصنوعًا من السلك مليئـًا بالطيور

البرية التي اصطيدت بشراك من الأغصان . طيور السمان الدائخة .

ورقدنا لمدة طويلة جنبًا إلى جنب في ملابس الاستحمام المبتلة حتى نتلقي آخر شعاعات الشمس الشاحبة على أجسادنا في رطوبة الماء اللذيذة . كنت راقدًا وعيوني نصف مغمضة بينما كانت « جوستين » (كم أراها بوضوح) تتكئ على مرفقها تظلل عينيها براحة يدها وترقب وجهي . كان من عادتها أن تحملق في شفتي كلما تكلمت ، تحملق بطريقة غريبة تحمل معنى السخرية ، طريقة سليطة تكاد أن تكون متعمدة ، وكأنها تنتظر مني أن أخطئ وأنا أنطق إحدى الكلمات . لقد نسيت ما قيل لو أن الأمر كله بدأ حقًا من عند هذه النقطة ، إلا أنني أتذكر صوتها الأجش المتعب وهي تقول شيئًا مثل « ما قولك إذا كان من المحتم أن يحدث لنا ذلك ؟ » إلا أنها انحنت عليّ وقبلتني في فمي بطريقة عدائية ساخرة ، قبل أن أتفوه بشيء ، وبدا لي أن هذا التصرف لا يليق بالمرة حتى إني استدرت وعلى شفتي تأنيب أوشك أن يصدر عني - إلا أنه ابتداء من الآن وفيما بعد كانت قبلاتها كطعنات لاهثة ناعمة تقطع ضحكتها الوحشية المهزوزة الساخرة — والتي بدا أنها تتجمع في حلقومها . وخطر لي حينئذ أنها تشبه شخصًا ما يعاني من خوف شديد . ولو حدث وقلت لها الآن « يجب ألا يحدث لنا ذلك » . فلابد أن تجيب قائلة : « ولكن دعنا نفترض . ماذا لو حدث بالفعل ؟» وعندئذ - وأنا أتذكر هذا بوضوح - سيطر عليها جنون الذي يبرر أفعاله (وكنا نتكلم الفرنسية : واللغة تثير في النفس ما لها من طابع قومي) ، كانت تقول بين تلك اللحظات الخاطفة اللاهثة وأنا أحس فمها العنيف على فمي وذراعيها السمراوين الشهوانيين يطوقان ذراعي : « لن أخطئ فآخذ الأمر على أنه نهم وبطنة أو انغماس في الذات ، إننا أنضج من ذلك ، إن الأمر في بساطة أنه يوجد لدى كل منا ما يتعلمه من الآخر . ما هو هذا الشيء ؟ » .

ما هو هذا الشيء ؟ « وهل هذا هو السبيل إليه ؟ » . تذكرت نفسي أسألها ذلك السؤال عندما تراءى لي شبح « نسيم » الطويل وهو يكبو فوق سماء المساء .

فقـالت وتعبير من الذل متـوحش عنيد يـائس يكسو وجههـا : « لست أدري ، لست أدري » . ثم ضـغطت نفسـها فـوقي كما يضغط الإنسان جرحًا أصـابه . كانت تبـدو وكأنها تود أن تمحو كل تفكير فيَّ ، ومع ذلك فقـد رأيت صـورة من صـور النهـاية المؤلمة في مغزى الرعشــة المتكسرة لكل قبلة من قبلاتها ــ كانت كالماء البـارد يصب على مرض أصاب الجسد . كـم عرفتها الآن معرفـة جيدة كابنة للمدينة التي قضت بأن تكون نساؤها شهوانيات في الألم لا في اللذة ، لقد كتب عليهن أن يسعين لاقتناص أقل مما يطمحن في لقياه .

نهضت « جوستين » وسارت بعيدًا أسفل الشاطئ الطويل المنحني وعبرت البرك البركانيـة في بطء وقد أحنت رأسهـا ، وفكرت في وجـه « نسيم » الوسيم وهو يبتسم لها في كل مرآة في الحجرة . وانبثـق في رأسي كل المشهد الذي مثلناه لتونا كحلم بعيد الاحتمال . كان غريبًا أن ألحظ بطريقة موضوعية كيف كانت يداى ترتعشـان وأنا أشعل السيجارة وأنهض لأتبعها .

إلا أنني وجدت وجهها الذي أدارته نحـوي عندما لحقت بها وأوقفتها وجه شيطان مريض ـ كان يجتاحهـا غضب جامح وهي تقول : « لقد اعتقدت أن ما أرغب فيه ببسـاطة هو مضاجعتك ؟ يـا إلهي ! ألم ننل كفايتنا من المضــاجعة ؟ كيف يمكن ألا تـدرك مـا أشعـر بـه ولــو لمرة ؟ كيف يمكن ذلك ؟ » . وخبطت الرمال المبتلة بقـدمها فانطبع أثرها . لم يكن الأمر مجرد شق جيـولوجي وقد انفتح في الأرض التي كنا نطأها بثقة زائدة في النفس . وإنما بدا وكأن بئر منجم مهملـة منذ زمن طـويل في أعماق مـا أعتـد به أنـا من خُلق قـد تهاوت فجأة ، وأدركت أن هذا التبادل العقيم في الأفكار والمشاعر قد شق لنا طريقًا نحو أدغال القلب الأشد كثافة ، وأننا قد غدونا عبيدًا داخل أجسادنا ، نمتلك معرفة غامضة لا يمكن أن يتـداولها أو يتسلمها ، يفسرهـا أو يفهمها ــ إلا أولئك الذين ينـدر وجودهم ، أولئك الـذين يكملوننا في الـدنيا . (وكم كانوا قلـة ، قلما يعثر المرء عليهم) . وتذكرت « جـوستين » وهي تقول : « ومع ذلك ، فلا عـلاقة لما حدث

بالجنس » . وقد أغراني هـذا القول بالضحك رغم أنني أدركت من عبارتها تلك محاولتها اليائسة كي تفصل الجسد عن الـرسالة التي يحملها ، إنني أعتقد أن هذا الشيء يحدث لمن أفلست عواطفهم عندما يقعون في الحب ، ورأيت حينئذ ما كان عليَّ أن أراه منـذ زمن طويل : أعني بالتحـديد إن صداقتنـا قد نضجت إلى الحد الذي قد غدا فيه كل منا شريكًا في امتلاك الآخر .

وأعتقد أن كلانا قد أفزعه هـذا الخاطر . لم يكن في وسعنا وقد كنا مرهقين إلا أن نجبن أمام مثل تلك العـلاقة . ولم نقل المزيـد ولكننا عدنـا نسير صامتين وقد تشـابكت منا الأيدى على طول الشـاطئ إلى حيث تركنا ملابسنـا . وبدت جوستين مـرهقة للغـاية . كـان كلانـا تواقًا لأن يفترق عـن الآخر حتى يختبر مشـاعره . ولم نتبـادل الحديث مرة أخـرى . سقنـا السيارة إلى المدينـة حيث أنـزلتني عند الـركن المعتاد قـرب شقتي ، وخبطت باب السيـارة وأنا أغلقـه ، وسارت هي دون أن توجه لي كلمة أو تلقي ناحيتي بنظرة .

كان في وسعى أن أرى بصمة قدم « جـوستين » فوق الرمل المبتل وأنا أفتح باب حجرتي . ووجـدت « ميليسا » تقرأ وإذ نظرت نحـوي إلى أعلى ، قالت تقرأ الغيب بصوت هادئ تتميـز به : « لقد حدث شيء ما ـ مـا هو هذا الشيء ؟ » . لم يكن في مقـدوري أن أخبرها فقـد كنت أنا شخصيـًا لا أدرى ما هـو هذا الشيء. وأخذت وجهها بين راحتي وفحصته في عناية وانتباه وأنا صامت ، فحصته في حزن وشغف لا أتذكر ألبتة أني قد أحسست به من قبل . وقالت : « لست أنا من تراها ، إنها واحدة أخرى » . لكن الحقيقـة هي أني كنت أراها لأول مرة . كانت «جوستين » على نحو ما هي التي مكنتني من أن أرى « ميليسا » على حقيقتها ـ وأن أدرك مدى حبي لها . وابتسمت « ميليسا » وهي تتناول سيجارة وقالت : إنك واقع في حب « جوستين » . وأجبتها بقدر مـا استطعت من إخلاص وأمانة وألم : « كلايا « ميليسا » ، إن الأمر أسوأ من ذلك » . رغم أنه لم يكن في وسعي ، حرصًا على مستقبلي أن أشرح كيف ولماذا ؟

عندما أفكر في « جوستين » أفكر في مركب صنعته يد طليقة عظيمة ، في رسم كروكي لامرأة تحررت من عبودية الذكر . لقد اقتبست بافتخار ذات مرة قولاً « لبويم » ، متحدثة عن مدينتها . « ستتجمع النسور ، حيثما توجد الجيفة » . حقًّا كانت تبدو في تلك اللحظة كالنسر . إلا أن « ميليسا » كانت لوحة حزينة مأخوذة عن منظر شتوي ، تحتويه قتامة السماء ، حوض زهور به قليل من زهرات « الجرانيم » المتفتحة ترقد منسية عند حافة نافذة مصنع للأسمنت .

إنني أتذكر في هذا الصدد فقرة جاءت في يوميات « جوستين » . رغم أنها تشير إلى أحداث تسبق تلك التي رويتها بزمن طويل , إنني أترجمها هنا لأنها تكاد تعبر تعبيرًا صادقًا عن حالة من الحب تنمو داخل الإنسان على نحو غريب، حالة كان عليَّ أن أتعرف عليها كشيء يمت إلى المدينة أكثر مما يمت إلينا . إنها تكتب ، « من التفاهة بمكان ، أن نتصور الوقوع في الحب نتيجة علاقة متبادلة في الأذهان أو الأفكار ، إنه هيام روحين معًا في وقت واحد وقد ارتبطا خلال عملية نضج مستقلة . إنهما يحسان كأن شيئًا قد انفجر في صمت داخل كل منهما . وحول هذه الواقعة يدور المحب ولهانًا مشغول البال يختبر أو يختبر تجربتها الخاصة . إن امتنانها وحده وهو يوجه بعيدًا إلى واهب أخطأ قصده ، إنما يخلق عندها الوهم بأنها على علاقة بوليفها ، غير أن ذلك الأمر شيء زائف . إن المحبوب في بساطة ، امرئٌ شاركك التجربة في نفس اللحظة الزمنية بطريقة نرجسية ، وأن الرغبة في أن يكون المرء موجودًا إلى جوار المحبوب لا ترجع في باديء الأمر إلى فكرة الاستحواذ عليه ، ولكن لمجرد إخضاع التجربتين للمقارنة، كالصور في مرايا مختلفة . كل هذا قد يسبق النظرة أو القبلة أو اللمسة الأولى ، يسبق الطموح أو الخيلاء أو الحسد ، يسبق أول ما يباح فيحدد نقطة التحول ـ لأن الحب ينحدر من هنا إلى عادة ، إلى استحواذ ، ومرة أخرى إلى الوحدة » . كم كان تحديدها لتلك الهبة الساحرة متميزًا وكم كان قاتمًا : وكم كان صادقًا في صدوره عن « جوستين » .

وتكتب في مكان آخر فتقول ، « إن كل رجل » . وهنا أستطيع أن أسمع نبرات صوتها المبحوحة الحزينة وهي تردد الكلمات كما كتبتها هي « إن كل رجل مصنوع من طين ومن روح ولا توجد المرأة التي في وسعها أن ترضي الاثنين معًا » .

عندما عادت « جوستين » في ذلك الأصيل إلى المنزل وجدت أن « نسيم » قد عاد إلى « الإسكندرية » على طائرة ما بعد الظهر . فأوت إلى فراشها مبكرة متذرعة بأنها تحس بأن الحمى قد انتابتها . وعندما جاء « نسيم » ليجلس إلى جوارها وليقيس درجة حرارتها قالت له شيئًا ما أصابه بالذهول ، كان شيئًا مثيرًا حتى أنه ظل يتذكره ـ فبعد فترة طويلة كرر هذا القول لي : « ليس لهذا الأمر علاقة بالطب ـ إنها رعشة بسيطة ، فالأمراض لا تعبأ بأولئك الذين يطلبون الموت » . ثم استمرت كعادتها تحيد عن اتصال كلامها « أوه يا «نسيم»، لقد كنت دائماً قوية ، فهل منعني ذلك من أن أكون محبوبة حبًّا حقيقًّا» .

* * *

لقد بدأت ، عن طريق « نسيم » ، أتجول لأول مرة ، بكل حرية ، في مجتمع «الإسكندرية » الكبير والذي يشبه بيت العنكبوت . إن دخلي المحدود لم يكن حتى ليسمح لي بارتياد النادي الليلي الذي ترقص فيه « ميليسا » . كنت أحس في أول الأمر بعض الخجل لأني كنت ضيفًا دائماً على « نسيم » ، ولكن سرعان ما غدونا أصدقاء متلازمين حتى أني كنت أذهب معهما إلى كل مكان دون أن أعبر الأمر أي اهتمام . ولقد قلبت لي « ميليسا » سترة سهرة قديمة وجدتها في إحدى حقائبي وأعادت تجديدها . لقد كنت بصحبتها عندما زرت النادى الذي تعمل به « ميليسا » لأول مرة . كان غريبًا أن أجلس بين « جوستين » و «نسيم» أراقب غلالة الضوء البيضاء تتوهج فوق « ميليسا » التي لم أعرفها تحت غطاء الطلاء الذي جعل وجهها الرقيق يبدو فظًا ، وقد فقد شاعريته في وقت مبكر .

وفزعت أيضًا من مدى ابتذال رقصها ، الذي كان سيئًا إلى أبعد الحدود ، ورغم ذلك فإن رؤيتها وهي تؤدي حركات رقيقة ، عديمة التأثير ، بذراعيها وقدميها النحيلتين (كغزال ربط إلى ساقيه) ملأتني عطفًا على مستواها العادي ، وطريقتها الحائرة التي جعلتها تبدو وكأنها تقر بعجزها ، وهي تنحني للتصفيق الفاتر . ثم حملت بعد ذلك صينية كانت تدور بها تجمع النقود للفرقة الموسيقية ، ولقد أدت هذا العمل في استحياء بائس ، قادمة نحو المنضدة حيث كنت أجلس ، وقد نكست عينيها تحت تلك الرموش الصناعية المرعبة ، وارتعشت يداها . لم يكن صديقاى يعرفان حتى اللحظة شيئًا عن علاقتنا ، إلا أنني لاحظت نظرة « جوستين » الساخرة عندما قلبت جيوبي ووجدت بعض الدريهمات فقذفت بها إلى الصينية ويداي لا يقل ارتعاشهما عن ارتعاش يدي «ميليسا » ـ كنت أحس إحساسًا عميقًا بمدى ارتباكها .

وعندما عدت فيما بعد إلى شقتي الصغيرة مسرورًا نشوانًا بعض الشيء من رقصي مع « جوستين » وجدتها ـ « ميليسا » ـ ما تزال مستيقظة تغلي كنكة ماء فوق الموقد الكهربائي وقالت : « أوه ، لماذا وضعت كل تلك النقود في الصينية ؟ إنها أجر أسبوع كامل : هل جننت ؟ ماذا سنأكل في الغد ؟» .

كان كلانا مبذرًا متلافًا بصورة لا يرجى إصلاحها في الشئون المالية ، ورغم ذلك فقد كان بوسعنا على نحو ما أن نواجه الحياة معًا بطريقة أفضل من مواجهتها كل منا بمفرده . كانت تتوقف بالليل وهي عائدة في ساعة متأخرة من النادي الليلي ، في الزقاق خارج المنزل ، فإن رأت أن الضوء ما زال مشتعلاً أطلقت صفيرًا خافتًا . وما إن أسمع أنا تلك الإشارة حتى أضع الكتاب الذي أقرأه جانبًا وأزحف في هدوء أسفل السلم وأنا أرى بعين خيالي شفتيها وقد ضمتا حول الصوت المنساب منهما ، وكأنها تنفض ما خلفته منضدة ما من بقايا هشة . كان الرجل العجوز ، في هذا الوقت الذي أتحدث عنه ، ما يزال يلاحق « ميليسا » ويلح عليها هو وعملاؤه . كنا نضم أيدينا إلى بعضها البعض

دون أن نتبادل كلمة واحدة ونهرع خلال متاهة الأزقة قرب القنصلية البولندية ، نتوقف ما بين الفينة والأخرى عند مدخل بيت مظلم لنرى إذا ما كان هناك من يقتفي أثرنا . وأخيرًا ، هناك بعيدًا حيث تنتهي الحوانيت عند زرقة السماء ، كنا نخطو إلى ليل « الإسكندرية » الأبيض كالحليب المثلج كالبحر ، نخطو نحو نجمة الصباح التي ترقد خفاقة فوق سور المنتزه الأسود المخملي والذي تلامسه الريح والأمواج .

في تلك الأيام كان لاهتمام « ميليسا » بي ورقتها المثيرة معي كل الخصائص التي يتميز بها من استعاد شبابه . لقد اعتدت أصابعها الطويلة المترددة وهي تتحرك فوق وجهي حين تعتقد أني قد نمت ، وكأنها تستعيد ذكرى السعادة التي عشناها . كان فيها بساطة ومرونة شرقية ــ شغوفة بأن تقوم على خدمتي. يا لها من طريقة تلك التي كانت تعامل بها ملابسي المتسخة ـ إنها تبدو حين تمسك بقميص قذر من قمصاني وكأنها تغمره بفيض من عنايتها . وفي الصباح كنت أجد موسى الحلاقة وقد نظف تنظيفًا جيدًا ، حتى معجون الأسنان قد وضعته فوق الفرشاة معدًّا للاستخدام . كانت عنايتها بي دافعًا يحفزني كي أعطي لحياتي شيئًا من الشكل والأسلوب الذين ربما يتماثلان مع بساطتها . لم تتحدث أبدًا عن تجاربها في الحب ، كانت تنأى عنها في ضجر وتقزز يوحيان بأنها كانت وليدة الحاجة أكثر مما تكون وليدة الرغبة . وقد مدحتني بقولها : « إنني أحس لأول مرة بأنني لا أخاف أن أكون طائشة أو حمقاء مع رجل » .

كان فقرنا أيضًا رباطًا يعمق ما بيننا . وكانت نزهاتنا في غالب الأحيان هي نفس النزهات البسيطة التي يقوم بها أهالي مدينة تقع على شاطئ البحر . كان الترام الصغير والذي يشبه الصفيحة يحملنا وهو يقعقع بعجلاته حتى شطآن « سيدى بشر » الرملية ، أو كنا نقضي شم النسيم في حدائق « النزهة » ، نجلس فوق الحشائش تحت الأشجار المورقة بأزهارها الحمراء والبنفسجية

والبيضاء ، وسط العديد من العائلات المصرية الفقيرة . كان ثقل الزحام علينا يلهينا ويقربنا من بعضنا البعض أشد القرب . نتجول في سعادة ، دون أن يعرفنا أحد ، بين المتسكعين الآخرين من أهل المدينة على حافة القناة الراكدة نراقب الأطفال وهم يغطسون يبحثون في الطين عن عملة ، أو نأكل قطعة بطيخ من فوق دكة . إن أسماء محطات الترام تردد صدى شاعرية تلك الرحلات : «الشاطبي » ، « كامب شيزار » ، « لورنس » ، « مظاريطة » ، « جليمونوبولو » ، «سيدى بشر » ...

ثم هناك الجانب الآخر : عندما كنت أعود بالليل متأخرًا لأجدها نائمة وقد رفست شبشبها الأحمر بعيدًا وغليون الحشيش الصغير موجود على المخدة إلى جوارها ... كنت أعرف أن واحدة من نوبات الاكتئاب قد حلت بها . لم يكن هناك ما يستطيع المرء فعله معها في مثل تلك الحالات ، إنها تغدو شاحبة ، سوداوية المزاج ، مرهقة ، لا تستطيع أن تقيم نفسها من خمولها لأيام عديدة . إنها تتحدث إلى نفسها كثيرًا ، وتقضي الساعات تستمع إلى الراديو وهي تتثاءب أو تتصفح رزمة من مجلات السينما القديمة دون أدنى اهتمام . في مثل تلك الأوقات عندما تطبق عليها رهبة المدينة ، كنت أغدو حائرًا أدبر وسيلة تزيح عنها خمولها ، كانت ترقد تنظر بعينيها بعيدًا كعرافة ، وتربت على وجهي وتكرر القول مرة بعد أخرى : « لو عرفت كيف كنت أعيش لهجرتني ، إنني لست بالمرأة التي تصلح لك ، أو لأى رجل . إنني متعبة ، وأنت تبدد عطفك » . فإن احتججت بأن ما بيني وبينها حب وليس نوعًا من العطف ، فإنها ربما قالت وقد قطبت جبينها : « إذا كان ما بيننا حبًا لكان عليك أن تقتلني بالسم ولا تتركني على هذا الحال » . ثم تأخذ في السعال من رئتها التي لم تتلف بعد ، وأغادر أنا المكان وقد عجزت عن احتمال هذا الصوت إلى الشارع المظلم القذر في الحي العربي ، أو أزور مكتبة المجلس البريطاني لأبحث في بعض المراجع ، وهنا حيث توحي الثقافة البريطانية كانطباع عام بالشح والفاقة وبأن المثقفين

معلقون كشريط ، هنا كان في مقدوري أن أقضي الأمسية وحيدًا . سعيدًا بتمتمة وثرثرة القراء من حولي .

ولكن كانت هناك أوقات أخرى أيضًا ، هي تلك العصاري التي تثير الضيق بحرها ـ والتي كان يسميها « بومبال » : « العصاري التي ينضح المرء فيها عرقًا لزجًا كالعسل » ـ عندما كنا نرقد سويًا غارقين في الصمت ، نرقب الستائر الصفراء وهي تعلو على الضوء وتهبط في حركة رقيقة . إنها أنفاس الريح الهادئة خارج « مريوط » وهي التي تماثل أنفاسنا . وربما نهضت بعد ذلك ، تنظر في الساعة بعد أن تهزها وتستمع إليها بانتباه : ثم تجلس عارية إلى منضدة الزينة لتشعل سيجارة ـ وقد بدت صغيرة وجميلة للغاية وهي ترفع ذراعها النحيل تستعرض السوار الرخيص الذي أهديته إليها . « حقًا ، إنني أنظر إلى نفسي ، غير أن ذلك يساعدني على الانشغال بك » . ثم تستدير جانبًا من هذا التأمل السريع للمرآة وتخطو في سرعة إلى حوض غسيل الأواني القبيح المنظر ، وهو في نفس الوقت حمامي الوحيد ، وتقف عند البالوعة الحديدية القذرة لتغسل نفسها بحركات سريعة ماهرة ، تشهق من برودة الماء بينما أنا راقد أستنشق دفء وحلاوة الوسادة التي كانت تريح رأسها الفاحم عليها . أرقب وجهها اليوناني الطويل الحزين ، بأنفه المدبب إلى حد معقول وعيناها الصريحتان ، والبشرة الناعمة التي لا تمنح إلا للأطفال ، والشامة على عود عنقها الرقيق . تلك هي اللحظات التي لا يمكن أن تقدر ، ولا يمكن أن تقيم في كلمات ، إنها تحيا في عصارة الذاكرة ، كمخلوقات رائعة لا نظير لها في نوعها ، اصطيدت من أعماق محيط لم يرتده أحد من قبل .

* * *

قرر « بومبال » أن يؤجر شقته هذا الصيف إلى « بورسواردن » مما ضايقني أشد الضيق . إنني لا أحب تلك الشخصية الأدبية ـ لأنها تتناقض مع أعمالها الأصيلة الرشاقة نثرًا كانت أم شعرًا . لم أكن أعرفه معرفة جيدة ، إلا

أنه كان ناجحًا كروائي من الناحية المالية ، مما كان يثير حسدي ، وخلال أعوام تمرس فيها على الحياة الاجتماعية نما لديه فهم لآداب وسلوك المجتمع التي لم أحس برغبة في أن تكون جزءًا من مؤهلاتي على أى حال من الأحوال . كان قصيرًا سمينًا أشقر يعطى انطباع الشاب الذي يرقد في أحضان أمه وهي تهدهده . ليس في وسعى أن أقول إنه لم يكن طيبًا أو رحيماً ، لأنه كان كليهما معًا ـ إلا أن وطأة العيش مع إنسان لا تحبه في شقة واحدة ، كانت تثير غضبي . وعلى أى حال فإن تركي للمكان كان سيثير في نفسي ضيقًا أشد ، ولهذا فقد قبلت حجرة صغيرة كالعلبة في نهاية الممر في مقابل إيجار أقل . وكنت أقوم بالاغتسال في حوض الغسيل الصغير القذر .

كان في وسع « بورسواردن » أن يلهو كما يشاء ، وكانت ضجة الضحك والسكر الصادرة من شقته تفرض عليَّ أن أظل يقظًا مرتين تقريبًا في كل أسبوع. وحدث ذات ليلة أن سمعت في ساعة متأخرة للغاية طرقة على الباب . وفي الممر كان يقف « بورسواردن » وقد بدا شاحبًا أنيقًا مضطربًا ، وإلى جواره وقف وقاد بحري بدين بشع ـ مثل كل الوقادين البحريين ، وكأنه قد بيع عبدًا وهو صغير . وقال « بورسواردن » لي في صوت حاد ، « لقد أخبرني « بومبال » أنك كنت طبيبًا ، فهل تأتي معي وتلقي نظرة على شخص مريض ؟ » . كنت قد أخبرت « جورج » ذات مرة عن العام الذي قضيته طالبًا في كلية الطب ، وكانت النتيجة أنه اعتبرني طبيبًا كامل الصلاحية . إنه لم يكتف بأن يوكل إلى عنايتي بكل ما يصيب مزاجه من توعك ، ـ والتي كانت تشتمل على مضايقات عديدة تسببها له حشرات جسدية ـ بل إنه تمادى ذات مرة محاولاً إقناعي بأن أجرى لحسابه عملية إجهاض من فوق منضدة حجرة الطعام . وأسرعت أخبر «بورسواردن » بأني لست طبيبًا على وجه اليقين ، ونصحته بأن يستدعي واحدًا منهم بالهاتف ، إلا أن الهاتف كان معطلاً ، ولم يكن في الإمكان إيقاظ البواب من نومه ، وهكذا وبروح الفضول الخالص من أى غرض خاص ، أكثر

من أى شيء آخر ارتديت معطفي الواقي من المطر فوق بيجامتي واتخذت طريقي خلال الممر .

ما أن فتحت الباب حتى عشيت عيناى للحال من الضوء الباهر والدخان . لم يبد أن الحفلة كانت من النوع المعتاد . فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة ضيوف من طلبة البحرية العسكريين المشوهي الخلقة ، وعاهرة من حانة « جولفو » لها رائحة كرائحة المخالب الملحة والطافيا . والشيء الغريب أيضًا أنها كانت تنحني فوق شبح أجلس على حافة الكنبة ـ الشبح الذي أعرف الآن فيه «ميليسا » إلا أنها كانت تبدو حينذاك كقناع يوناني هزلي يحمل سمات كارثة ، كانت تبدو وكأنها تهذي ، ولكن بلا صوت ، فقد انقطع صوتها ـ حتى أنها بدت كفيلم صامت خاص بها . كانت ملامحها غائرة . وكان واضحًا أن المرأة العجوز قد أصيبت بالهلع ، كانت تلكمها على أذنيها وتشد شعرها ـ بينما واحد من طلبة البحرية العسكريين ينثر الماء عليها بطريقة لادربة فيها من آنية كثيفة النقوش كانت واحدة من مقتنيات « بومبال » التي يعتز بها أشد الاعتزاز والتي تحمل على جانب من جوانبها شارة السلاح الملكي الفرنسي . وهناك بعيدًا عن الأنظار في مكان ما كان شخص ما يحس قرفًا عميقًا . كان « بورسواردن » يقف إلى جواري يمسح المشهد الذي أمامه ، وقد بدا عليه أنه خجل من نفسه .

كانت «ميليسا » تنضح بالعرق وقد التصق شعرها بصدغيها ، وعندما حطمنا دائرة معذبيها عادت تغرق مرة أخرى في صمت مرتعش خال من التعبير ، وقد نقشت على وجهها صرخة لا آخر لها . كان من الحكمة أن أحاول معرفة المكان الذي كانت فيه وماذا أكلت أو شربت ، إلا أن نظرة إلى المجموعة الثرثارة المترنحة حولي كانت توضح أنه من المستحيل أن يخرج المرء منهم بأي شيء له معنى . ومع ذلك فقد أمسكت بأقرب صبي يقف إلى جواري وأخذت في استجوابه عندما بدأت حيزبون « جولفو » في الصراخ في صوت أجش ممضوغ

« لقد أعطاها ذبانًا هنديًا » [1]. كانت هي نفسها في حالة هستيرية ، لا يمنعها إلا وقاد بحرى كان يقيدها من الخلف . وانطلقت كالفأر من ذراعي آسرها وأمسكت بحقيبة يدها ونزلت بها على رأس أحد البحارة في قرقعة مدوية . ويبدو أن الحقيبة كانت ملآنة بالمسامير ، لأن البحار سقط إلى أسفل وقد أصابه الدوار ثم عاد ينهض إلى أعلى وفي شعره بقايا من آنية فخارية محطمة .

ثم بدأت تشهق بصوت خشن وتنادي البوليس ، فاندفع نحوها ثلاثة من البحارة وقد شرعوا أصابعهم الفظة ، ينصحونها ، يحذرونها ، يتضرعون إليها أن تكف . لم يكن هناك من يرغب في الصدام مع البوليس البحري ، إلا أن أحدًا لم يكن يحب أو يرغب في تذوق لطمة من تلك الحقيبة التي تشبه الفخار ، الحقيبة المنتفخة بزجاجات البلادونا وأدوات منع الحمل . كانت تتراجع في حذر خطوة خطوة (في تلك الأثناء أخذت نبض « ميليسا » ، وشققت لها بلوزتها واستمعت إلى قلبها . وبدأت أنزعج عليها ، وبصدق ، من أجل « بورسواردن » الذي كان قد اتخذ لنفسه موقعًا إستراتيجيًا خلف أحد المقاعد وأخذ يومئ لكل شخص إيماءة بليغة) . وبدأ الهزل ، فقد حاصر البحارة الفتاة المزمجرة - إلا أنهم حاصروها لسوء حظهم عند الدولاب « الشيراتوني » المزخرف والذي يحوى مجموعة « بومبال » الفخارية التي يعتز بها أشد الاعتزاز . ومدت يديها خلفها تبحث عن شيء تلجأ إليه لحمايتها فالتقت بمدد من الذخيرة لا يفني ، فألقت بحقيبة يدها وهي تطلق صرخة خشنة ظافرة وأخذت في إلقاء الأواني الصينية في اهتمام ودقة بالغين ، لم أر لهما نظيرًا من قبل . وامتلأ الجو بشظايا القوارير المصرية واليونانية ، و « الأوشابتي » و « السيفر » . ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الضربات المألوفة المخيفة للأحذية ذات المسامير الغليظة الرؤوس على عتبة الباب ، وبدأت الأنوار تضاء حولنا في كل البناية . وللحقيقة

---

(١) مادة مثيرة للأعصاب .

غـدا انزعـاج « بوزرســواردن » ملحـوظًا للغـاية . إذ لم يكن في وسعــه احتمال الفضيحـة التي يمكن أن تثيرها الصحـافـة المصرية عن شغب كهـذا الشغب، بـاعتباره أحـد سكـان المنزل بـالإضـافة إلى كـونــه رجلاً مشهـورًا . وأحس بالارتياح عندما أشرت إليـه وأخذت في لف جسد « ميليسا » التي لا تكاد تحس شيئًا في السجادة الناعمة المصنوعة في « بخاري » . وحملناها معًا نترنح بها عبر الممر إلى العزلة المباركة في حجرتي التي تشبه الصندوق ، حيث فردنا السجادة، مثلما فعلت « كليوباترة » ووضعناها في الفراش .

وتذكرت وجود طبيب يوناني عجـوز ، إنه يقيم على مقربة في هذا الشارع ، ولم يمض وقت طويل حتى أحضرتـه إلى أعلى السلم المظلم ، يتعثر ويلعن بلغة سوقية ، ويسقط السماعات وأدوات إخراج البول على طول الطريق . وأعلن أن « ميليســا » مريضــة للغايــة ، إلا أن تشـخيصه كـان غامضـًا ويشمل كل شيء حسب العـرف السائد في المدينـة . فقد قـال : « إنها مـريضة بكل شيء ، ســوء تغذيـة، هيستيريا ، كحـول ، حشيش ، درن ، ذبان هنـدي .... إختر بنفسك ما تشاء » . لقـد وضع يده في جيبه وأخرجهـا ملآنة بكل الأمـراض المتصورة ثم قدمهـا لنا لنختار منهـا . إلا أنه كـان عمليًا أيضـًا . واقترح أن يعـد لها في اليوم التالي سريرًا في المستشفي اليوناني . على ألا تتحرك حتى يتم ذلك .

وأمضيت تلك الليلة والليلة التالية لها فوق الكنبة أسفل السرير وكنت أعهد بها إلى عناية « حميد » الأعور أرق البرابرة ، عندما أخرج للعمل . كانت مريضة للغايـة خلال الإثني عشرة سـاعة الأولى ، تهذي في بعض الأحيـان ، وتعاني في أحيان أخرى نـوبات مؤلمة لكثرة ما أخافـوها . واتفقنا معًا أن نعاملهـا معاملة رقيقة حازمة حتى نمنحها القوة اللازمة للتغلب على أسوأ الأوضـاع . وفي عصر اليـوم التالي كـانت قد تحسنـت حالتهـا إلى الحد الذي جعلهـا تتكلم في همس . وأعلن الطبيب اليوناني أنه راض بما احرزته من تقدم . وسـألها من أين جاءت ، فلاح على وجههـا الفزع وهي تجيب « أزمير » . إلا أنها لم تذكـر اسم أو عنوان

والديها . وعندما ألح عليها أدارت وجهها نحو الحائط وفاضت دموع الإرهاق في بطء من عينيها . ورفع الطبيب راحتها وفحص الأصبع الذي يوجد به خاتم الزواج ، ثم قال لي بطريقة بعيدة عن الأسلوب الطبى وهو يشير إلى غياب الخاتم : « هذا هو السبب الذي من أجله تبرأت منها عائلتها وطردتها . إنها أمور تحدث كثيرًا في تلك الأيام .... » وهز رأسه الأشعث راثيًا لها . ولم تقل «ميليسا» شيئًا ، إلا أنها ، عندما أحضرت النقالة وأعدت المحفة لحملها ، شكرتني في حرارة لأني ساعدتها ، وضغطت راحة « حميد » إلى وجنتها ـ لقد فاجأتني قائلة بمروءة لم أتعودها في حياتي : « إذا لم تكن لك فتاة عندما أغادر المستشفي ، ففكر فيَّ ، وسأحضر لك إن دعوتني » . إنني لا أعرف كيف أنقل هذا النقاء السامي من اليونانية إلى الإنجليزية .

وهكذا مر شهر أو أكثر ولم أرها ، والحقيقة أنني لم أفكر فيها ، كان لدي العديد من المشغوليات في ذلك الوقت ، حتى كان ذات أصيل لم يكن لدى فيه أية مشغولية ، بينما أنا جالس إلى نافذتي أرقب المدينة وهي تتمطى من نومها رأيت « ميليسا » أخرى تسير في الطريق ثم تميل إلى مدخل المنزل الظليل . وطرقت بابي ثم دخلت وذراعاها مليئان بالورود ، وللحال وجدت نفسي منفصلاً عن تلك الليلة المنسية بقرون عديدة . كان فيها شيء من ذلك الحياء الذي رأيته يلازمها مؤخرًا بينما كانت تجمع المال للفرقة الموسيقية في النادي الليلي ، كانت تبدو كتمثال للكبرياء وقد تدلت رأسه .

حل بي نوع من التأدب يرهق الأعصاب ، فقدمت لها كرسيًّا جلست على حافته . كانت الزهور من أجلي ، إلا أنه لم يكن لديها الشجاعة الكافية لتلقي بتلك الباقة بين ذراعي ، وكان في وسعي أن أراها تحملق حولها في حيرة بحثًا عن آنية يمكن أن تضع الزهور فيها . لم يكن هناك غير حوض غسيل خزفي ملئ بالبطاطس نصف المقشرة وبدأت أتمني لو لم تحضر . كنت أود لو قدمت لها كوبًا من الشاى إلا أن السخان الكهربي كان مكسورًا ، ولم أكن أملك نقودًا

حتى أصطحبهـا إلى مكان بـالخارج ، كنت في ذلك الوقت أنـزلق في الدين أكثـر فأكثر من ذي قبـل . كما أني قد أرسلت « حميد » خـارج المنزل ليكـوي بدلتي الصيفية التي لا أملك سواها وكنت مرتديًا جلبـابًا ممزقًا . أما من ناحيتها هي فقد بدت رائعة ، أنيقة بدرجة مخيفة ، ترتدي فستانًا صيفيًّا جديدًا عليه نقوش أوراق عنب مجعدة ، وقبعة من القش تشبه جـرسًا ذهبيًّا كبيرًا . وأخذت أبتهل في حرارة أن يعود « حميد » فيخلق بعـودته شيئاً من التغيير . كنت أبغي تقديم سيجارة لها إلا أن علبة سجـائري كانت فارغة ، واضطـررت إلى قبول واحدة منهـا من علبة سجـائرهـا المزركشـة والتي تحملها دائماً ـــ ولقـد دخنت تلك السيجـارة بطريقـة أملت أن أبـدو فيها رابط الجأش وأخبرتها أنني قـد قبلت وظيفة جديـدة قرب « سيدى جابر » ، وأن هـذا يعني بعض المزيد من النقود . وقالت إنها ستعود إلى عملها وأن العقد المبرم معها قد جدد مرة أخرى : إلا أنهم سيمنحونها قدرًا أقل من المال . ثم قالت بعـد بضع دقائق من مثل هذا الحديث إنها مضطـرة لتركي الآن إذ أنها مرتبطـة بمـوعد لتنـاول الشاى ، فقـدتها إلى بسطة السلم ورجوتها أن تحضر مرة أخـرى متى شاءت . فشكرتني وهي ما زالت ممسكة بالزهور ، خجلة للغاية من أن تلقيها علي ، وهبطت السلم في بطء . وجلست على السرير بعـد أن غادرت البيت ، وأطلقت كل الشتائم البـذيئة التي تذكرتها بأربع لغات ـ رغم أنه لم يكن واضحًا لي ، من هو الذي أخاطبه . وجاء « حميد » في ذلك الوقت يجر أقدامه وكنت ما أزال في ثورة الغضب فصببت عليه جام غضبي ، وأفزعه تصرفي هذا بعض الشيء : فقـد مضى زمن طويل منذ ثار غضبي عليه ، واعتـزل في حجرة الغسيل يتمتم ويهز رأسه يستنجـد بالأرواح أن تمد له يد المساعدة .

واستـدنت بعض النقود مـن « بورســواردن » بعـد أن ارتديت مـلابسي ، ورأيت « ميليسا » مـرة أخرى بينما كنت في طـريقي لأضع خطابـًا في صندوق البريد . كانت جـالسة بمفردها في ركن المقهي وقد أسنـدت رأسـها إلى راحتها ،

وقبعتها وحقيبتها تـرقدان إلى جوارها بينما كـانت تحملق هي في فنجانها مما يوحي بأنها تقضي وقتـًا مملاً . واندفعت أدخل المكان ثم جلست إلى جـوارها . وقلت لها : إنني قـد أتيت لأعتذر عن سـوء استقبالي لها ، ولكن .... ثم أخـذت أصف الأحوال التي حلت بي دون أن أتـرك شيئًا . السخـان الكهربي المحطم ، غياب « حميـد » ، وبدلتي الصيفيـة . وبدت لي المصـائب التي أحاطـت بي وأنا أعددها مصـائب هزيلة إلى حد ما . فغيرت الزاوية التي كنت أعرض مشاكلي من خـلالها وأخـذت أرويها في سخط حـزين أغـراهـا بضحكـة كـانت من أكثـر الضحكـات التي سمعتها مـرحًا . والحق يقـال أنى قـد بالغت عنـد الحديث في موضوع ديوني ، رغم أن الحقيقة التي لا جـدال فيها أن « بورسواردن » كان على استعداد دائم لأن يقـرضني بعض المبالغ الصغيرة دون أى تـردد منذ تلك الليلة التي حدث فيها الشجار . وحتى أغطي الأمر كله ، قلت لها : إنها قد جاءت في وقت كدت أبرأ فيه من عدوى بسيطـة ولكنها مثيرة لأحد الأمراض السرية ـ ثمرة اهتمام « بومبال » بي ـ وأنها دون شك قد أصابتني من إحدى السوريات اللواتي تركهن « بومبال » خلفه بعد تفكير طويل . لقد كانت هذه القصة أكذوبة ولكني كنت مدفوعًا إلى روايتها رغماً عني . وقلت لها إنني كنت فزعًا من فكرة مضاجعـة أى امرأة مـرة أخرى قبل أن أشفى تمامًا ، وعنـدئذ أخرجت يـدها ووضعتها فوق يـدي وهي تضحك وقد تجعد أنفها : كـانت تضحك في صفاء ، وابتهاج ودون تكلف ، حتى أنني قررت أن أحبها في هذا الزمان والمكان .

وسرنـا في ذلك الأصيل نتسكع على شـاطئ البحر وقـد تشـابكت ذراعانـا وامتلأت أحاديثنا بأنقاض حيـاتنا التي عشناها دون تبصر ودون تصميم . لم يكن هناك أى شيء مشترك في ميـولنا . كانت شخصيتانا واستعـدادات كل منا نقيض الآخر ، ورغم هذا فقد أحسسنا في السهولة السحرية التي تصادفنا بها بشيء يبعث الأمل في نفـوسنا . وأحب ، أيضـًا ، أن أتـذكر تلك القبلـة الأولى إلى جوار البحـر ، والريـح تطير خصلة من شعـرها على كل وجنـة بيضـاء ـــ قبلة

قطعتها ضحكة لم يكن هناك مفر منهـا عندما تذكرت روايتي للمحن التي كنت أعانيهـا . لقد كانت رمـزًا للعاطفة التي تمتعنا بها ، لـروحها المرحة ، لـرقتها : رمزًا لما تتمتع به من بر وإحسان .

* * *

كـان هناك مـوضـوعان من العبـث أن يطرقهما المرء مع « جـوستين » :ـ عمرها ، ومنبتها . لم يكن هناك من يعرف ـ وربما كان « نسيم » نفسه أيضًا لا يعرف ـــ كل شيء عنها بصـورة مؤكدة . حتى « منمجيـان » علام المدينـة بدا عاجـزًا في هذه المرة ، رغم أنه على معـرفة تامـة بآخر غـرام لها . ومع ذلك فقد ضاقت عيناه البنفسجيتان وهو يتحدث عنها ، وقال في تردد إنها قد جاءت من حي «العطارين » المزدحم ، وإنها قد ولدت من أسرة يهودية فقيرة هاجرت منذ ذلك الحين إلى « سـالونيكـا » . إن يوميات « جـوستين » لا تساعـد كثيرًا حيث تفتقـر إلى الأدلة ـــ الأسماء ، التـواريخ والأمـاكن ـ وتتكـون في معظمهـا من شطحات خيـال طائشـة تفصل فيما بينها نوادر مـرة وخطوط حـادة ترسم أنـاسـًا قـد وضعت شخصيتهم خلف قنـاع على صـورة حـرف من الحروف الأبجديـة . إن الفرنسية التي تكتب بها ليست صحيحـة تمام الصحة ، إلا أنها مليئة بالحيـاة ، وذات نكهة خاصـة ، تحمل ميزة هذا الصـوت المبحوح الذي لا نظير له . انظر مـاذا تكتب : «كليًا » تتكلم عن طفولتها : إننـي أفكر في طفولتي ، أفكر فيها بانفعـال عاطفي ؛ أفكر في عصري ... أولاً : اللطمات في الحظيرة خلف الإستـاد ، دكان الساعاتي . إنني أرى نفسي وقد استغرقني تركيز عاطفي أرقب وجه عـاشق نـائم كما كنت أراه في غالب الأحيـان منحنيًا فـوق ساعـة حائط مكسورة والضـوء الحاد ينساب فـوقه في صمت . اللطمات واللعنـات ونقوش الـراحـات الـزرق وقـد رسمـت في كل مكـان على الحوائط الطينيـة الحمـراء (كضربات الضمير) ، والأصابع مشدودة لتحمينا من عين الشرير . ونمونا مع هذه اللطمات ، بعيـون فزعـة ورؤوس أصابها الصـداع . منزل أرضيتـه من

تراب ملئ بـالجرذان معتم بتلك الفتائل الطـافية فوق الـزيت ، المرابي العجوز سكـران يشخـر ، يستنشق مع كل نفس يأخـذه خليطـًا من روائح التراب ، والبران، وإفرازات الخفافيش ، الميازيب التي تسدها أوراق الشجر وكسر الخبز وقد نقعت في البول ، أكاليل من الياسمين صفراء فاقعة البهرجة . ثم أضف إلى ذلك تلك الصرخات التي تنبعث في الليل من خلف نوافذ الآخرين في ذلك الشارع الملتوي : البك يضرب نساءه لعجزه الجنسي ، بائعة العشب العجوز تبيع نفسها كل ليلة فوق الأرض المنبسطة بين المنازل المتهدمة ـ أنين حزين غامض . الدبيب الرخو لـلأقدام السوداء العارية ، وهي تسير ليـلاً في الشوارع التي جف فيها الطين . حجرتنا متخمة بـالظلال والمرض ، ونعيش نحن الأوربيين في تنافر مع تلك الحالة الصحيـة الحيوانيـة المخيفة « للسـود » من حولنـا . وطء البوابين لنسائهـم يهز المنزل كشجـرة تمر ـ نمور سـوداء لها أسنان لامعـة . وفي كل مكـان، البراقع ، والصراخ ، القهقهـات المجنـونـة تحت أشجـار الفلفل ، الخبل والمصابون بالجذام . مثل تلك الأشياء هي التي يـراها الأطفال ويختزنونها في ذاكرتهم لتكتسب حياتهم مناعة أو لتغدو بلا مـرشد أو دليل . لقد انهار جمل من الإعياء في الشارع خارج المنزل ، إنـه ثقيل حتى يصعب نقله إلى السلخانة ، ولـذا فقـد حضر رجلان ومـع كل منهما بلطة ، إنهما يقطعـانـه الآن هنـاك في الشارع . وهـو لا يزال حيًا . كـانا يقطعان اللحم الأبيض ـــ والمخلوق المسكين يبـدو متألمًا أشد الألم . مترفعـًا أشـد الترفع ، حـائرًا أشد الحيرة وقـد قطعت رجلاه . وفي النهـاية ما تزال الـرأس حية هناك ، والعينان مفتـوحتين تنظران فيما حولهما . لا صرخة احتجـاج واحدة ، ولا أية مقاومـة . الحيوان مستسلم كشجرة تمر . إلا أن طين الشـارع ظل لأيام بعد ذلك مشربـًا بدمائه وأقـدامنا العارية قد صبغها البلل الدامي .

النقود تتسـاقط من أقداح الشحاذين المصنوعـة من الصفيح . شذرات من جميع اللغـات ـ الأرمنيـة ، اليونانيـة ، الأمهريـة ، المراكشية ، يهود مـن آسيا

الصغرى ، والبحر الأسود ، جورجيا : أمهات ولدن في مستعمرات يونانية على البحر الأسود ، مجتمعات ممزقة كفروع الأشجار التي ينقصها الجذع ، تحلم بجنة « عدن » . تلك هي الأحياء الفقيرة في المدينة البيضاء ، إنها لا تحمل أي شبه لتلك الشوارع الجميلة التي أقامها ونسقها الأجانب حيث يجلس السماسرة يرشفون صحف الصباح ، حتى الشاطئ لا وجود له بالنسبة لنا هنا . وفي الشتاء يندر أحيانًا أن تسمع صوت الصفارة الراعدة ـ ولكنه يبدو وكأنه آت من بلد آخر . آه : يا لتعاسة الموانئ والأسماء التي تسحر المرء عندما لا يبرح مكانه . إنها كالموت ـ موت التفس المنبعث مع كل ترديد لكلمة «الإسكندرية ، الإسكندرية » .

* * *

شارع « باب المندب » ، شارع « أبو الدردار » ، « مينا البصل » (الشوارع زلقة بما يلفظه سوق القطن من بقايا) « النزهة » (حديقة الزهور ، ذكرى بعض القبلات) أو محطات الأتوبيس بأسمائها الغريبة مثل « سابا باشا » ، «مظلوم » ، « زيزينيا » ، « باكوس » ، « شوتز » ، « جانا كليس » . إن المدينة تصبح عالمًا عندما يحب المرء أحد سكانها .

* * *

كان من نتائج ترددي على البيت الكبير أن غدوت مرموقًا أحظى بانتباه هؤلاء الذين يعتبرون « نسيم » من ذوى النفوذ ، وافترضوا أنه ما دام يقضي وقته معي فلا بد وأن أكون أنا أيضًا ، إما غنيًا أو لامعًا بطريقة لم يضعوا أيديهم عليها بعد . فقد جاء « بومبال » إلى غرفتي عصر أحد الأيام بينما كنت نائماً وجلس على سريري ثم قال « خذ بالك » لقد أصبحت مرموقًا . إن عشيق الزوجة في إطار نمط الحياة « بالإسكندرية » يعتبر بالطبع شخصية عادية تمامًا . إلا أن خروجك الكثير مع هذين الزوجين سيجعل الأمور من الناحية الاجتماعية عبئًا ثقيلاً عليك . أترى ! » .

وناولني قطعة من الورق المقوى كبيرة زاهية ، مطبوع عليها دعوة إلى حفل كوكتيل بالقنصلية الفرنسية . وقرأتها دون أن أفهمها . وقال « بومبال » : « إنه تصرف أخرق للغاية ، فرئيسي ، القنصل العام يكن « لجوستين » عاطفة قوية . ولقد بـاءت بالفشل الذريع كل محاولاته للقـائها . وقد أخبره أحد جـواسيسه بأن لك دالة في محيط الأسرة ، وأنك في الحقيقة .... أنا أعرف ، أنا أعرف . ولكنه يأمل أن يحل محلك في أمورها العـاطفية » . وضحك في غم . ولم يبد لي أن هناك ما هو أكثر مجافـاة للعقل من هذا الكلام في ذاك الوقت . وقلت ، « أخبر القنصل العام .... » وتفوهت بملاحظة عنيفة أو اثنتين جعـلاً « بومبال » يطقطق لسانه لائما ويهز رأسه . وقال : « كان بودي أن أفعل ذلك . ولكن يوجد يا عزيزي بين الدبلوماسيين ، نظام للنقد كذلك النظام المعمول به بين الدجاج ، كما أنه سندي فيما يختص بترقيتي المحدودة » .

واستدار رافعًا جسده ثم أخرج من جيبه أقصوصه صفراء الغلاف متآكلة الأطـراف ووضعها فـوق ركبتي وقـال : هاك شيء يثير اهتمامـك ، لقد كـانت «جوستين » متزوجة عندما كانت صغيرة من رجل « ألباني » الأصل « فرنسي » الموطن . وكان هذا الـرجل كاتبًا . وهذا الكتاب عنها ، عن مـاضيها الذي انتهى معه ، وهـو مكتوب بطريقـة مهذبة » . وقلبت الـرواية بين يدي . كـان عنوانها «عادات » كتبهـا شخص يدعى « يعقوب الأرناؤوطي » . وقـد أشير في صفحة الغلاف إلى أن الرواية قد أعيد طبعها مرات عديدة في أوائل الثلاثينيات . وسألت « بـومبال » : « كيف تـوصلت إلى هـذا ؟ » وغمـز « جورج » بعين كبيرة ثقيلـة الجفن كعيون الزواحف وهو يقول : « لقد كنا نتحرى الأمر . إن القنصل عاجز عن التفكير في أي شيء غير « جـوستين » ، وقـد انشغل جميع الموظفين طـوال أسابيع في جمع المعلومات عنها . تحيا « فرنسا » .

ما إن ذهب « بومبال » حتى أخـذت في تقليب صفحات كتاب « عادات » وما تزال في عيني بقية من نوم . والحقيقة أن الروايـة كانت مكتوبة بصيغة المتكلم

بطريقة جيدة للغاية . كانت عبارة عن يوميات عن الحياة في « الإسكندرية » في منتصف الثلاثينيات . إن كاتب اليوميات ملتزم بالبحث عن رواية اقترح هو كتابتها ـ وهو يعرض حياته في « الإسكندرية » يومًا بيوم بطريقة دقيقة ثاقبة . إلا أن ما أسرني في هذه الرواية هو صورة يهودية شابة يلتقي بها ويتزوجها : ويأخذها إلى أوربا : ويطلقها . إن تعثر هذه الزيجة عند عودتهم إلى « مصر » قد تم بذكاء وحشي يكشف عن أبعاد شخصية « كلوديا » زوجته . وما أثار دهشتي وانتباهي أن أرى في تلك الزوجة رسماً كروكيًّا « لجوستين » التي تعرفت عليها ، دون أن أدري . إن الصورة على وجه اليقين صورة « جوستين » أصغر سنًّا وأكثر تشتتًا مما أعرفها . إلا أن المرء لا يخطئ في إدراك هذا التصوير . والحقيقة أنني كلما قرأت الكتاب ، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك ، كنت أستبدل الاسم باسمها . فكان يتطابق بطريقة مذهلة وكأنه الحقيقة .

لقد التقيا حيث رأيتها أول مرة ، في مرآة ، في المدخل الكئيب لفندق «سيسيل» ، « في مدخل هذا الفندق المتهالك تنشق أشجار النخيل إلى أجزاء وتنعكس صورة سعفها الساكن في المرايا المذهبة الإطارات ـ الأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون الإقامة الدائمة في هذا المكان ـ هؤلاء الذين يعيشون على معاش التقاعد الذي يضمن لهم طمأنينة آثمة تحيط بهم . إنني أبحث عن مأوى أرخص من ذلك . كانت تجلس في وقار في الردهة هذا المساء ، حلقة صغيرة من السوريين ، كانوا ثقلاء في بذاتهم السوداء ، شاحبين في طرابيشهم القرمزية ، وقد ذهبت نساؤهم اللواتي يشبهن أفراس النهر واللائى لهن شوارب خفيفة إلى فراشهن وهن يحركن حليهن فيصدر عنها صوت جميل ، وجوه الرجال الفضولية البيضاوية الناعمة وأصواتهم الأنثوية مشغولة بعلب المجوهرات ، فإن كلاً من هؤلاء السماسرة يحمل معه أنفس مجوهراته في علبة خاصة ، وتحول الحديث بعد العشاء إلى حلى الذكور . إن هذا هو كل ما تبقى لسكان البحر المتوسط من موضوعات للحديث ، المصلحة الذاتية ، نرجسية انحدرت

من الإرهاق الجنسي الذي يعبر عن نفسه في رمز الامتلاك والاستحواذ : حتى إنك إن قابلت رجلاً عرفت للتوكم يساوي هذا الرجل ، وإذا قابلت زوجته فستعلم عن طريق نفس الهمسات اللاهثة كم كان صداقها . إنهم يهمهمون فوق الجواهر كالخصيان ، يقلبونها في الضوء هنا وهناك حتى يثمنونها . وتلمع أسنانهم البيضاء في ابتسامات نسائية صغيرة . ويتنهدون . ويقدم القهوة لهم ساق ذو وجه أبنوسي لامع يلبس جلبابًا أبيض . وتفتح علبة ذات غطاء فضي من سجائر ناصعة البياض (كأفخاذ المصريات) ، وفي كل سيجارة قطع صغيرة من الحشيش . قليل من « السطل » قبل النوم . كنت أفكر في الفتاة التي رأيتها بالأمس في المرآة ، سمار على بياض رخامي - عاجي : شعر أسود أملس : عينان عميقتان تتأوهان تغوص نظرات المرء فيهما لأنهما عصبيتان ، غريبتان ، تنطقان بالفضول الجنسي . إنها تتظاهر بأنها يونانية ، ولكن لابد أنها يهودية . فلا يشم رائحة اليهودي إلا يهودي مثله ، لم يكن أي منا يملك الشجاعة حتى يعترف بأصله الحقيقي . لقد قلت لها إنني فرنسي . ولكن سينكشف كل منا أمام الآخر إن عاجلاً أو آجلاً .

« إن نساء الجاليات الأجنبية هنا أكثر جمالاً من أي مكان آخر . يسيطر عليهن الخوف والقلق ، يعشن في وهم أنهن قد غرقن في محيط من السواد يحيط بهن من كل ناحية . لقد بنيت هذه المدينة كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية ، إلا أن « السود » بأقدامهم الناعمة قد بدأوا يتسربون إلى الأحياء الأوربية . إن نوعًا من اللقاء العنصري يجري في هذا المكان . يجب على المرء حتى يسعد هنا أن يكون امرأة مصرية مسلمة ، مشتهاة ، ناعمة ، لينة نقية ، متزينة طوال الوقت ، إن أجسادهن الشمعية تتحول في ضوء النفط الساطع إلى اللون الأصفر الليموني أو الأخضر في لون البطيخ ، أجسادهن صلبة كالصناديق ، نهودهن متماسكة في لون التفاح الأخضر ـــ برودة الزواحف في لحمهن الخارجي بما فيه من نتوءات أصابع اليدين والقدمين العظيمة ، أحاسيسهن

مـدفونـة فيما يسبق الـوجدان . لا يمنحن في الحب شيئًـا من ذواتهن حيث لا ذوات لهن يعطونها ، ولكنهن يحطن بك في انكسار معـذب ، عذاب رغبة جامحة مكبوتة هي نقيض الرقة والمتعة . لقد حبسن منذ قرون وحتى الآن مع الثيران في حظيرة عـذاري محجبات . يتغـذين في الظـلام ، المربات والـدهـون الذكيـة الرائحة ، حتى غـدون دنان متعة تتدحرج على أرجل زرقـاء العروق بيضاء في لون الورق .

« وتتغير رائحة اللحم البشرى عندمـا يجوس المرء خلال الحى المصري - إذ تفوح رائحة الراتنج ، خشب الصندل ، ملح البارود ، التوابل والأسماك . كانت لا تسمح لي بأن أصطحبها إلى منزلها - لأنها لاشك كانت خجلة من بيتها في هذه الأماكن المزدحمة القذرة . ورغم ذلك فقد كانت تتحدث عن أيام طفولتها حديثًا رائعًا . لقـد دونت بعض الملاحظات : عندمـا كانت تعود إلى منـزلها كانت تجد أباها يكسر الجوز على المنضدة بمطـرقة في ضوء مصباح زيتي . إنني أستطيع أن أراه بعين خيـالي . إنه ليس يـونانيـًّا ولكنه يهوديّ من « أوديسـًا » يرتـدي طاقية من الفرو ، وله خصلات شعـر مدهونة بالشحم . كذلك أستطيع أن أرى بعين خيالي قبلة الهمجي لها ، وهو يميل عليهـا يأخذ شفتها السفلي بين أسنانه الجميلة غير المنتظمة ، وقضيبه الهائل المتوتر كالحمم السوداء اللامعة في عصر الجليد . لقد تركنا هنا أوروبا خلفنا وأخذنا نتقدم نحو آماد روحية جديدة . لقد سلمتني نفسها باحتقار حتى أني ولأول مرة في حياتي دهشت من القلق الذي تعانيـه ، كانت تبدو وكأنها يائسـة ، متخمة بالنـوائب . ومع ذلك فلنسوة تلك الجاليات الضائعة شجاعة يـائسة تختلف تمام الاختلاف عن شجاعتنا نحن . لقد ارتـدن عالم الجسد إلى درجـة تجعلهن غريبـات عنا غرابـة حقيقية . كيف يتسنى لي أن أكتب عن كل هـذا ؟ هل ستحضر أم أنها قد اختفت من حيـاتي إلى الأبد ؟ إن السـوريين يتوجهـون إلى فراشهم وهـم يتبادلـون نداءات قصيرة ، كالطيور المهاجرة » .

وتعود . ويتحدثان فيكتب قائلاً :

« أعتقد أني قد اكتشفت تحت السفسطة الريفية الظاهرية والصرامة الذهنية نوعًا من عدم الخبرة بالمجتمع لا بالعالم . لقد أدركت أنني أثرت انتباهها كأجنبي يتمتع بأخلاق طيبة ، فقد سلطت عليّ نظرة خجلة حكيمة ، كنظرة البومة ، من تينك العينين الواسعتين البنيتين بمقلتيهما الزرقاوين زرقة قاتمة وأهدابهما الطويلة التي تبرز روعة إنساني العينين بلمعانهما وصراحتهما » .

من الممكن أن يتصور المرء القلق المؤلم واللهفة التي قرأت بها لأول مرة هذا العرض الخاص بعلاقة مليئة بالألم الشخصي والحيرة بعد أن قرأته مرارًا وتكرارًا حتى أكاد أحفظه عن ظهر قلب . ثم يكتب في مكان آخر يلي هذا المكان بكثير : « لقد كان حبنا كالمنطق الذي يفتقد المقدمات الصحيحة . أعني كان يفتقد إلى الباعث . كان نوعًا من التملك الذهني الذي أوقع كلانا في حبائله وجعلنا نبحر راغمين مع التيار فوق مياه « مريوط » الضحلة الفاترة كالضفادع التي تضع بيضها ، فريسة لغرائز قائمة على الاسترخاء والحر ... كلا . ليس هذا هو السبيل لعرض الأمر . إنه ليس السبيل العادل عدلاً تامًّا . دعني أحاول مرة أخرى رسم صورة كروكية « لكلوديا » مستخدمًا تلك الأدوات المهتزة القاصرة . من أين نبدأ ؟

حسنًا : لقد كان ذكاؤها عونًا كبيرًا لها في مواجهة المواقف خلال عشرين عامًا من الحياة الضالة المرتبكة . لم أكن أعرف عن منابتها إلا القليل ، إلا أنها كانت فقيرة . وكان الأثر الذي تركته في نفسي هو صورة امرأة مشغولة بتقديم سلسلة من المناظر الكاريكاتورية الوحشية عن نفسها - إلا أن هذا التصرف كان أمرًا عاديًّا يصدر عن أغلب الذين يعيشون في وحدة ، والذين يشعرون بأن ذواتهم الحقيقية لن تجد لها صدى عند الآخرين . وكانت السرعة التي تنتقل بها من جو إلى جو ، ومن رجل إلى رجل ، ومن مكان إلى آخر ، ومن موعد إلى

موعد ، تصيب الإنسان بالدوار ، غير أنه كان لتقلبها رونق يأسر المرء حقًّا . وكلما ازدادت معرفتي بها ، كلما قلت قدرتي على التكهن بما ستقوم به من أفعال ، كان الشيء الوحيد الثابت فيها هو صراعها العنيف للإفلات من حاجز انفصامها النفسي . إنني كثيرًا ما أتذكرها وهي تقول : « إنني أعدك يا حبيبي ، بأن الأمر سيكون مختلفًا هذه المرة » .

وفيما بعد عند ما ذهبنا إلى الخارج : عند « الأدلون »[1] حيث تتلاعب حزم دوائر الضوء فوق الراقصين الإسبان الذين يلفهم دخان ألف سيجارة ، أو بجوار مياه « بوذا » الداكنة ، حيث تتساقط دموعها حارة بين أوراق الشجر الميتة المنسابة في هدوء ، أو ونحن راكبون في سهول « إسبانيا » المقفرة ، وقد تركت أصوات حوافر جيادنا آثارها على الصمت هناك ، أو إلى جوار شاطئ البحر المتوسط ونحن ممددان فوق صخور مهجورة ـ لم تكن خياناتها هي ما يقلقني على الإطلاق ـــ فعندما يتعلق الأمر « بجوستين » تغدو مشكلة اعتداد الرجل بامتلاكها مشكلة ثانوية على أي حال من الأحوال . وسبى عقلي وهم باطل بأنه في وسعي اكتشاف كنه هذه المرأة ، لكنني أرى الآن أنها لم تكن في الحقيقة امرأة ، كانت تجسيدًا للمرأة التي لا تعترف بأية روابط داخل المجتمع الذي نعيش فيه . « إنني أبحث في كل مكان لاقتناص حياة جديرة بأن تعاش . ربما لو كان في وسعي أن أموت أو أجن ، لأمدني ذلك ببؤرة تتجمع فيها كل مشاعرى التي لم تجد لها متنفسًا صحيحًا . إن الطبيب الذي أحببته قد أخبرني أنني مصابة بالهوس الجنسي السحاقي غير أنه يا « يعقوب » لا توجد أية شراهة أو انغماس من جانبي في لذاتي . إنها مهدرة تمامًا من هذه الناحية. مهدرة يا عزيزي مهدرة . إنك تتحدث عن تقبلي اللذة في حزن ، كما يفعل المتطهرون . وحتى في هذا فإنك ظالمي . إنني أتقبل اللذة بطريقة مأساوية ، ولو

---

(١) اسم محل رقص .

شاء أصدقـائي الأطباء العثور على كلمة مركبـة تستخدم في وصف هذا الكائن الخالي من القلب والذي أبدو مثله ، فعليهم أن يقروا بأن ما افتقده في القلب إنما أعـوضـه في الـروح ، حيث يكمن البـلاء » . إنها ، كما تـرى ، ليست من نـوع التحديدات المميزة والتي تقدر النساء عـادة على تحديدها . كانت وكأن عالمها ، يفتقـد على نحو مـا أحد الأبعـاد ، والحب قد تحول داخلهـا إلى نوع من عبـادة الذات. ولقد فهمته في بادئ الأمر خطأ ، إذا اعتبرته أنانية تدمر وتفني صاحبها، فقد بدت شـديدة الجهل ـ بأمور الوفاء البسيطـة المعروفة والتي تشكل أسس العاطفة بين الرجال والنساء . إن هذا الكـلام يبدو كلامًا طنانًا ، ولكن لا تهتم . فإنني أتساءل الآن في دهشة عندما أتذكـر الذعر والتمزق الذي احتملته ، إذا ما كنت على صواب أم لا . إنني أفكـر في تلك المشاهد الدراميـة المرهقة في حجرات النوم المفروشة التي كنا نستأجرها ، و « جوستين » تفتح صنابير المياه لتغرق صوت بكـائها ، إنها تسير جيئـة وذهابـًا ، وقد ضمت ذراعيهـا تحت إبطيها ، تتمتم لنفسهـا . كانت تبـدو كبرميل قـار يحترق بـلا لهب وقد وصل إلى حـد الانفجار . كانت حالتي الصحية التي تجعلني لا أبالي وأعصابي المتعبة ـ وفوق كل ذلك روحي الأوربية الميالـة للدعابة ــ تبدو في مثل تلك الأوقات مثيرات لها تحملها فوق طاقتها . فإذا عانت ، مثلاً ، من شعور وهمي بالاستهانة بها خلال حفل العشاء فإنها كـانت تذرع شريط السجـاد أسفل السرير كـالنمر الأرقط . وإذا نمت فربما ثار غضبها فتهزني من كتفي صارخة ، « انهض يا « يعقوب » ، إنني أتألم ، ألا تراني ؟ » وربما كسرت شيئًا من الأشياء الموجودة فوق منضدة الـزينة عنـدمـا كنت أرفض أن أشاركهـا في هـذا اللغز ، حتى تجد مبررًا لـدق الجرس . كم وجهًا من وجوه الخادمات الليليات لم أره وقد أصابه الفزع وهو يواجـه هذا الشبح المتوحش في رداء السهرة الفضي أو الـذهبي ، وهي تقول في أدب يبعث الرعب في النفس : « تكرمي عليّ بتنظيف منضدة الزينة . فقد حطمت شيئًا ما بطـريقة سخيفة » . ثم تجلس لتدخن سيجارة بعـد أخرى ، ولقد قلت

لها ذات مرة : « إنني أعـرف ما تعانينـه بالضبط وأتـوقع رغبتك في استثارتي حتى أضربك وحتى أعطى لخطايـاك نوعًا من الغفـران ، في كل مرة تخونينني فيها ويأكلك الشعـور بالذنب . إنني في بســاطة ، يا عزيـزتي ، أرفض أن أكون قوادًا لملذاتك . يجب أن تحملي أثقالك بنفسك . إنك تسعين بلا هوادة أن أستعمل معك سوط التعـذيب ، لكنني أشفق عليك » . والحقيقة التي يجب أن أعترف بها أن هذا الكـلام قد جعلها تفكر تفكيرًا عميقـًا للحظة ، وبحركـة لا إرادية شردت يديها تتلمس جلـد ساقيها النـاعم وقد حلقت شعـرهما بعناية شـديدة في ذاك الأصيل ...

« وأخيرًا ، وجدت وقد بـدأت أحس بالضجر منها ، أن استخـدام العواطف على هذا النحو السيء أمـر مرهق للغاية حتى إنني أخذت في إهانتهـا والسخرية منها . فقد ناديتهـا ذات ليلة باليهودية المختلة المزعجـة . فانفجرت تبكي بذلك النشيج الفظيع الأجش الذي كنت أسمعه منها حتى أن التفكير فيه الآن (في ثقله وكثافة شجاه) مجرد التفكير يوجعني ، وألقت بنفسها فوق سريرها لترقد وقد تدلت أطرافها وارتخت ، واجتاحتها موجات من التشنج العصبي كدفقات الماء من خرطوم .

« هل كانت تتصرف على هذا النحو في غالب الأحوال ، أم أن ذاكرتي ضاعفت فعالها ؟ ربما حدث هذا الأمر مرة واحدة ، ثم ضللتني أصداؤه . وعلى أي حال فإنه يخيـل إلى في مرات عديـدة أنني أسمع الصوت الـذي تحدثه عنـدما تفتح زجـاجة الأقـراص المنومـة والصوت الخافت الـذي يصدر عن الحبـوب وهي تسقط في الكوب . فكنت أعدها ، حتى وإن كان النعاس يغالبني ، حتى أتأكد من أنها لم تأخذ أكثر مما يجب . حدث هذا بالطبع في فترة متأخرة للغاية من حياتنا الـزوجيـة ، ففي الأيـام الأولي كنت أطلب منهـا أن تأتي إلى سريـري ، فكـانت تطيعني وهي باردة غاضبة مدركة لما تفعل . كنت غبيًا حتى إنني اعتقدت أنه في وسعي أن أحررهـا مما هي فيه وأن أمنحهـا راحة الجسـد التي كنت أعتقد أن

الطمأنينة العقلية تعتمد عليها ولكنني كنت مخطئًا . كانت توجد في أعماقها عقدة لم تحل وكانت « جوستين » تود أن تحل تلك العقدة التي كانت تفوق مهارتي كعاشق أو صديق . بالطبع بالطبع . كنت أعرف كل ما يمكن معرفته في ذلك الوقت عن خصائص النفس المصابة بالهستريا . إلا أنني اعتقدت أن هناك نوعًا آخر من الصفات في وسعي أن أتبينه وراء كل هذا ، لقد كانت على نحو ما لا تبحث عن الحياة ولكنها كانت تبحث عن إلهام يوحد كل شيء ويعطي للحياة مقصدًا .

« لقد وصفت من قبل كيف التقينا ـ في مرآة « فندق سيسيل » الطويلة ، أمام باب صالة الرقص المفتوح في ليلة « كرنفال » . الكلمات الأولي التي تحدثناها ، تبادلناها في المرآة بطريقة رمزية للغاية . كانت هناك في رفقة رجل يشبه سمكة الحبار ، كان في انتظارها بينما تفحص هي وجهها الأسمر بعناية . ووقفت أنا لأصلح ربطة عنق غير مألوفة على شكل « فيونكة » . عندما ابتسمت وقالت : «ليس هناك إضاءة كافية على الإطلاق » . كانت تمتلك صراحة طبيعية تستميل الناظر إليها ، وتبدو كدرع يحميها من أى خواطر بالتمادي معها . وأجبتها دون تفكير : « ربما كانت كذلك بالنسبة للسيدات ، غير أننا معشر الرجال أقل منهن فيما نحتاج إليه » . وابتسمنا ، وعبرتها وأنا في طريقى إلى صالة الرقص . كنت مستعدًّا للخروج من حياتها في المرآة إلى الأبد وبدون تفكير . غير أن مصادفات إحدى تلك الرقصات الإنجليزية الفظيعة والتي أعتقد أنها تسمي «البول جونس » ، قد جعلتني فيما بعد أقف أمامها وجهًا لوجه في رقصة «فالس» . وتبادلنا بضع كلمات لا رابط بينها ــ ورقصت بطريقة رديئة ، وهنا يجب أن أعترف بأنه لم يكن لجمالها أى تأثير عليّ . لقد حدث هذا فيما بعد عند ما بدأت حيلتها برسم صور سريعة سيئة التحديد حول شخصيتي ، وبطعناتها الحادة النافذة ألقت بكفاءتي النقدية في ضباب التشويش ، ناسبة إلى صفات اخترعتها هي من وحي اللحظة تحكمها في ذلك رغبة لا وازع فيها من

ضمير كي تأسر انتباهي . إن النساء يهاجمن الكتاب على الدوام ـ فمنذ اللحظة التي عرفت فيها أنني كاتب عـزمت على تشريحي حتى تشد انتباهي نحـوها . كـان من الممكن أن يـداهن كـل هـذا كـرامتي إلى أقصى الحدود لـو أن بعض ملاحظاتها لم تكن صائبة. إلا أنها كانت حاذقة ، وكنت أنا أضعف من أن أقاوم مثل هذه اللعبـة ـ لعبـة الكمائن الذهنيـة التي تقوم عليهـا مناوشـات المداعبة والغزل .

« ومن هنا فإنني لا أتذكر شيئًا حتى تلك الليلـة ـ الليلة الصيفية الرائعة في ضوء القمر ــ ونحن في الشرفة المبللة المطلة على البحـر و « جوستين » تضغط راحتهـا الدافئـة على فمي لتـوقفني عن الكـلام وتقول شيئًا من هـذا القبيل ، «أسرع ، فطسنى ، دعنا ننته منها ـ من الرغبة إلى قمة اللذة » . ويبدو أنها كانت قد نالتني في خيالها . إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة ـ من كان في وسعه أن يمتنع عن حبها ؟ » .

« إنه لعبث أن أسرد كل هذا بالكلمات وهي وسيلة غير مستقرة . إنني أتذكر زوايا وحـواف لقاءات عديـدة ، وأرى « جوستين » مركبـة تخفي نهماً جامحًا للمعرفة ، للقـوة من خلال الخبرة الذاتية ، تحت مظهر من العـاطفة . وللأسف فإنني منساق للتفكير في حيرة إذا ما كنت قد حـركت عواطفها على الإطلاق ـ إذ أنني لم أكن بـالنسبة لها غير حقل تجارب تستطيـع أن تعمل فيه . لقـد تعلمت مني الكثير : تعلمت أن تقـرأ وأن تتأمل . أشياء لم تـدركها من قبل . وربما مـا أخذته أنا مأخذ الحب لم يكن غير افتتان . ففي مكان ما ، بين الآلاف المنبوذة من الناس ، والانطبـاعات ، ومـوضوعات الـدراسة ــ كنت أرى نفسي منجرًا مع التيار ، طافيًا ، مـادًا ذراعي . ومن الغريب حقًا أن لقائي الحقيقي بها لم يكن في ثوب العاشق ولكن في ثوب الكاتب . هنا تصـافحت أيدينا ـ في هذا العالم الذي لا يتقيد بخلق . عـالم الأحكام المؤجلـة حيث يبدو الفضـول والتساؤل أعظم من النظام ــ النظام المنطقي الـذي وضعه العقل . هنـا حيث ينتظر المرء في صمت ،

ممسكًا أنفاسـه وإلا شـاب لوح الزجاج غمامة . لقـد سـهرت عليها بهذا النـهج . فقد غدوت مجنونًا بحبها .

« كان لها بالطبع أسرار كثيرة فقد كانت ابنـة حقيقية « للموسوية » . وكان على أن أمنع نفسي بشدة من الغيرة أو الـرغبة في اقتحام الجزء الـذي تخفيه من حياتها . ولقد نجحت على وجه التقريب في هذا ، وإن قمت بالتجسس عليها فقد كـان ذلك ، والحق يقال ، من بـاب حب الاستطـلاع لأعرف مـاذا تفعل أو فيما تفكر عنـدما لا نكـون معًا . كـان هناك على سبيل المثـال امرأة في المدينـة كانت تزورهـا في غالب الأحيان ، وكان لهذه المرأة تأثير عميق عليهـا حتى إنني بدأت أرتاب في وجود علاقة محرمة بينهما ، كذلك كان هناك رجل تكتب إليه رسائل مطولة ، رغم أنه في حدود علمي كان مقيماً بالمدينة . ربما كان طريح الفراش ؟ . ولقد قمت ببعض التحـريات ، إلا أن جـواسيسي كانوا يعـودون إلى على الدوام بمعلومات غير ذات بال . كانت المرأة عرافة ، أرملة متقدمة في السن . واتضح أن الرجل الذي كانت تكتب إليه ــ ويصر قلمها وهو يجرى على الورق الرخيص ـ طبيب يشغل وظيفة بسيطـة في قنصلية محلية وتحتـل هذه الوظيفـة جزءًا من وقته . كان شـاذًّا من الناحية الجنسية ، إلا أنه لم يكن سلبيـًّا ، وكان له بعض اهتمامات الهواة بـالفلسفة « الهرمزية » التي غـدت الآن شائعة للغايـة . ولقد تركت على نشـافتي ذات مرة آثارًا واضحة غاية الوضوح ، واستطعت أن أقراها في المرآة (المرآة مرة أخرى !) : ـ « إن حياتي هناك جرح لا يندمل كما تسميها ، إنني أسعي كي أجعلهـا مليئة بـالناس ، والأحداث ، والأمـراض ، بأى شيء في متناول يدى . إنك على حق عنـدما تقول إن هذا مبرر لحيـاة أفضل ، لحياة أكثر حكمة . ولكني في الـوقت الذي أحترم فيه مبـادئك ومعرفتك أحس أنـه إذا كان عليّ أن أصل إلى علاقة طيبة مع ذاتي ، فعلي أن أعمـل من خلال الصدأ القائم في نفسي وأحرقـه . إن أى إنسـان في وسعـه أن يحل مشكلتي بطريقـة زائفة وذلك بـأن يضـعها في حجر قسيس . ولكننـا أبناء « الإسكندرية » نعتـز بـأنفسنا أكثر

من ذلك . ونحترم الديـن أكثر من ذلك . إنه لن يكـون عملاً عـادلاً تجاه الرب ، يـاسيدي العـزيز ، فمهما خـذلت غيره (أراك تبتسم) فإنني مصممـة على ألا أخذله كائنًا ما كان » .

« وبدا لى حينـذاك أنه لو كان هـذا الكلام جزءًا من خطاب غـرامي فإنه من نـوع الخطابـات التي لا يخاطب بها المرء إلا قـديسًـا ، ومرة أخـرى ذهلت من البساطة التي تمكنها من التفريق بين أفكار الأنواع المختلفة من البشر ، رغم أن الكتابة غير متقنة ورغم ما بها من أخطاء . وبدأت أراها في ضوء مختلف ، أراها كإنسانة يمكـن أن تحطم نفسها عن طريق مزيـد من شجاعة موجهـة توجيهًا خـاطئًا ، وأن تخسر السعـادة التي ترغبهـا ، مثلنا جميعـًا ، ولا تعيش إلا لكي تحظي بها ، هذه الأفكار كان لها أثرهـا في تعديل حبي لها . وبدأت أحس أحيانًا بنفسي وقد امتـلأت بالتقزز منهـا . ولكن ما أخافني هـو إدراكي السريع الذي أصـابني بالهلع بأنني لا أستطيع العيـش بدونها . وحـاولت ، قمت برحـلات قصيرة بعيدًا عنها . ولكنـي وجدت الحياة بدونها مليئة بضجـر قاتل لا يمكن احتمالـه بحال من الأحـوال . لقد وقعت في حبهـا وملأتني تلك الفكـرة بيأس وتقـزز لا تفسير لهما . بدا الأمـر وكأني قـد أدركت دون وعي مني بأنني قـد قابلت فيها الجانب الشرير من نبـوغي . أن آتي إلى « الإسكندرية » خالي الفؤاد وأن أجد حبـًا كالقـدر ـ كـان كل ذلك ضربة من سـوء الحظ لم يكن في مقدور صحتي أو أعصـابي احتمالها . وذكـرت نفسي وأنـا انظـر في المرآة بأنني قـد تجاوزت الأربعين وبأن شعرة بيضـاء أو شعرتين قـد نبتتا في سـوالفي ! لقد فكرت ذات مرة في محاولـة إنهاء هذه العلاقة ، ولكن قـراراتي كانت تنهار مع ابتسامة أو قبلة من « جوستين » ، ومع ذلك فإن الإنسان يحس وهو معها بأنه محاط بصحبة من الخيـالات التي غزت حيـاته ومـلأتها بأصداء جـديدة . إن الشعـور بأن المرء غـارق في المعميـات لا ينتهي بتصرف إرادى مفـاجئ . كنت أحس في بعض الأحيان بـأنها امرأة ، كل قبلة منهـا ضربة تقـرب الإنسـان من

قبره . كما حدث مثلاً عندما اكتشفت (ما كنت أعرفه) أنها كانت تخونني بشكل متصل وفي أوقات كنت أعتقد أنني أقرب ما يكون إليها . وبشكل عام لم أحس بشيء مثير للغاية ، كان إحساسي نوعًا من الخدر يغوص بي كذلك الذي يحسه المرء وهو يفارق صديقًا في مستشفى ، ثم يدخل المصعد ويهبط ستة طوابق في صمت ، واقفًا إلى جوار رجل كالآلة يرتدى الزى الرسمي ويتنفس في صوت مسموع . لقد أصابني صمت حجرتي بالصمم . ثم جمعت فكرى فيما بعد ـ بينما كنت أقدح الذهن في هذا الأمر ، حول الحقيقة التي أدركتها وهي أن ما فعلته هي لا يمت بصلة إلىّ . لقد كانت محاولة منها لتحرير نفسها من أجلي كي تعطيني ما تعرف أنه ملك لي . ليس في وسعي أن أقول إن هذا الفكر كان له صدى يفضل السفسطة بأية حال . ومع ذلك فقد بدا أن قلبي يعرف حقيقة هذا وأنه يملي علىّ أن أصمت صمتًا مؤقتًا كانت تستجيب له « جوستين » بدفء جديد وحرارة جديدة وامتنان يضاف إلى الحب . ومرة أخرى أثار هذا تقززي بعض الشيء .

« آه ، لو كنت رأيتها كما كنت أراها أنا حينئذ في لحظات تواضعها ورقتها ، متذكرًا أنها لم تكن أكثر من طفلة ، لما لمتنى في جبني . كانت تبدو في الصباح الباكر ، وهي نائمة بين ذراعي ، وقد تناثر شعرها الباسم ، كمخلوق بدائي رائع أمسك به في عصر تطوره « البليستوسينى » ، لم تكن تشبه أى امرأة عرفتها : إنها في الحقيقة لم تكن تشبه أى امرأة أخرى على الإطلاق . ولقد دهشت فيما بعد عندما كنت أفكر فيها مرة أخرى كما فعلت وكما كنت أفعل خلال تلك السنوات القليلة الماضية ، إذ وجدت أنه رغم حبي لها بكل كياني ورغم إدراكي بأني لن أحب أى واحدة أخرى ـ إلا أنني كنت أخشي إمكانية عودتها إلىّ . لقد تعايشت الفكرتان في عقلي دون أن تحل الواحدة منهما مكان الأخرى . وقلت لنفسي وأنا أفكر بارتياح : « حسنًا لقد أحببت في نهاية الأمر حبًّا صادقًا . لقد حققت شيئًا » . وقد أضاف الجانب الآخر من ذاتي « ارحمني

من وخـزات حب معـادة مع « جوستين » ، ولقـد وجـدت أن هذا الاستقطـاب الغامض في المشاعر شيء لم أكن أتوقعه على الإطلاق . وأنه إذا كان هذا هو الحب إذن فقد كان نوعًا من النبات الذي لم أره ألبتة من قبل . ولقد قالت «جوستين» ذات مـرة : « اللعنة على تلك الكلمـة ، التي أود أن ألقي بها إلى الخلف مثلما ألقي «الإليزابيثيون » كما تقـول أنت بالرب . سمها تطـور أو سمها ثورة . ولكن لا تستخدمها معي ألبتة » .

* * *

إن هـذه المقتطفات الأخيرة قـد انتقيتها من القسم المسمي « حيـاة ما بعـد الموت» وهي محاولـة يقـوم بها المؤلـف لتلخيص وتقييم تلك الأحـداث ويجد «بومبال» أن الكثير من هذه الأحداث تافه وكئيب ، ولكن كيف يمكن لمن يعرف «جوستين» إلا أن يتأثـر بها ؟ كذلك لا يمكن القـول بأن غايـات الكاتب ليست مشحونة بما يشدّ الانتباه . إنه يؤكد ، على سبيل المثال ، أن الناس الحقيقيين لا يمكن أن يوجـدوا إلا في مخيلة فنان لها من القـوة ما يمكنهـا من احتوائهم ثم تشكيلهم . « إن الحيـاة ، وهي المادة الخام لا تعـاش إلا بصورة كـامنـة حتى ينشرها الفنان في عمله . فهل سيكـون في وسعي أن أقوم بهذه الخدمة من أجل حب « جوستين » البائسة » . (أقصد بالطبع كلوديا) . « إنني أحلم بكتاب قوي حتى إنه يحتـوى كل عناصرها . إلا أنـه لن يكون من نوع الكتب التي تعـودنا عليها في هذه الأيام . سيوجد في الصفحـة الأولي مثلاً ملخص للرواية في سطور قليلة . وبذا يمكن الاستغناء عن التفصيل الروائي . ثم يتبع ذلك دراماً تحررت من عبء الشكل ، سأطلق كتابي يحلم كما يشاء » .

ولكن المرء بالطبع لا يستطيع أن يهرب في بساطة من النموذج الذي يعتبره مفـروضا عليـه مع أنه في الحقيقـة ينمـو نموًا عضـويًا من داخل العمل ذاتـه ويسيطر عليـه . إن ما يفتقـده عمله ـــ وهذا نقد لكل الأعمال التـي لم ترتق إلى القمة ـ هـو الإحساس بالدرامـا . إنه يحمل في عنف على مادة موضـوعه ، مما

يصيب أسلوبه ببعض من ضراوة « كلوديا » غير المتزنة . وبالتالي يقوم كل شيء على العاطفة ويتساوى في الأهمية لديه : إشارة تصدر عن « كلوديا » بين أشجار « الدفلي » في « النزهة » ، الموقد الذي أحرقت فيه مخطوط روايته عنها ، « ولأيام كانت تنظر إلىّ كأنها تحاول قراءة كتابي في وجهي » . الحجرة الصغيرة في شارع « ليبسيوس » بكرسيها الخيزراني الذي « يزيق » ... إنه يقول عن شخصياته « إنها جميعًا مقيدة بالزمن في بعد هو ليس في الواقع ما كنا نبغي أن تكون عليه ــ ولكن احتياجات العمل هي التي تخلقه ، فالدراما تخلق القيد دائماً ، ولا يكون للمثل أهمية إلا بالقدر الذي يلتزم به » .

غير أننا لو وضعنا تلك التحفظات جانبًا لوجدنا أنه قد عمد إلى نقل صورة غاية في الرقة والدقة عن « الإسكندرية » ، « الإسكندرية » ونسائها . إننا نجد هنا رسومات « لليوني » ، « جابي » ، « وفوسكا » ــ الرسومات الوردية الفاتحة اللون ، والذهبية ، والسوداء في لون القار . وفي وسع المرء أن يتعرف بسهولة شديدة على بعض الشخصيات في صفحاته . « كليا » والتي ما تزال تعيش في هذا المرسم المرتفع ، عش عصفور الجنة المصنوع من نسيج العنكبوت والأقمشة القديمة ــ لقد رسمها دون أن يخطئها . غير أن هؤلاء الفتيات الإسكندرانيات لم يتميزن في أغلب أجزاء الكتاب عن غيرهن من النساء في أماكن أخرى إلا بوقائهن الذي يبعث الرعب في النفس وبضجرهن من هذا العالم .

إنه كاتب على جانب من القدرة مكنه من أن يستخرج تلك الصفات الحقيقية لمدينة « السوما » . إن المرء لا يتوقع المزيد من المواهب من دخيل اخترق قشرة «الإسكندرية » الصلبة عن طريق يكاد أن يكون خاطئًا ثم اكتشف نفسه .

أما عن « جوستين » ذاتها ، فهنالك بعض الإشارات القليلة إن كان هناك ثمة إشارات عن الأرناؤوطي في الصفحات المغلقة المعاني بصورة كبيرة في يومياتها . لقد اقتفيت أثر الحرف (ا) هنا وهناك . ولكني غالبًا ما عثرت عليه

في الفقـرات الزاخـرة بالتأمل النفسي الخالص وهـا هي واحدة يمكن أن تبـدو المطابقة فيها مقبولة :

« لقد كانت حجرة (ا) هي أول ما شـدني إليه . كان يبدو لي دائماً أن هناك ضـوضاء تجرى وراء مصـاريع النوافـذ الثقيلة . الكتب تـرقد في كل مكـان ، غلافها مقلوب أو مغطى بورق الـرسم الأبيض ، كأنما لتخفي عناوينها . كومة هائلة من الجرائد المليئة بالثقوب ، وكأن حشدًا من الفيران قد اتخذها ولائم له ، قصاصات (ا) من « الحياة الواقعية » كما كان يسميها ، اقتباسات يحس أنها تبعد كل البعـد عن حياته هـو : كان يجلس إلى جـرائده وكأنه يجلس إلى المائدة وقد ارتدى رداء منزليًا مرقعًا ولبس شبشبًا من القطيفة ، يقص الجرائد بزوج من مقصات الأظافر الثالمة . إنه يشغل بـاله « بالحقيقة » في العالم خارج نطاق عمله بطريقـة مربكة كما لو كـان طفلاً . إنه مكان يمكن أن يسعـد فيه الناس ، وأن يضحكوا ، وأن يتناسلوا » .

إن عددًا قليلاً من تلك الخطوط يشكل كل صـورة مؤلف « عادات » ، ويبدو هذا الأمر كجزء تافه ومخيب للآمال ، لمثل هذا العمل الجاد العامر بالحب ، كما أني لم أستطع العثور على كلمة واحدة عن فراقهما بعد هذا الزواج القصير غير المثمر . غير أنه كان مثيرًا أن ترى من كتابه كيف أصدر نفس الأحكام التي كان عليّ أنا و « نسيم » أن نصـدرها عليها فيما بعـد . لقد كانت قـدرتها على انتزاع امتثالنا لها أمرًا يثير العجب وكأنما كان الرجال يعرفون للحال أنهم أمام امرأة لا يحكم عليها بالمقاييس التي استخدموها حتى الآن عندما يفكرون في النساء . لقد قالت « كليًا » عنها ذات مرة (ومن النادر إن لم يكن من المستحيل أن تكون أحكامهـا متسامحة) : « إن البغي الأصيلة هي حبيبـة الرجل الحقيقيـة ـ مثل «جـوستين » ، إنها وحـدها التي تملـك القدرة على أن تجرح الـرجـال . غير أن صديقتنـا بالطبع ليست إلا نسخة ضحلـة من إنتاج القـرن العشرين لمحظيات الماضي العظيمات ، إنها تنتمي دون أن تـدري ، « لـلايس » و « شـاريس »

والباقيـات ... إن دور « جوستين » قد أخـذ منها ، ليضـع المجتمع على كـاهليها عبء الخطيئة حتـى يضاف إلى ما تعـانيه من متـاعب . إنه لأمـر يثير الشفقة . «فجوستين » ابنة حقيقية « للإسكندرية » .

ولقد بـدا « لكليا» أيضًا أن كتاب « الأرنـاؤوطى » الصغير عن « جوستين » سطحي ومصاب بداء الرغبة في شرح كل شيء . قـالت : « إننا مصابون بمرض الرغبة في احتواء كل شيء في إطار من الاستدلال النفسي أو الفلسفي . ورغم كل شيء لا يمكن أن تبرر أعمالها أو أن تقـدم الأعذار عنهـا . إنها في بساطـةوروعة كما هي ، وعلينـا أن نحتملهـا كما نحتمل الخطيئـة الأصيلـة . أمـا أن تقـول ، ياعـزيزى ، إنها مصـابة بالهوس الجنسي السحـاقي أو أن نحللها على طـريقة «فرويد » ، فإننا بذلك ننتزع منها كل مادتها الأسطورية ـ ننتزع الشيء الوحيد الذي تتكون منه عن حق وصدق . إنها تكاد أن تكون إلهة مثل كل أولئك الناس الذين لا يلتـزمون بالقيم الأخلاقيـة . فلو أن عالمنـا كان عالمًا حقيقيًا لـوجدت المعابد التي تهيىء لها ما تنشده من راحـة . معابد ليست كتلك الأديرة الملعونة المليئة بالشبان الكاثوليك الصغار الذين ملأت البثور أجسادهم والذين امتطوا أعضاءهم التناسلية كما يمتطي المرء مقعد الدراجة » .

كانت تفكر في الفصول التي وضعها « الأرناؤوطي » تحت عنوان « الحائل» والتي يعتقـد فيها أنـه قد عثـر على الـدليل الذي يقـوده إلى فهم سر تقلب قلب «جـوستين » . ربما كـانت تلك الفصـول ضحلة كما تقـول « كليـًا » ، غير أنها تستحق الاحترام ، فكل شيء يحتمل أكثر من تفسير واحد . أما أنا فلا اعتقد أنها تفسر لنا تصرفات « جوستين » ، ولكنهـا إلى حد ما تلقي بعض الضوء على تلك التصرفات ـــ على تلك الرحلات الطـويلة التي قامـا بها معًا وقطعا فيهـا أوربا طولاً وعرضـًا . كتب يقول : « كانت في ذروة انفعالها العـاطفي » ويضيف هنا جملة عـرضية (وانفعالها العـاطفي هو أسهل ما في وسعهـا أن تهب) « مانع يحول دون استمتاعها ـ حائل ضخم من المشاعر بدأت أحس وجوده بعد عديد

من الشـهور . لقد وقف بيننا كشبح ، وأدركت أو اعتقدت أنني قد أدركت العدو الحقيقي لسعادتنا التي تقُنا لأن نتقاسمها والتي نحس أننا محرومان منها على نحوما . ما هو هذا المانع ؟ » .

« لقـد أخبرتني ذات ليلة ونحن راقـدان على ذلك السريـر الضـخم البشـع في حجرة مـؤجرة ـــ حجرة كئيبـة مستطيلة لها شكل ونكهـة ورائحة فـرنسية شرقية غـامضة ـ سقفها المصنـوع من المصيص مغطي بصور متآكلـة للملائكة ونقوش على شكل أوراق العنـب . أخبرتني وتركتني أحترق بغيرة جـاهدت أن أخفيها ، غيرة من نوع جديد لم أعهده في نفسي من قبـل . لقد كانت غايتها رجلاً لم يعد لـه وجود في حياتها رغم أنه مـا زال يحيا . ربما كان ما يسميـه أنصار «فرويد » ستار ذاكرة الأحداث التي وقعت لها في صباها المبكر . (لم يكن هناك أدنى افتعال لإضفاء أية قوة على هذا الاعتراف ، فقد كان مصحوبًا بفيضان من الـدموع ، ولم أكن قـد رأيتهـا تبكي مثل هـذا البكاء من قبـل أو من بعد) لقـد اغتصبهـا واحد من أقـاربها . إن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسـام لتفاهـة الفكرة . كان من المستحيل أن يقدر المرء عمـرها حينما اغتصبت . ومع ذلك ـ فقـد اعتقدت أني قد نفـذت إلى صميم هذا الحائل : لأنها منـذ ذلك الوقت ومـا تـلاه لم يعد هنـاك مـا يشبعهـا في العشق ما لم تعـد في ذهنهـا خلق تلك الأحداث وتمثيلها . لم نكن نحن عشاقهـا غير البديل الذهني لهذا الحدث الأول في طفولتها ـ وبذا اتخذ الحب ، كشكل من أشكـال ممارسة العادة السرية ، كل ألوان النـورستينيا (ضعف الأعصاب) كانت تعـاني من تخيل يحتضر لشدة ضعفه ؛ لأنه لم يكن في وسعها أن تمتلك جسد أى رجـل امتلاكًا كاملاً . لم يكن في وسعها أن تحوز لنفسهـا الحب الذي تحس أنها محتـاجة إليـه ، لأن إشباع نزواتها كان ينبع من الزوايا الغامضة لحياة لم تعد تحياها .

لقد كان هذا أمرًا مثيرًا من الناحية العاطفية ، غير أن ما كان أكثر تسلية هو أنني أحسست بتلك اللطمة الموجهة لكـرامتي كرجلٍ . وكأنما قد اعترفت لي عن

عمد بخيانتها . ماذا ! أفي كل مرة نامت بين ذراعي لم تجد أى إرضاء لها إلا من خلال تلك الذكرى ؟ إذن ، وعلى نحو ما ، لم يكن في وسعي أن أنالها : بل إنني لم أنلها على الإطلاق ، لقد كنت مجرد دمية . وحتى الآن وبينما أكتب هذا فإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام عند ما أتذكر الصوت المختنق وأنا أسألها عمن يكون الرجل . وأين هو (ماذا كنت آمل أن أفعل ؟ أن أتحداه إلى مبارزة ؟) . ومع ذلك فقد كان هناك ، واقفًا بالتمام بيني وبينها ، بين «جوستين » وشعاع الشمس .

« غير أنني هنا أيضًا كنت طليقًا إلى الحد الذي جعلني ألحظ إلى أى مدى يتغذي الحب على الغيرة ، لأنها كامرأة بعيدة عن متناولى رغم أنها بين ذراعي ، قد غدت مشتهاة ولازمة لي عشر مرات أكثر من ذى قبل . لقد كانت ورطة محزنة لرجل لم يكن ينتوى أن يقع في الحب ، ولامرأة لم تكن ترغب إلا في أن تتحرر من فكرة مسيطرة عليها ، وتنطلق لتحب . ومن هنا نبع شيء آخر .

لو استطعت أن أحطم هذا الحائل لغدا في وسعي أن أنالها بحق ، أن أنالها كما لم ينلها إنسان آخر من قبل . كان في وسعي أن أخطو مكان الشبح وأتلقي قبلاتها بحق ، لأنها الآن تتساقط على جثة . يبدو لي ، أنني قد أدركت كل شيء .

إن هذا ليفسر الجولة الكبيرة التي قمنا بها ، وأيدينا المتشابكة لغة متبادلة ، حتى نتغلب على هذا الشبح بمساعدة العلم . لقد زرنا معًا صومعة « تشكنيا » المملوءة بأرفف الكتب حيث جلس العالم النفساني المشهور يحملق في نماذجه وهو شاحب اللون . « بازل » ، «زيوريخ»، « بادن » ، « باريس » - هدهدة قضبان الصلب السريعة فوق شرايين أوربا : عصب من الصلب يلتقي ويتفرق عبر الجبال والوديان . ويلتقي المرء . بوجهه في مرايا قطار الشرق السريع المليئة بالصدأ . لقد حملنا مرضها فوق أوربا جيئة وذهابًا كما يحمل طفل في أرجوحة إلى أن بدأ اليأس يتسرب إلى نفسي ، بل وحتى بدأت أتخيل أن « جوستين » نفسها ربما تكون راغبة عن الشفاء . لأنها قد أضافت إلى ذلك الحائل النفسي

الـلا إرادى حائلاً آخـر ينبع من إرادتها . إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن يحدث كل هذا ، إلا أنها لن تخبر أحدًا باسمه ، باسم هذا الشبح . اسم يمكن أن يعني بالنسبة لها الآن كل شيء أو لا شيء. ومع ذلك فإنه يـوجد في مكان ما من العـالم وقد أخـذ شعره يتسـاقط ويبيض من متاعب الأعمال والإفـراط في كل شيء. إنـه يضـع على إحدى عينيـه عصـابة سـوداء كما يفعل دائماً كلما أصيب بالرمد إن كان في وسعي أن أصفه لك فإنما يرجع ذلك إلى أني قد رأيته بالفعل ذات مرة) . لقد اعتادت « جوستين » أن تصرخ ، « لماذا أخبر الناس باسمه ؟ إنه لا شيء بالنسبة لى الآن - ولم يكن أى شيء في يوم من الأيام . لقد نسى تمامًا تلك الأحداث . ألا ترى أنه ميت بالنسبة لي ؟ وعندما أراه .... » وأحسست كأن حية قد لدغتنى . إذن « فأنت ترينه » . وتراجعت إلى موقع أكثر أمنًا ، « أراه عابرًا في الطريق مرة كل بضـع سنوات قليلة . إننا لا نفعل أكثر من الإيماء بالتحية » .

« إذن فهذا المخلـوق ، هذا النمط الدارج من البشر ، مـا زال يتنفس ، ما زال يعيش ! ما أعجب الغيرة ومـا أدنأها . غير أن الغيرة النـابعة من خيـال العاشق تنتهى إلى أن تكون أمرًا مثيرًا للسخرية .

ثم حدث ذات يوم في قلب « القاهـرة » ، خلال زحام المرور في منتصف ليلة صيف كان الحر فيها خانقًا أن توقفت سيارة أجرة بجوار « التاكسي » الذي كنا نركبه وشد انتباهي شيء من التعبير الذي كان على وجه « جوستين » فنظرت في إتجاه نظـراتها . ورأت عيناى ، في هـذا الحر الـلاهث الرطـب ، المثقل بالنـدى المتصاعـد من النهر فيصيب المرء بالصـداع والرائحـة النتنة للفاكهـة المتعفنة والياسمين وأجسـاد « السود » التي تسيل عـرقًا ، رأت عيناى الـرجل العادى الجالس في السيـارة الواقفـة إلى جـوارنـا . لم يكن هناك مـا يميـزه عن الألف الآخـرين من رجـال الأعمال القـذرين المشـوهين بهذه المدينـة الفظيعـة غير العصابة السوداء الموجودة على إحدىٰ عينيـه . كان شعره خفيفًا ومنظر وجهه الجانبي حادًّا ، وعينه تشبـه الخرزة : كان يرتدي حلة صيفية رمـادية اللون .

وكان تعبير الحيرة والعـذاب المرتسم على وجه « جـوستين » واضـحًا حتى أني صرخت دون أن أدري ، « ما الأمر » ؟ . وعندمــا ارتفعت إشارة المرور وأخذت السيــارة في السير أجـابت وفي عينيهــا يلمع نور غـريب ، فيـه شيء من جـرأة السكارى ، « هــذا هو الــرجل الذي تسعون جميعـًا لمعرفتــه » غير أني كنت قد أدركت الأمر قبل أن تخرج الكلمات من شفتيها فأوقفت السيارة التي نركبها ، وقفزت إلى الشارع كما لــو كنت أعاني كابوسـًا . ورأيت ذيل الضوء الأحمر في مؤخرة التاكسي الـذي يركبه بينما يدخلّ شارع « سليمان بـاشا » ، كان بعيدًا عني للغـاية حتى إني لم أتمكـن من تمييز لـون السيــارة أو رقمها . كـان من المستحيل مطـاردتها ، فقد اشتـد زحــام المرور خلفنا مـرة أخرى . وعـدت إلى التـاكسي أنتفض ولا أنطق شيئًا . إذًا فهـذا هو الـرجل الـذي سعى « فرويـد » لمعرفـة اسمه مستخـدمًا كل المقـدرة الهائلة لأسلـوبه الموضــوعي المحبب إلى النفس . لقـد رقدت « جـوستين » من أجل هذا الـرجل البريء المتوسط العمـر متـوترة ، كل عصب من أعصـــابها مشـدود وكأنه على وشك الانفـلات ، بينما صوت « مانياني » الرفيع القاسي يعيد مرة بعد أخرى « أخبريني باسمه ، يجب أن تخبريني باسمه » بينما صــوتها القادم من عالم الرؤى المنسيــة حيث ترقد ذاكـرتها يردد كعـراف من عصر الآلــة « لا أستطيع أن أتذكـر ، لا أستطيع أن أتذكر » .

« وبدا واضـحًا لي حينذاك أنها هي التي لا ترغب بشكل إرادي في التغلب على هذا الحائل ، وبالطبع فإن قوة كل الأطباء لن تغريها بذلك . لقد كان الأمر هكذا دون تزييف، إنها ترقد هنا مصابة بالهوس الجنسي السحاقي كما أكد لي هؤلاء السادة المبجلون . كنت أقتنع في بعض الأحيــان بأنهم على صواب ، وكنت أشك في ذلك أحيــانـًا أخـرى ، ومع ذلك فقـد كان مثيرًا لي أن أرى العـذر الـذي يبرر سلوكهـا وهو أن كل رجل ضاجعته كـان يحمل لها فرصة انعتاق عـواطفها ، انعتاقها من ذلك الانغلاق الخانق حيث لا يتغذى الجنس إلا على شعلات الوهم المنتفخة .

« ربما أخطأنا بالحديث صراحة في هذا الأمر ، بتناوله كمشكلة إذ لم يقدم هذا شيئًا إلا أن أعطاها شعورًا بأهمية ذاتها وأمدها فوق ذلك بحالة من القلق العصبي كانت لا تعانيها حتى ذلك الحين . لقد كانت مباشرة في حياتها العاطفية ـ كالفأس الساقطة على هدفها . كانت تتقبل القبلات كما تتقبل طبقات عديدة للغاية من الطلاء على شفتيها . وفي الحقيقة فإنني أحس بالحيرة عندما أتذكر الجهد الطويل وأنا أنقب عبثًا عن مبرر يمكن أن يجعل خروجها على القيم الخلقية مفهومًا على الأقل إن لم يكن مقبولاً . إنني أدرك الآن كثرة الوقت الذي ضيعته في هذا السبيل ، بدلاً من التمتع بها ، والخروج من تلك المشاغل بفكرة ، « إنها لا تستحق الثقة بقدر ما هي جميلة . إنها تتقبل الحب في بساطة ودون تفكير ، كما يتقبل النبات الماء . » وحينئذ كان في وسعي أن أسير وذراعي يتأبط ذراعها قرب القناة العفنة ، أو نبحر فوق المياه السابحة في الشمس ، أتمتع بها كما هي وأتقبلها كما هي . أى قدرة رائعة نمتلكها نحن الكتاب كي نحتمل التعاسة . إنني لا أعرف إلا أن هذا الفحص الطويل الموجع « لجوستين » لم ينجح إلا في أن يجعلها أقل ثقة بذاتها ، كذلك أكثر ممارسة للخيانة عن وعى ، والأسوأ من كل هذا أنها بدأت تنظر إليّ كعدو يتربص أقل هفوة ، أقل كلمة أو إشارة يمكن أن تفضحها ، وضاعفت يقظتها للدفاع عن نفسها ، وأخذت تتهمني بأنني أغار غيرة غير محتملة . ربما كانت على صواب . إنني أتذكرها وهي تقول : « إنك تعيش الآن وسط علاقاتي العاطفية الخيالية ، لقد كنت غبية عندما صارحتك بكل شيء ، عندما كنت صريحة معك إلى هذا الحد . انظر إلى الطريقة التي تسألني بها الآن . إنك تكرر نفس الأسئلة منذ عدة أيام . ثم تنقض عليَّ لأقل تناقض في كلامي . وأنت تعرف أنني لا أحكي نفس القصة بنفس الطريقة مرتين . فهل يعني هذا أنني أكذب ؟ » .

« ولم يثر ، هذا القول منها حذرى فضاعفت محاولاتي لاختراق الستار الذي اعتقدت أن غريمي يقف خلفه ، وعصابة سوداء فوق إحدى عينيه . كنت

ما أزال أراسـل « مانياني » وأحـاول تجميع أكبر قدر ممكن من الأدلـة والتي ربما كانت تسـاعده في تفسير هذا اللغـز ، ولكن بلا جـدوى . فمن في وسعه أن يجد طريقـًا في ذلك الدغل الكثيف الـذي تكونـه بواعث الخطيئـة والذي يشكل نفسية الإنسان ـ حتى عندما يكـون صاحب المشكلة راغبًا في التعاون ؟ كم كنا لهونا معـًا لو كانت « جوستين » تنعم بـالقدرة على الملاحظة ، بـدلاً من الوقت الذي ضيعناه في بحوث لا طائل تحتها فيما تحب وما تكره . إنني أتذكر رسالة كاملـة بنيتها على اعتراف منهـا بأنها لم تكن تقرأ الكلمات « واشنجطن د . ك » الموجودة فوق أى خطاب إلا وتحس بالتقـزز والاشمئزاز . إنه لأمر آسف عليه الآن أشد الأسف فقـد ضيعت هذا الوقت بينما كـان على أن أستمتع بحبها كما تستحق . ولابد أن بعض هـذه الشكوك قد أصـابت « مانياني » العجـوز أيضًا فإنني أتذكـره وقد كتب إلىَّ قـائلاً : يجب ألا تنسى يا عزيـزي الصغير أن هذا العلم الوليـد الذي نعمل به ، والذي يبـدو مليئًا بالمعجزات والآمـال ، قد قام في أحسن الأحوال على غالبية من القواعد المزعزعة ، مثله في ذلك مثل علم التنجيم . ومع ذلك فإن تلـك الأسماء الهامـة التي نطلقهـا على الأشيـاء مثل « **الهوس الجنسي السحاقي** » ربما يعتبر صيغة أخرى ، إن شئت ، للعذرية ، أما بالنسبة « جوستين » فإنها ربما لم تقع في الحب على الإطلاق . وربما جاء يوم تلتقى فيه برجل تتساقط أمـامه كل تلك الأوهام المرهقة وتنتهي إلى أن تكون بـريئة مرة أخرى . يجب عليـك ألا تستبعد هذه الفكـرة ، بالطبع لم يكن يحاول إيـلامي ـ لأنها كانت فكرة لا أبالى بالاعتراف بها لنفسي . غير أنها نفذت إلى أعماقي عندما قرأتها في خطاب هذا الرجل العجوز الحكيم » .

* * *

لم أكن قـد قرأت تلك الصفحـات من كتاب « الارنـاؤوطى » حتى قبل ذلك الأصيل في « برج العرب » عنـدما تقرر مستقبل علاقتنا بدخـول عنصر جديد . إنني لا أجرؤ على استخدام كلمة الحب ، خشيـة أن أسمع بخيالي تلك الضحكة

الخشنة العذبة ! ضحكة يمكن أن يكون كاتب اليوميات قد ردد صداها في مكان ما . وللحقيقة فقد وجدت أنه قد حلل موضوعه تحليلاً يخلب الألباب ، ووجدت أن علاقتنا كانت صدى يتردد عن قرب للعلاقة التي تمتع هو بها مع «جوستين» ، حتى إنني أحس في بعض الأحيان وكأني شخصية من شخصيات « عادات » . وفضلاً عن ذلك ، فها أنذا ، أحاول أن أقوم بنفس الشيء معها مستخدمًا الكتابة ـ رغم أنى لا أمتلك مقدرته ولا أزعم لنفسي أى ادعاءات تعني أنني فنان . إنني أود أن أضع الأشياء في بساطة وكما هي ، دون تنسيق أو تنميق ـ يجب أن تغطى المواد المستخدمة في صورة « جوستين » بخطوط ترسم في أمانة ما تعانيه من تعاسة .

لم نلتق لفترة قصيرة بعد حادث الشاطئ ، فقد أصيب كلانا بدوامة من التردد ـ أو على الأقل كنت أنا كذلك . واستدعى « نسيم» إلى « القاهرة »لأمور تتعلق بالعمل ، ورغم أن « جوستين » ، حسبما أعرف ، كانت في المنزل بمفردها، إلا أنني عجزت عن أن أحمل نفسي على زيارة المرسم . وبينما كنت عابرًا ذات مرة سمعت عزف البيانو وكاد أن يحملني الإغراء على دق الجرس . فقد كانت صورتها وهي جالسة إلى البيانو الأسود بملامحها المحددة واضحة في خيالي . ومرة أخرى بينما كنت أسير ـ فيما بعد ـ قرب الحديقة رأيت شخص ما ـ لابد أنه كان « جوستين » ـ يسير قرب بركة الزنابق ، يظلل شمعة براحة يده . ووقفت مترددًا للحظة أمام البوابة الكبيرة حائرًا أأدق الجرس أم لا أدقه . وكانت « ميليسا » قد انتهزتها فرصة لزيارة صديقة لها في الصعيد . كان الصيف يحث الخطى ، والحر يكتم أنفاس المدينة وأنا أتوجه للاستحمام كلما سمح وقتي بذلك ، متخذًا ذلك الترام الصغير الذي يشبه العلبة ، وسيلتي في الانتقال إلى الشواطئ المزدحمة .

ثم حدث ذات يوم بينما كنت راقدًا على سريري أعاني من ارتفاع في درجة الحرارة بسبب جرعة من الشمس أكثر مما أحتمل أن دخلت « جوستين » في

هذا الهدوء الرطب لشقتى الصغيرة ، مرتدية ثوبًا وحذاء أبيض ، وتحمل تحت إبطها حقيبة يدها وبشكيرًا ملفوفًا ؛ وقد تألق في سرعة آسرة ، بهاء ، جلدها وشعرها السمراوان من خلال كل هذا اللون الأبيض . وعندما تكلمت كان صوتها فظًّا مهتزًّا . وبدا للحظة كأنها كانت سكرى ـ ربما كانت بالفعل كذلك. وأخرجت إحدى يديها وأسندتها إلى المدفأة وهي تقول : « إنني أود أن أضع حدًّا لكل هذا بأكبر سرعة ممكنة . إنني أعتقد أننا قد تمادينا إلى الحد الذي يصعب فيه النكوص » . أما بالنسبة لي فقد شعرت بنوع رهيب من انعدام الشهوة يستنفد طاقتى وآلام مبرحة في الجسد والعقل تمنعني من أن أقول شيئًا أو أفكر في شيء . لم يكن في وسعي أن أتصور مضاجعتها ، فالنسيج العاطفى الذي نسجه كل منا حول الآخر ـ كان على نحو ما ـ يقف حائلاً بيننا : نسيج غير مرئي من قيم الوفاء ، والآراء ، والتردد ، الذي لم يكن لدى الجرأة لألقي به جانبًا . وعندما خطت للأمام خطوة قلت في صوت واهن : « إن هذا السرير فظيع وكريه الرائحة . لقد كنت أسكر . حاولت أن أمتع نفسي بنفسي لكنني فشلت ـ لقد ظللت أفكر فيك » . وأحسست بنفسي وقد شحب لوني بينما أنا راقد ساكن فوق الوسائد ، وفجأة أحسست بالصمت المخيم على الشقة الصغيرة ، وقد مزقته قطرات من صنبور يرشح الماء في أحد الأركان . ونهقت سيارة أجرة على بعد ، ومن الميناء جاء صوت الصفارة في زفرة واحدة سوداء، كزئير حيوان خرافي مكتوم . وأحسست للتو أننا بمفردنا تمامًا .

كانت الغرفة بكل ما فيها تخص « ميليسا » . منضدة الزينة التي تثير الرثاء وقد ازدحمت بعلب المساحيق الفارغة والصور : الستارة الرشيقة تتنفس في رقة كشراع سفينة في هواء العصر الخانق . كم رقدنا هنا أنا و « ميليسا » كل في أحضان الآخر نرقب التارجحات البطيئة لتلك القطعة الشفافة من الكتان الزاهى . وتحركت « جوستين » بجسدها العارى القاسى عبر كل هذا ، كأنما كانت تتحرك عبر صورة المحبوب وقد احتوتها دمعة كبيرة . ولابد أن أكون

أعمى حتى لا ألحظ كيف امتزج بالحزن عـزمها على أن تنال ما تريـد . ورقدنا لفترة طويلـة ، ينظر كـل منا في عين الآخر ، وقـد تلامسـت أجسادنـا ، لا نكاد نتبادل إلا الشعور الحيواني بالضجر والذي يبعثه فينا ذلك الأصيل المتلاشي . وعندما ضممتها في رقة بين ذراعي لم أستطع أن أمتنع عن التفكير حينئذ كيف أننا لا نسيطر على أجسـادنا إلا قليلاً . وفكرت في كلمات « الأرنـاؤوطى » وهو يقـول : « لقد اتضح لى حينـذاك ، أن هذه الفتـاة قـد سلبتني كل متانـة خلقي بطريقة مخيفة ، إنني أحس كأن رأسي قد جز شعرها . غير أن الفرنسيين ، كما فكرت ، يتألمون دون شك عندما يواجهـون شيئًا لا يستطيعون الرجوع فيه إلى أحكـام مسبقة ، ويعـود ذلك لما جبلـوا عليـه من التردد الـذي لا نهاية لـه بين السعـادة والأسي . لقـد فطروا على البراعـة الـوقتيـة وحب الفنـون ، لكنهم لم يفطروا على المجابهة الدائمة للأمور ، إنهم يفتقدون إلى تلك اللمسة البسيطة من الخشونـة والتي تغلف العقل « الأنجلوسا كسـوني » . وقلت لنفسي : « حسنًا ، دعها تسير بى إلى حيث تشـاء ، فإنها ستجدنى نـدًّا لها . وفي النهايـة لن يكون هناك مكـان للأحزان » . ثم فكرت في « نسيم » ، الـذي كان يبدو وكأنه يـرقبنا (رغم أنى لم أكن أعـرف ذلك) من خلال تلسكـوب ضخم مقلوب ، كـان يرى صورنـا الصغيرة بعيدًا هناك على أفق آمـاله ومشاريعـه . كنت متلهفًا على ألا يتألم .

غير أنها كانـت قد أقفلت عينيهـا ـ إنهما الآن ناعمتـان متألقتان كـأنما قد صقلهما الصمت الذي يجثم كثيفًا على كل ما حولنا . وغدت أصابعها المرتعشة ثـابتة مستريحة فـوق كتفي . واستدرنـا نحـو بعضنا البعض كضلفتي بـاب تنغلقـان على الماضى ، وتمنعـان كل شيء من الـدخـول ، وأحسست بقبـلاتها التلقائية القلبية الهانئة وقد أخذت تشكل الظلام حولنا وكأنها لمسات متلاحقة من اللون ، وقـالت بعد أن انتهينـا من المضاجعة ورقـدنا مـرة أخرى يقظين ، «إنني دائماً رديئة للغاية في المرة الأولى ، لماذا يحدث ذلك » ؟ .

« ربما يرجع ذلك إلى ما عليه الأعصاب في حال . فأنا أيضًا كذلك » .

« إنك تخشاني بعض الشيء » .

وعندئذ نهضت على مرفقي وكأني قد استيقظت فجأة وقلت لها : « ولكن ماذا سنستفيد يا « جوستين » من كل هذا ؟ إذا كان هذا ... » غير أن رعبًا شديدًا تملكها الآن فوضعت راحتها على فمي وهي تقول : « بحق السماء لا تقدم أى تبريرات وإلا عرفت بأننا على خطأ . لا شيء في استطاعته أن يبرر ما فعلناه . لا شيء . ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من أن يحدث الأمر هكذا » . وغادرت الفراش وتوجهت إلى منضدة الزينة وقد صفت عليها الصور وعلب المساحيق ، وكنست كل ما عليها بضربة واحدة كضربة مخلب النمر . وقالت « هذا ما أفعله أنا « بنسيم » ، وما تفعله أنت « بميليسا » إذ من الدناءة أن نحاول وندعى غير ذلك » . لقد اتفق هذا إلى حد كبير مع ما هيأني « الأرناؤوطى » لتوقعه منها فلم أقل شيئًا ، واستدارت وأخذت تقبلني في ألم نهم إلى أن بدا كتفاى المحترقان من الشمس ينبضان بالألم حتى اغرورقت عيناى بالدموع . فقالت في رقة وحزن : « آه ، إنك تبكى . كم أود لو بكيت . فقد فقدت القدرة على ذلك » .

إنني أتذكر وأنا أحدث نفسي وقد أمسكت بها أتذوق دفء وحلاوة جسدها المالح من ماء البحر ـ فقد كان لحلمتي أذنيها مذاق مالح ـ أتذكر وأنا أقول لنفسي : « إن كل قبلة مني ستقربها من « نسيم » ، ولكنها تجعلني أكثر بعدًا عن « ميليسا » . إلا أن الأمر الغريب حقًّا هو أنه لم ينتابني أى شعور بالقنوط أو الألم ، ولابد أنها أيضًا من ناحيتها كانت تفكر بنفس النهج إذ قالت فجأة : « إن « بلتازار » يقول بأن هؤلاء الذين جبلوا على الخيانة كجزء من طبيعتهم ـ مثلى ومثلك ـ إنما هم « قباليون » حقيقيون . إنه يقول إننا أموات نعيش حياتنا كالأشياء المنسية التي تتجمع على حافة الجحيم . ومع ذلك فإن الأحياء لا يستطيعون الاستغناء عنها . إننا نمدهم بالرغبة في أن ينمو ، وأن يمارسوا مزيدًا من التجربة » .

حاولت أن أقــول لنفسي كم كان كل هذا غبــاء ـ إنها قصة زنا مبتــذلة من أرخص تفـاهـات المدينــة : ولا تستحق حيلاً عــاطفية أو أدبيــة . ومع ذلك ففي مكان آخر ، في أعماق نفسي ، كان يبدو أنني أدرك أن التجربة التي أقدمت عليها سيكون لها الخاتمة الخالدة لدرس تعلمته ، وقلت لها في حنق : « إنك جادة أكثر مما يجب » . فقد كنت مغرورًا ولا أحب أن أشعر بأن هناك من ينتزعني خارج أعماقي . وأدارت « جوستين » عينيها الكبيرتين نحــوي . وقالت في رقة وكأنها تخاطب نفسها : « أوه كــلا ، إنها لحماقة مني أن أنشر كل هــذا الأذى كما أفعل ولا أدرك بأن هذا هــو دوري في الحياة . إنني بهذه الطريقــة وحدها ، بمعــرفة مــاذا أفعل ، يمكنني أن أتفــوق على نفسي ليس من السهل أن أحقق ذاتي .. إنني أتوق إلى أن أكون مسئولة عن نفسي . أرجوك ألا تشك في قولي هذا » .

ونمنا ، ولم يوقظني إلا صرير مفتاح « حميـد » وهو يدور في القفل وقيامه بأعماله المسائية المعتادة . كان متطيرًا بصورة غير عــادية ، رغم أنه كان متدينًا وكانت الحصيرة الصغيرة التي يصلى عليها ملفوفة وموضوعة في متناول يده على شرفة المطبخ . كان كما قال عنه « بومبال » « تركبه الجن » . كان يخيل إليه أن هنــاك جنيًّــا في كــل ركن من أركــان الشقــة . كم تعبــت من سماع تمتمتــه «دستور ـ دستور » ، وهو يلقي بفضلات الطعــام في بالوعة المطبخ ـ فهنا يقيم جنى مهيب يجب التوسل إلى غفرانه . كان الحمام أيضًا مسكونًا بالجن . وكان في وسعي دائماً أن أكتشف « حميد » عندما يستخدم دورة المياه الخارجية ، إذ أنه كلما جلس على كرسى المرحاض انطلــق من بين شفتيه في صــوت مبحوح ابتهال لا إرادى « دستوركم يا أسيــادى » ، وهذا الابتهال يجعل الجنى مسالمًا وإلا سحبه إلى شبكــة المجارى . وأنا الآن أسمعــه يتمتم لنفسه في خفــوت وهو يحك أرضية المطبخ بشبشبــه القديم المصنــوع من اللباد في صوت يشبــه حية «البواء » .

أيقظت « جــوستين » من تهويمة قلقــة وتحسست عينــاى ، فمها وعينيهــا

وشعرها الناعم بذلك الفضول المعذب الذي كان يشكل على الدوام أكثر العناصر في شهوتي . وقلت لها : « يجب أن تغادر هذا المكان فسيحضر « بومبال » من القنصلية بعد وقت قليل » .

إنني أتذكر الفتور الذي ارتدينا به ملابسنا خلسة ، وكيف أخذنا طريقنا إلى السلم المعتم المؤدى إلى الطريق صامتين صمت شركاء جريمة . لم نجرؤ على أن نشبك ذراعينا ، غير أن أيدينا كانت تلتقي بطريقة عرضية بينما كنا نسير ، وكأنها لم تنفض عنها سحر الأصيل ولا في وسعها احتمال الفراق . وانفصلنا كذلك صامتين ، عند الميدان الصغير بأشجاره الجافة والتي أحرقتها الشمس فجعلتها في لون القهوة ، انفصلنا ونحن نتبادل نظرة واحدة ـ وكأننا نبغى أن يحتل كل واحد منا وإلى الأبد مكانًا في عقل الآخر .

كان الأمر يبدو وكأن المدينة قد تحطمت عليّ ، وأنا أمشي فيها دون غاية كما يمشي الناجون بعد زلزال في مدينتهم ، حيرى إذ يجدون أن كل ما تعودوا عليه قد تغير . وأحسست بالصمم على نحو غريب ولم أعد أتذكر شيئًا إلا أنني قد هرعت بعد ذلك بوقت طويل إلى « بورسواردن » و « بومبال » في البار ، وأن الأول تلا علينا بعض أبيات من قصيدة « المدينة » المشهورة للشاعر الشيخ ، وأنها قد أمدتنى بقوة جديدة ــ وكأن القصيدة قد صيغت حديثًا : رغم أنني كنت أعرف الأبيات كلها . وعندما قال « بومبال » إنك الليلة غارق في الأفكار ،. فما الأمر ؟ . وددت لو أجبته بكلمات « عمرو » وهو يموت : أحس كما لو كانت السماء تكاد تنطبق على الأرض ، وأنا بينهما ، أتنفس من ثقب إبرة » .

الجـــزء الثـــاني

أن يكتب الإنسـان كل هـذا ولا يتحـدث بشيء عن « بلتـازار » إنما هـو في الحقيقـة إغفال وإهمال ، « فبلتـازار » على نحو مـا واحـد من مفاتيح المدينـة . المفتـاح : نعم ، لقد تقبلتـه كما كـان في تلك الأيام ، وأحـس الآن بأنه لابـد من تقييمه في ذاكرتى من جديد . كـان هناك الكثير الذي لم أفهمه حينذاك ، والكثير الذي تعلمته منـذ ذلك الوقت . إنني أتذكر على وجـه الخصوص تلك الأمسيات التي لا تنتهى والتي كنا نقضيها في مقهى « الأقطار » نلعب الطاولة بينما يدخن « بلتـازار » في غليونـه الطـويل تبغ « الـلاكـاديف » المفضل لـديه . وإذا كـان «منمجيان » هو أرشيـف المدينة فإن « بلتازار » هو الشيطـان الأفلاطوني، أى إنـه الوسيط بين آلـهتهـا ورجـالها . إنني أدرك ، كما يبـدو ، أن هذا الأمـر غير واضح .

إنني أرى رجلاً طـويل القامة يرتـدي قبعة سوداء ذات حافـة رفيعة . وقد أطلق عليه « بومبال » اسم « العنزة النباتية » . إنه رفيع ، محني القامة قليلاً ، له صوت عميق ذو نقيق ، شـديد الجمال خاصـة عندما يقتبس أو يتلـو الشعر . وهو لا ينظر إليك مباشرة عندما يتحدث معك ـ وتلك خاصية لاحظت وجودها عند عدد كبير من المصابين بالشذوذ الجنسي . وهي عنده لا تدل على أنه المفعول به ، الأمر الذي لا يحس بالخجل منه ، ولكنه يحس إزاءه باللا مبالاة الحقيقية ، كانت عينـاه الصفراوان الشبيهتـان بعين الماعز هما عينى منـوم مغناطيسى . وهو يعفيك عنـدما لا ينظر إليك مـن نظرة قاسيـة إلى الحد الذي يجعلك تقضي الليل متكدرًا . إن الكيفيـة التي تتعلق بها يداه الهائلتـا البشاعة إلى جـذعه تثير الحيرة . كنت أتوق منذ ذلك الحين لـو قطعتهما وألقيت بهما إلى البحر . وكانت تنمو تحت ذقنه خصلـة واحدة من الشعر الغامق ، تشبـه تلك التي يراها المرء أحيانًا على ظلف تمثال صنم منحوت .

كم من المرات وجدت نفسي ، خلال تلك النزهـات الطويلة التي كنا نقوم بها قرب ميـاه القناة الراكـدة التي تشبه القطيفة ، أتسـاءل في حيرة عن الميزة التي يتمتع بها والتي شدتني إليـه . كان هذا قبل أن أعرف أى شيء عن « القـابال » . ورغم أن « بلتازار » يقرأ كثيرًا إلا أن حديثـه لم يكن مثقلاً بهذا النوع من المواد الـذي يـدعـو السـامع إلى الاعتقـاد بأنـه كثير الاطـلاع والقــراءة : مثل «بورسواردان» . إنه يحب الشعر والأمثال والعلم والسفسطة . غير أن لمسة من النـزق والقـدرة على التمييـز تكمن وراء تفكيره . ومـع ذلك فتحت ذلك النـزق يوجد شيء آخر - يوجد صدى يعطي لفكره وزنًا وثقلاً . كانت الحكم والأمثال تجرى في عروقـه ، وكانت تمنحـه في بعض الأحيان لمسـة عراف صغير . إنني أري الآن أنه كـان واحدًا من هؤلاء النـاس القلائل الـذين عثروا لأنفسهم على فلسفة ما وشغلـوا حياتهم بمحاولة ممارستها في الحيـاة ، وأعتقد أن هذه هي الصفة التي لم ترد إلى أصلها والتي كانت تعطى لحديثه تلك النبرة القاطعة .

كـان يقضى ، بـوصفـه طبيبـًا ، الجانـب الأكبر من وقت عملـه في عيـادة الأمراض التناسلية الحكومية (ولقد قال ذات مرة بطريقة جافة : « إنني أعيش في قلب حيـاة المدينة . في جهـازها البـولى التناسلى : إنـه نوع من الأمـاكن التي تجعل المرء يحس بـالعقل والاتزان ») . بـالإضافة إلى ذلـك فهو أيضًا الـرجل الذي لم يؤثر شذوذه بصورة ما على رجولة عقله الفطرية . إنه ليس واحدًا من المتطهرين ولا هو عكس ذلك . فكثيرًا مـا دخلت حجرته في شارع « لبسيس » - الحجرة ذات الكرسي الخيرزاني الذي يزيق - لأجده يضاجع أحد البحارة . لم يكن يبرر تصرفه في مثل تلك الحالة ولا يشير إلى رفيق فراشه . كان يستدير في بعض الأحيان ، بينما يـرتدي ملابسـه ؛ ثم يحشر الغطاء في حنان حـول جسد زميله النائم ، إنني آخذ تلك التصرفـات الطبيعية مأخذ التصرفات التي تستحق أن المديح .

إنـه مـزيج غـريب ، فقد سمعـت صوتـه في بعض الأحيـان وهـو ينتفض بالعاطفـة بينما يشير إلى بعض وجهات نظر « القابـال » التي يسعى كي تكون مفهومـة للمجموعة التي يقوم على تـدريسها . ومع ذلك فقد تنهـد ذات مرة في حسرة عندما تحدث في حماس عن بعض الملاحظات التي كان قد أبداها من قبل وقال بتلك النبرة المتشككة التي تتميز بها الإسكندرية والتي تنطوى بصورة ما على ولاء وثقة لا جدال فيهما للروحـانيات : « إننا جميعًا نسعى حتى نصل إلى أسباب معقولة لإيماننـا بالمستحيل » . وفي مرة أخرى قال بعد منـاقشة طويلة ومرهقـة مع « جوستين » حول الوراثـة والوسط : « آه ! يا عزيـزتى ، ماذا في وسعنا أن نقـول عن معرفتنا الفعليـة بالإنســان ، بعد كل العمل الذي قـام به الفلاسفة على روحه والأطباء على جسده ؟ إنه ، بعد أن يقال كل شيء ويفعل كل شيء ، مجرد ممر للسوائل والأشياء الصلبة ، مجرد أنبوبة من اللحم » .

كـان زميل دراســة وصديقـًا للشـاعـر الشيخ . إنه يتكلم عنـه في حـرارة وبطريقة تصل إلى الأعماق حتى إن كل ما يقـوله كان يحرك مشاعري : « إنني أعتقد في بعض الأحيان بأنني قد تعلمت من دراسته أكثر مما تعلمت من دراسة الفلسفة ، إن مساواته الرائعة بين السخرية والرقة كان من الممكن أن تضعه في مصاف القديسين لو أنه كان رجـلاً متدينًا . ولكن المشيئة الإلهية لم تجعل منه غير شاعر وفي أغلب الأوقـات شاعر حزين ، غير أن المرء يحس وهـو معه بأنه يمسك بكل دقيقـة تمر عـابـرة ليقلبها رأسـًا على عقب حتى يكشف جـانبهـا السعيد. كان يستهلك في الحقيقة ذاته ، ذاته الداخلية كي يحيا . إن أغلب الناس تتمدد وتـدع الحياة تلعـب فوقهـا كدفقـات دش فاتـرة . ولقد عـارض فرض ديكارت : «أنا أفكر إذًا فأنا موجود » بفـرض من عنده جاء فيه كما اعتقد شيئًا كهذا : « أنا أتخيل إذًا فأنا منتم وحر » .

ولقد قال « بلتازار » عن نفســه ذات مرة في ضـجر ، « إنني يهودي ، بكل ما في اليهودية من رغبة دمويـة والتعطش للقدرة على القياس المنطقي . إنها الدليل

إلى نقاط الضعف العديدة في تفكيري ، والتي أتعلم كيف أوازنها مع بقية نفسي ـ وذلك بشكل رئيسي عن طريق « القابال » .

* * *

إنني أتذكر لقائي به أيضًا ذات ليلة شتوية باردة ، بينما كان يسير على الكورنيش ـ وقد غسلته الأمطار ، يتفادى الاندفاعات الفجائية للمياه المالحة عبر حواجزها . وتحت قبعته السوداء جمجمة تطن بذكريات « أزمير » و«السبورادس » حيث تكمن طفولته . وتحتها أيضًا كانت توجد تلك الإشعاعات التي تلازم الحقيقة والتي حاول أن ينقلها إلىّ فيما بعد في إنجليزية لا بأس بها باعتبار أنها لغة مكتسبة بالنسبة إليه . حقًّا لقد التقينا من قبل ، ولكنه لقاء وقف عند حدود الرؤية ، كان من الممكن أن يعبر كل منا الآخر دون أن نتبادل غير إيماءة ، لولا أن هياجه جعله يوقفنى ويمسك بذراعى قائلاً : « آه، في استطاعتك أن تساعدنى » . ثم صرخ وهو يمسك بى من ذراعى قائلاً : «أرجوك ، ساعدنى » . ومال وجهه الشاحب بعينيه اللامعتين الشبيهتين بعيني الماعز نحوى في عتمة المساء .

كانت أولى المصابيح الشاحبة المبتلة قد بدت تضفى توترًا وتصلبًا على المنظر الخلفي للإسكندرية والذي يشبه الورق المبتل : ضفة البحر وصفوف المقاهي الواقعة عليها ، وقد ابتلعها رذاذ يتوهج بضياء فسفورى ملطخ ومرتعش ، وهبت الريح نحو الجنوب الساكن . وقبعت مريوط متجمدة وسط نبات الغاب وكأنها أبو الهول رابضا . كان يبحث ، كما قال ، عن مفتاح ساعته ـ ساعة الجيب الذهبية الجميلة التي صنعت في ميونيخ . وفكرت فيما بعد ، إنه يخفي خلف العجلة المرتسمة على ملامحه المعنى الرمزي الذي تحمله له هذه الساعة : المعنى الذي يدل على الزمن الذي لا تقيده قيود والذي ينساب خلال جسده وجسدي ، لسنين عديدة وتبينه الآن تلك الساعة التاريخية . «ميونيخ » « زغرب » « الكارباثيون » . كانت الساعة لأبيه ، يهودي طويل القامة يرتدي

الفراء ، ويركب الزحافة . لقد قطـع بولندا وهو راقد بين ذراعي أمه ، لا يعرف غير أن المجوهرات التي تـرتديها في تلك الأماكن التي ينيرها الثلـج كانت ثلجية الملمس ، لقد « تكتكت » الساعة في رقة وهي على جسد أبيه كما «تتكتك » الآن في رقة وهي على جسـده ، وكأن الزمن يختصـر في كل منهما . كانت تـدار بمفتاح صغير على هيئة « عنـخ » رمز الحيـاة عند المصريين القدمـاء ، كان يحتفـظ به مربـوطًا إلى حلقة مفاتيحـه بقطعة من شريط أسود . وقـال لي في صوت أجش « إن اليوم في الإسكندرية هو يوم السبت ». قالها وكأن الزمن هنا شيء مختلف، وكأنه على صواب أيضًا . « إن لم أجد المفتاح فسوف تتوقف الساعة» . وسحب الساعـة فى رقة مـن جيب الصديـري المبطن بالحريـر لأراها في آخـر ومضات العتمة المنداة بالمطر ، « ما زال أمامي حتى مساء الإثنين ، ثم تتوقف » . كان من العبث أن يفتح الغطاء الـذهبي الرقيق دون المفتـاح وأن تتعرى أحشـاء الزمن النابض وهي تتحـرك ، « لقد بحثت الأرض ثلاث مرات لابد أنـه قد سقط مني فيما بين المقهى والمستشفى » .

كنت أرغب مسرورًا في معـاونتـه . غير أن المسـاء كـان يهبط في سرعـة فاضطررنا لوقف البحث بعـد أن قطعنا مسافة قصيرة نبحث في الفتحات التي بين الأشجار . قلت له : « بالتأكيد ، يمكنـك الحصول على مفتاح آخر » . فأجاب وقد نفد صبره : « نعم بالطبع ، ولكنك لا تفهم ـ لقد كان هذا المفتاح يخص تلك الساعة . لقد كان جزءًا منها » .

وذهبنا ، كما أتذكر ، إلى مقهى على الشاطئ وجلسنـا يملؤنا شعور باليأس وأمامنـا قهوة سوداء بينما راح هـو يتحدث عن سـاعته التاريخيـة في صوت كالنقيق . قال أثناء ذلك الحديث : أعتقد أنك تعرف « جوستين » لقد تحدثت إليّ عنك في حـرارة . إنها سـوف تأتي بك إلى « القـابـال » . وسألتـه : ومـا هـو «القابـال»؟ فقال وهو يكـاد يكون خجلاً : إننا نـدرس « القبالة » : إننـا صورة مصغرة لمحفل ماسوني . ولقد قـالت لى إنك تعرف بعض الشيء عن « القابال »

وأنك سوف تعجب به » . ولقد أثار هـذا الأمر دهشتي لأنني ، حسبما أتذكر لم أذكـر « لجوستين » على الإطـلاق الخط الدراسي الـذي أسير عليـه ــ فيما بين نوبات الخمـول والقرف الطويلة . وحسبما أتـذكر فإن الحقيبة الصغيرة التي تحتـوي على الكتب « الهرمزيـة » وكتب أخـرى من نفس النـوع كانت مغلقـة وموجودة دائماً تحت سريري . وعلى أى حال فإنني لم أقل شيئًا . ثم انتقل هو الآن إلى الكلام عن « نسيم » فقال ، « إنه أكثرنا سعادة على نحو ما ، إذ لا توجد فكرة مسبقة عما يبتغيـه في مقابل حبه ، وأن يحب الإنسان بمثل هـذه الطريقة غير المغـرضة سلفـًا لشيء يجب تعليمـه لغـالبية النـاس بعـد سن الخمسين . فالأطفال يتمتعون بهذا النوع من الحب وكذلك « نسيم » إنني جاد فيما أقول».

« وهل كنت على معرفة « بالأرناؤوطى » الكاتب ؟ » .

« نعم ، كاتب « عادات » .

« حدثني عنه » .

« لقد أقحم نفسه علينا ، غير أنه لم ير المدينـة الروحية الكامنة تحت المدينة الدنيويـة . لقد كان كاتبـًا موهوبًا وحسـاسًا ولكنه كان « فـرنسيًّا » أكثر من الفرنسيين . وكانت « جوستين » صغيرة للغاية حتى إنه لم ينل منها غير الأذى. لقد كـان سيء الحظ . ولو أنـه وجد أخـرى أكبر منها قليـلاً ـ فكل نسـائنا كما تعرف « جـوستين » مختلفة الأنماط ـ لا ستطـاع ـ لن أقول أن يكتب بطـريقة أفضل ، فكتابه جيد الصياغة ، ولكنه كـان قد وجد في كتابته العزم الذي يجعله عملاً فنيًّا أكثر اصالة » .

وتـوقف يسحب نفسًا طـويلاً قبل أن يضيف في بطء : « أنت تـرى أنه قـد تجنب في كتابـه هذا التعرض لعدد من المسـائل التي تخص « جوستين » والتي يعرف أنها حقيقيـة ، غير أنه تجاهلها لأغراض فنيـة بحتة ـ كحادثـة طفلتها . إنني أظن أنه اعتقد بأن لها طعماً ميلو دراميًّا » .

« أية طفلة هذه ؟ » .

« كـان لجوستين طفلـــة ، لا أدرى إبنـة من كـانـت . وذات يـوم اختطفت واختفت. كانت تبلغ من العمر ستة أعوام ، إن مثل هذه الأمور تحدث كثيرًا كما تعرف . ثم سمعت فيما بعـد أن البعض قد رآهـا أو تعرف عليها ، فبـدأت بحثًا لاهوادة فيـه خلال الحى العـربي لكل مدينـة ، خلال كل منـزل سيء السمعة ، حيث إنك تعـرف ما يحدث لـلأطفال الذين بـلا أبوين . إن « الأرنـاؤوطي » لم يذكـر هذا على الإطـلاق ، رغم أنه كثيرًا ما سـاعدها وهـي تلاحق كل خيط أو دليل، ولابد أنه قد رأى كيف أسهم فقدان طفلتها هذا في تعاستها » .

« من أحبت « جوستين » قبل « الأرناؤوطي » ؟ » .

« ليس في وسعي أن أتـذكر ، فـالكثيرون من عشــاق « جوستين » يظلـون أصــدقاء لها ، ولكن في وسعك أن تقـول كما أعتقد إن أصـدقاءهـا الحقيقين لم يكونوا على الإطلاق عشاقًا لها . إن أهل المدينة على استعداد دائم للقيل والقال».

غير أنني كنت أفكر في فقرة جاءت في كتاب « عادات » حيث تأتي «جوستين» مع عشيق لها عند المؤلف : كتب « الأرنـاؤوطي » يقول : « كـانت تحتضن هذا الرجل ، عشيقهـا ، أمامي في حـرارة ، وتقبله في فمه وعينيـه ، ووجنتيه ، حتى يده، ووقفت لا أدري مـاذا أفعل . ثم لمعت في خاطرى على نحـو مثير فكرة أنها كانت في الحقيقة تقبلني أنا في خيالها » .

وقال « بلتـازار » في هدوء : « الحمد لله إنني قـد أعفيت من اهتمام بالحب لا لزوم لـه . فاللوطي يفلت على الأقل من الصراع المخيف الذي يـواجهه المرء كي يمنح نفسه لشخص آخر . إذ عندما يضـاجع المرء واحدًا من نوعه فإنه يحتفظ وهو يستمتع بالتجربة بحريـة ذلك الجزء من عقله الذي يشغله « أفلاطون » ، أو الاهتمام بـالحدائق ، أو الحسـاب التفاضـلي . لقـد تـرك الجنس الآن ودخل الخيال ، ولهذا شقى « الأرناؤوطي » كثيراً مع « جوستين » ، لأنها افترست كل ما كان يود المحافظة عليه منفصــلا ــ طبيعته الفنية إن شئت . إنه بعد كل شيء أشبه « بأنطـونيو » صغير وهي « كيلـوباترة » . وفي وسعـك أن تقرأ كل شيء

عنهـا في « شكسبير » . وعنـدئذ يمكنك أن تفهم ، بقـدر مـا يخص هـذا الأمـر «الإسكندريـة » ، لماذا تعرف هـذه المدينة ، بالمدينـة التى يضاجع النـاس فيها أرحامهم ـــ أعني أن عبادة « سيرابيس » قد تـأسست هنا . فإن هذا الـذبول في القلب والانفلات في العشق جعل المرء ينقلب على أخته ، إن العاشق يرى صورته في أسرته مثل « ناريس » ، ولا مخرج هناك من هذه الورطة » .

لم يكن كل هـذا مفهومـاً لدى بصـورة كـاملة ، ومع ذلك فقـد أحسست إحساسا مبهماً بـوجود نوع من المطابقة بين العناصرر التي استخـدمها لربط الموضوع ، وبالتأكيـد فقد بدا الكثير ـ مما قاله ـــ لا يفسر ، والتي قرأت لأول مرة بخط يدها النابض بالحيوية ، هذا الاقتباس من « لافورج » .

« ليس لدىَّ فتـاة صغيرة يمكن أن تتذوقني ، أي والله ، ممرضة . ممـرضة تعاودني لمجـرد حب التمريض ، ولا تعطي قبلاتها للمحتضرين ، إلا لمن كـانوا على حافة النهاية » .

وكتبت تحتها : « كثيرا ما استشهد (١) بها . وأخيراً اكتشفت بالصدفة أنها مأخوذة عن « لافورج ».. » .

وسألني « بلتـازار » فجأة ، « هل انتهيـت من حب « ميليسـا » لك ؟ إنني لا أعرفها ، لقد رأيتها فقط . سامحنى . فقد آذيت مشاعرك » .

في هـذا الوقت بـدأت أدرك كم كـانت تعانى « ميليسـا » ، غير أنها لم تنبس بكلمة لوم واحدة ، كذلك لم تتكلم عن « جوستين » قط . غير أنها كانت منطفئة ، وغدا لونها ـ لون جسدها ذاته ـ لونًا تمجه النفس . وبدا أمرًا متناقضًا للغاية ، إذ كنت أحس حينذاك بأنني أحبها أكثر من أى وقت مضـى ، رغم أنني كنت أجد صعوبة بالغة في مضاجعتها دون أبـذل جهدًا . كان ينخر فيَّ اضراب في المشاعر وشعـور بـالخيبـة لم أحس بـه من قبل ، ممـا جعلني أغضب معهـا في بعض الأحيان .

كانت أحاسيسي معها تختلف اختلافـًا تامًّا عن أحاسيسي مع « جوستين » ،

التي كانت تعـاني اضطرابًا بين أفكـارها ومقـاصدها يكـاد يماثل الاضطراب الذي أعـانيه ، والتي قـالت لي : « إنني أتساءل من الـذي اخترع قلب الإنسـان ؟ أخبرني ثم أرني المكان الذي شنق فيه » .

* * *

أما عن « القـابال » نفسـها ، فماذا يمكـن أن يقال عنها ؟ إن « الإسكنـدرية » مدينـة الملل والطوائف الـدينية . لقـد قذفت المدينـة بداعـر من رجال الـدين ـ «كاربـوكراتس » و « أنطـونيو » ـ مقـابل كل ناسك . داعـر قد أعـد ليغرق في الحسيـات بعمق وصـــدق كما يغـرق في العقل أى راهب في الصحـــراء . قـال «بلتـازار » ذات مرة : « إنك تتكلم بـاستهـانـة عن الإيمان بعدة أديـان . ولكن ينبغي عليك أن تدرك حتى تتمكن من العمل هنا ـ وأنا إذ أتكلم الآن فإنما أتكلم كـرجل متـدين إلى حـد الهوس لا كفيلســوف ـــ إنـه يجب على المرء أن يحاول التوفيق بين النقيضين من العـادة والسلوك اللـذين لا يرجعـان إلى الاستعداد الذهني للمواطنين ، ولكن إلى الأرض التي يعيشون عليها ، إلى الهواء والطبيعة . أقصد الحسيـة إلى أقصي مداها والتقشف الـذهني إلى أقصي مداه . إن المؤرخين يتنـاولون الإيمان بعـدة أديـان على أنها حصيلة مـزيج من المبـادئ الفكريـة المتصارعـة ، وهو تفسير لا يعطي تحديدًا كـاملاً للمشكلـة . إنها ليست قضية أجناس ولغات مختلطة . إنها لخاصية قـومية أن يسعى سكان « الإسكندرية » للتوفيق بين أعمق خـاصتين نفسانيتين يعون ويدركون وجـودهما . وذلك هو السبب في أننا متهوســون ومتطرفون . وذلك هو السبب أيضـًا في أننا العشاق الذين لا نظير لنا » .

ليس هذا المكـان بالمكان المناسب لمحـاولة كتابـة ما أعرفه عن « القـابال » ، حتى لو كنـت عازمًا على محاولـة تعريف « الأرضيـة غير المتينة لتلك المعـرفة بالأسرار الروحية » . والتي لا يستطيعها أحد من أتباع « هرمس » الطامحين ـ

لأن لمثل تلك الشذرات من الإلهام ، جذورها الممتدة إلى أسرار تلك الفلسفة . إنها خبرات فجة لا يمكن أن يشارك فيها غير المطلعين .

لقد تعرضت لمثل تلك الأمور في « باريس » من قبل ، وكنت على اعتقاد بأنني قد أجد فيها طريقًا يمكن أن يقودني إلى فهم أعمق لنفسي — النفس التي تبدو كمجموعة هائلة من الشهوات والنزوات المشوشة والتي لا شكل لها . واعتبرت كل هذا الحقل من الدراسة شيئًا منتجًا يعود بالفائدة على أعماقي كرجل ، رغم أن تشككًا طبيعيًا وغريزيًّا قد جعلني غير مقيد إلى أية ملة دينية ـ ولقد درست قرابة عام على يدى « مصطفى » ، وهو رجل صوفي كنت أجلس في شرفة منزله الخشبية المتداعية كل مساء أستمع إليه وهو يتحدث في صوته الرقيق الذي يشبه نسيج العنكبوت . وكنت قد شربت الشربات مع حكيم تركى مسلم . ولهذا سرت إلى جوار « جوستين » يحتويني شعور بالألفة خلال التواءات الشوارع التي تشبه جحر الأرانب والتي تتوج قلعة « كوم الدكة » ، أحاول بنصف عقلي أن أتخيل كيف بدا هذا المكان عندما كان حديقة مقدسة للأوثان ، وقد نحتت كل الرابية البنية الأحجار على هيئة ثمرة الصنوبر . إن ضيق الشوارع هنا يعطي المرء إحساسًا بالألفة رغم أنه لم يكن على جانبها شيء غير مساكن كجحور الأرانب الدودية الشكل ومقاه صغيرة مظلمة تضاء بمصابيح الزيت المرتعشة . وقد غمر هذا المكان الصغير من المدينة جو غريب من الطمأنينة ، منحها بعضًا من جو قرى الدلتا . وهناك أسفل عند الميدان البنى — البنفسجي غير المنتظم والقريب من محطة السكة الحديدية والذي بدا مهملاً في الغسق المتلاشي ، تجمعت جمهرات صغيرة من الأعراب حول مجموعات المتبارين الذين يلعبون العصا ، وقد كتمت صرخاتهم الحادة في الغسق الذاوى . وإلى الجنوب كانت تلمع صفحة « مريوط » القاتمة . وسارت « جوستين » بسرعتها المعتادة في صمت ، وقد نفد صبرها لأنى كنت أتلكأ وألقى بناظرى خلال الأبواب على مناظر الحياة العائلية التي بدت (وهي مضاءة كمسارح العرائس) مليئة بمغزى درامي هائل .

كانت جمعية « القابال » تجتمع في هذا الوقت فيما يشبه كوخًا خشبيًّا مهملاً من أكواخ الحراسة ، بنى عند الحوائط الترابية لسد قريب للغاية من عمود « بومبى » ، وأعتقد أن حساسية البوليس السقيمة للاجتماعات السياسية هي التي أملت اختيار مكان كهذا المكان . كان على المرء أن يعبر الخنادق والحواجز الموحشة التي أقامها علماء الآثار وأن يتبع ممرًّا موحلاً عبر البوابة الحجرية ، ثم ينحرف بصورة حادة في زاوية قائمة فيدخل هذا الكوخ الكبير الخالى من الطلاء والذي كانت إحدى حوائطه جزءًا من سد ترابي وأرضيته من التراب المقوى بالطفلة . كان مضاء بقوة من الداخل بمصباحين بتروليين ومؤثثًا بعدد من الكراسي المصنوعة من الأغصان المجدولة .

كان الجمع مكونًا من حوالى عشرين شخصًا قادمين من أنحاء المدينة المختلفة . وقد لاحظت في شيء من الدهشة وجود « كابوديستريا » في أحد الأركان بقامته النحيلة وهيئته التي يبدو عليها الضجر . وكان « نسيم » ، بالطبع ، هناك . غير أن عدد الذين يمثلون الأقسام الأكثر ثراء والأكثر تعليماً في المدينة حينئذ كان قليلاً للغاية . كان هناك على سبيل المثال ـ ساعاتى متقدم في السن كنت أعرفه جيدًا بالعيان ـ رجل حلو الشمائل فضي الشعر كانت تبدو لى سماته الصارمة وكأنها تحتاج إلى كمان يوضع أسفلها حتى تغدو معبرة . عدد قليل من السيدات المتقدمات في السن واللواتى لا داعى لوصفهن ـ كيميائيًّا ـ وجلس « بلتازار » أمامهم على كرسى منخفض وقد رقدت راحتاه القبيحتان في حجره . وعرفته في الحال في صورة جديدة كلية عن ذلك المقيم في قهوة «الأقطار » والذي لعبت معه الطاولة ذات مرة . ومرت بضع دقائق في ثرثرة متفرقة بينما أعضاء جمعية « القابال » في انتظار من لم يحضر بعد من الأعضاء. ثم وقف الساعاتى العجوز واقترح أن يفتتح « بلتازار » أعمال الجلسة واتكأ صديقى إلى الخلف في مقعده ، وأغلق عينيه وابتدأ يتكلم بذلك الصوت الغليظ الذي يشبه النقيق والذي أخذت تتجمع فيه عذوبة غير عادية .

وتكلم ، كما أتذكـر ، عن ينابيع النفس وقدرتها على إدراك نظام فطـرى قائم في الكون يكمن تحت « التحكم الـواضح للظاهرة وفقدانها لكيـانها » . إن عمليات تدريب المخ يمكن أن تمكن الناس من اختراق حجاب الحقيقة واكتشاف أشكال من التوافق بين المكان والزمـان تتطابق مع التركيب الداخلي لنفوسـهم . غير أن دراسة « القابال » كـانت علماً ودينًا معًا . وكان كل هذا مألوفـًا للغاية بالطبع . غير أنه خلال المسـائل التي كان يعرضـها « بلتازار » كـانت تخرج منه شذرات من الفكر غير عادية على صـورة حكم رسميـة تظل تلح على العقل طويلاً بعد أن يغـادر المرء مجلسه . إنني أتـذكـره يقول على سبيل المثـال : « لم تفعل أى من الديانات أكثـر من المنع والحرمان وإضافة قائمة طـويلة من المحرمات . إلا أن المحرمات تخلق الرغبة التي أرادت الأديان علاجها . إننا أعضاء هذا « القابال » نقول « إنغمس ولكـن انتق » . إننا نطوع كل شيء حتى المنفعـة كي نجعل كمال الإنسان نـدًّا لكمال الكون ـ إننـا نعمد إلى التحطيم الدقيق للعقل بـانغماسه في المتعة » .

كانت جمعيـة « القابـال » تقوم في تكوينهـا على حلقة داخليـة من الأعضاء المطلعين على كل شيء (لو سمع « بلتازار » هذه الكلمـة لأصابه الفزع ولكنى لا أعرف كيف أعبر عنهـا بكلمة أخرى) وحلقـة خارجيـة من الدراسين وإلى تلك الحلقة ينتمي « نسيم » و « جـوستين » كانت الحلقة الـداخلية تتألف من اثنى عشر عضوًا منتشرين بصـورة واسعة على طـول البحر الأبيض المتـوسط ـ في «بيروت » و « يافا » و « تـونس » وهكذا . وفي كل مكان كان يـوجد معهد علمي صغير مكون من الـدراسين الذين كانوا يتعلمون استعمال الحسـاب الغريب ، حساب التفاضل والتكامل ـ العاطفي الذي وضعته جمعية « القابال » عن فكرة الإلـه . وكان أعضـاء الحلقة الـداخليـة من الجمعية يتبـادلون المراسـلات مع بعضـهم البعض كثيرًا ، مستخدمين في ذلك الطريقة القديمـة الغريبة في الكتابة ، والمعروفـة بالخطوط المتعـاقبة في اتجاهات متضـادة ، والتي يمكن القول أنها

كتابة تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين في أسطر متبادلة . إلا أن أبجدية الحروف المستخدمة كانت رموزًا لحالات عقلية وروحية . لقد قلت ما فيه الكفاية .

في تلك الامسيات الأولى جلست « جوستين » بيننا ، وقد شبكت ذراعيها في رقة بذراعينا ، تستمع في تواضع وتركيز مؤثر . وكانت عينا المحاضر في بعض الأحيان تستقران عليها للحظة في ألفة ومودة . هل أدركت حينئذ ـــ أو هل اكتشفت فيما بعد ـــ أنه ربما كان « بلتازار » هو صديقها الوحيد وبالطبع الشخص الوحيد الذي تضع فيه ثقتها في المدينة ؟ إنني لا أتذكر . كانت تقول «لقد كان « بلتازار »هو الشخص الوحيد الذي في وسعي أن أخبره بكل شيء ، لم يكن يفعل شيئًا إلا أن يضحك . ولكنه كان يساعدني بصورة ما على أن أطرد الفراغ الذي أحسه في كل ما أفعل » . وإلى « بلتازار » كانت تكتب تلك الرسائل الطويلة المعذبة والتي أثارت اهتمام عقل « أرناؤوطي » الفضولي . لقد سجلت في يومياتها أنهما قد فازا ذات ليلة قمرية بالدخول إلى المتحف حيث جلسا مدة ساعة بين التماثيل « العمياء كالكوابيس » تستمع إليه وهو يتكلم . قال أشياء كثيرة أثرت فيها حينذاك ولكنها اختفت فيما بعد من عقلها عندما حاولت كتابتها . ومع ذلك فإنها تتذكره وهو يقول في صوت هادئ متأمل شيئًا ما عن « هؤلاء الذين كتب عليهم من بيننا أن يسلموا أجسادنا إلى الغيلان » . ولقد اخترقت تلك الفكرة « جوستين » حتى النخاع على أساس أنها تومئ إلى نوع الحياة التي تحياها . أما بالنسبة « نسيم» فإنني أتذكره وهو يخبرني بأن «بلتازار » قد قال له في جفاء ذات مرة عند ما كان يعاني من أجل « جوستين » عذابًا عقليًّا شديدًا ، « كل غيور على زوجته فاسق » .

ثم أضاف بعد ذلك قائلاً : « إنني لا أتكلم الآن باعتباري شخصًا عاديًّا ولكنني أتكلم بصفتي عضوًا في « القابال » . إن الحب العاطفي الحاد إنما هو نوع من الزنا أيضًا حتى لو كان من رجل لزوجته » .

* * *

محطة « الإسكندرية » الرئيسية : في منتصف الليل . ندى ثقيل كالموت . وضجة العجلات وهي تشق أرصفة الشوارع الموحلة الزلقة ، برك جعلها الضوء الفوسفوري صفراء اللون ، وممرات من الظلام كالدموع في واجهة مسرح كئيبة مبنية بالطوب . ورجال البوليس في الظلام . وأنا واقف إزاء حائط طوبي ملوث لأقبلها قبلة الوداع إنها ستذهب لأسبوع ، ولكني أستطيع أن أرى، في رعبي ونعاسي أنها لن تعود أبدًا . لقد ملأتني بالخواء قبلتها الناعمة المليئة بالعزم وعيناها اللامعتان . وتأتي من عند الرصيف المظلم أصوات قرقعة مؤخرات البنادق وطقطقة الجنود البنغاليين . قوات هندية على صورة فرق صغيرة منقولة إلى « القاهرة » في مهام روتينية خاصة . ولم أحس بأن «ميليسا» تتركني حقًّا إلا عند ما أخذ القطار يتحرك ، وعند ما أخذ الشبح الواقف بالنافذة ، القائم في الظلام ، يفلت يدى ، أخذت أحس بكل ما جحدته بطريقة قاسية لا رحمة فيها ــ وجرة القطار الطويلة نحو الضياء الفضي تذكرني بحركة سلسلة ظهرها الأبيض وهي تتقلب في الفراش . وأنادى «ميليسا » غير أن زفير القطار المدوي يمحو كل صوت . وبدأت القاطرة تميل وتنحني وتنزلق وتأخذ المحطة في طي الإعلانات واحدًا بعد الآخر ثم تكومها في الظلام بسرعة تشبه سرعة الشخص المكلف بتغير المشاهد في المسرح . ووقفت وكأني قد تركت وحيدًا على قمة جبل جليد عائم . وإلى جواري وقف جندي من « السيخ » يحمل بندقية وقد سد فوهتها بوردة . وهيكل القطار الذي يشبه الظلال ينساب على قضبان الصلب في الظلام ، وللمرة الأخيرة يميل القطار ثم يتدفق داخل نفق وكأنه قد تحول إلى سائل .

وأسير ذلك المساء خلال « محرم بك » ، أرقب القمر تغطيه السحب ، ينهشني قلق لا يوصف .

خلف السحب ضوء ساطع ، وفي الساعة الرابعة رزاز خالص رفيع كالإبر وقد تصلبت الزهور المكسيكية في حديقة القنصلية ، وعلى أعضاء التذكير حطت

قطرات ماء فضية . لا طيور تغني في الفجر وريح خفيفة تجعل أشجار النخيل تميل بأعناقهـا تطقطق طقطقة متزنـة خفيفة جافـة . وللمطر فوق « مـريوط » صوت رائع صامت .

الساعة الخامسة . أتنقل في حجرتها ، أتفحص الحاجيات الخالية من الحياة بتركيز عميق . علب المساحيق الفارغة . أدوية إزالة الشعر من عند «ساردیس». رائحة الساتان والجلد . الرائحة البشعة لفضيحة توشك أن تقع ...

إنني أكتب هذه السطـور في ظروف مختلفـة تمام الاختلاف ، أكتبهـا هنا ، تحت شجرة الزيتون هذه ، في بـركة الضوء التي يلقي بها مصباح زيتي ، وقد انقضت عدة شـهـور منذ تلك الليلـة . إنني أكتب وأعيش مرة أخـرى تلك الليلة التي تحتل مكانها في الذخيرة الهائلة لذكريات المدينة . وفي مكان آخر ، في حجرة مكتب واسعـة وقد تـدلت على منافـذها ستـائر سمراء نحاسيـة اللون كـانت «جوستين » تنقل إلى يـومياتها حكم « هيراكليتس » الفظيعة . إن الكتاب يـرقد الآن إلى جـواري . وعلى إحدى صفحـاتـه تكتب : « من العسير أن يحارب المرء رغبـة قلبه . فمهما كـانت تلك الـرغبة ، فإنها تبتـاعهـا على حساب الـروح » . وأسفل الصفحـة على الهامش : « السائرون ـــ ليلاً ، المجـوس ، والمطلعون على الأسرار » .

هل فـاجأني « منمجيـان » في ذلك الـوقت بأن همس في أذني تلك الكلمات : «هل تعرف ، أن « كوهين » يموت . كان تاجـر الفراء قد اختفى عن الأنظار منذ شهور مضت . وكانت « ميليسا » قـد سمعت أنه بالمستشفى يعاني من تسمم بولي . إلا أن المدار الذي وصفناه ذات مرة عن الفتاة كان قد تغير ، وكان الكاليد وسكوب « المنظـار الملون » قـد مال مرة أخـرى وغاب « كـوهين » عن الأنظار كشظيـة مختفية من الـزجاج الملـون . والآن فإنه يمـوت . ولم أقل شيئًا وأنـا أجلس أتمعن ذكريات تلك الأيام المبكرة ـ اللقاءات في زوايا الشوارع والبارات . خلال الصمت الطـويل الذي أعقب كلمات « منمجيان » الذي جـز شعري تمامًا

بموسى حلاقة ، وأخذ في رش رأسي بعطـر ورق الغار المنقوع في الروم . وتنهد تنهيدة قصيرة وقال ، « كان يسأل عن فتاتك « ميليسا » .

وقلت له : « سـأخبرها بالأمـر » . وأوما الـرجل الأرشيف برأسـه ونظرة لزجة تـآمرية في عينيه . ثم قـال وهو يمسك بأنفاسه : « أى مـرض فظيع هذا المرض . إنه كـريه الـرائحة . إنهم يكشطون لـه لسانـه بسكين طبي . تفوه » . ووجه رزار بصاقه إلى أعلى نحو السقف كأنه يزيل ما علق بالذاكرة من عفونة : وكأن الرائحة قد غزت الدكان .

كانت « ميليسا » تـرقد فوق الكنبة في ثوبها المنزلى وقـد أدارت وجهها نحو الحائط . واعتقدت في أول الأمر أنها نائمة ، ولكن ما إن وصلت حتى استدارت وجلست . وأخبرتها بأنبـاء « منمجيان » فقـالت : « إنني أعرف بـالأمر ، فقـد أرسلوا إلىّ الخبر من المستشفي ولكن ماذا في وسعى أن أفعل ؟ إنني لا أستطيع الذهـاب ورؤيته . إنه لا يعني شيئـًا بالنسبة لي . لم يكن كـذلك ألبتة ، ولم يكن كذلك أبدًا . » ثم نهضت وسارت بطـول الحجرة وأضافت في غضب يوشك أن يكون بكـاء : « إن له زوجة وأطفـالاً ، ماذا يفعلـون به ؟ » وجلست وواجهتني مـرة أخرى ذكـرى ذلك الكلب الأليف من كلاب البحـر وهو يحملق بحـزن في كأس خمر آدمية . وأعتقـد أن « ميليسا » قد أخذت صمتي مأخـذ النقد الموجه إليها لأنها جاءت إلىّ وهزتنى في رفق من كتفي ، وتساءلت : « ولكن ما العمل إذا كـان يموت بـالفعل ؟ » . كان السـؤال مـوجهًا إلىّ بنفس القـدر الموجه إليهـا . فانفجرت تبكى فجأة وركعت وقد وضعت رأسها على ركبتي : « أوه ، إنه لأمر مقزز للغاية ، أرجوك ألا تجبرني على الذهاب » .

« بالتأكيد كلا » .

« ولكن إن كنت ترى ضرورة ذهابي فسأذهب » .

ولم أقل شيئًا . كان « كـوهين » على نحو ما قد مات ودفن بـالفعل بالنسبة إلينا . كان قد فقـد مكانه في تاريخنا . وبدا لي أن بـذل أى جهد عاطفي عليه إنما

هو شيء لا جدوى منه . لم يكن لهذا علاقة بالرجل الحقيقي الراقد وسط بقايا جسده الراحل في غرفة بيضاء نظيفة بالمستشفي . لقد غدا بالنسبة إلينا مجرد شخصية تاريخية . ومع ذلك فإنه ما زال هنا يحاول في عناد أن يؤكد شخصيته ، يحاول العودة إلى حياتنا من عند نقطة أخرى في محيطها . ما الذي في وسع « ميليسا » أن تعطيه له الآن ؟ وما الذي تستطيع أن تحرمه منه ؟ .

وقلت لها : « هل ترغبين في ذهابي إليه ؟ » ولقد واتتني هذه الفكرة غير المعقولة فجأة ، في وسعى أن أدرس حبي أنا ونهايته ، في موت « كوهين » . لقد أرعبني أن يستغيث إنسان أوشك على النهاية بحبيب قديم فلا ينال منه غير صرخة اشمئزاز . لقد انقضى الزمان الذي كان في وسع الرجل العجوز أن يوقظ حنان حبيبتي أو حتى مجرد إثارة اهتمامها ، فقد حلت بها نوائب جديدة مقابل ماضيها الذي ذبلت فيه نوائبها القديمة وتعفنت . وربما خلال فترة قصيرة ، إذا ما حدث واستنجدت بي أواستنجدت أنا بها ، فهل يعود أيٌ من عند الآخر بصرخة تعبر عن الفراغ والتقزز ؟ وأدركت حينئذ حقيقة الحب كله : أدركت أنه شيء مطلق يأخذ كل شيء أو يخسر كل شيء . أما المشاعر الأخرى كالحنان والرقة وغيرهما ، فإنها لا توجدإلا عند الخطوط الحدية وتنتمي إلى تراكيب المجتمع وما تعود عليه . إلا أن « إفروديت » ذاتها ــ « إفروديت » الصارمة القاسية ـ إنما هي وثنية . إنها لا تنتقي عقولنا وغرائزنا ولكنها تنتقي عظامنا . لقد أفزعني أن أفكر في أن هذا العجوز في مثل تلك اللحظة من حياته ، كان عاجزًا على أن ينال لحظة حنان إكرامًا لذكرى أى شيء قاله أو فعله: حنان من المرأة التي هي في أعماقها أكثر البشر حنانًا ورقة .

أن يُنسي الإنسان على هذا النحو كان معناه أن يموت ميتة الكلاب . وقلت لها: « سأذهب لأراه من أجلك » ، بالرغم من أن قلبي كان ينتفض تقززًا من هذا المشهد ، غير أن « ميليسا » كانت قد نامت ورأسها الفاحم على ركبتيٌ كلما كدرها شيء ما تلوذ بعالم النوم البرىء ، تنزلق إليه في يسر وسهولة كغزال أو

طفل . ووضعت يدىّ داخل « الكيمونو » الحائل اللون ودلكت ضلوعها البارزة وجبينها في رقة . وتحركت وهي نصف نائمة وتمتمت شيئًا ما في صوت خافت عند مـا تركتني أرفعهـا وأحملها في رقة مـرة أخرى إلى الكنبـة . وتأملتها لمدة طويلة وهي نائمة .

حل الظلام وكـان سكان المدينة يتـدافعون ، كما يتدافع غـرس من أعشاب البحـر ، نحـو المقاهـي المضاءة في أعلى المدينـة . وتـوجهت إلى « بـاسترودى » وطلبت كأسًا مضاعفًا من الويسكـي شربته في بطء وأنا أمعن الفكر . ثم أخذت تاكسيًّا واتجهت به إلى المستشفى .

تبعت الممـرضـة المنـوط بها العمل خـلال الممـرات الطـويلـة الخضراء الخاليـة ممـا يميـزها والتي تنضح جـدرانها المطليـة بالـزيت جوًّا مـن الرطـوبة . وكـانت المصابيح البيضاء الشبيهـة بالأبصال والتي يشع منها الضوء فتحـدد طريقنا تنغمس في الظلام كحشرات منتفخة مضيئة .

كانـوا قد وضعـوه في الغرفـة الصغيرة ذات السرير الـواحد الـذي تحجبه الستائر والتي كانت ، كما علمت فيما بعد من « منمجيان » ، محجوزة للحالات الخطرة والتي لا يتوقع لها أن تعيش طويلاً . لم يـرني في بادئ الأمر ، فقد كان يراقـب في إعياء ممـزوج بالدهشـة المرضـة بينما كانت تـرتب لـه وسائده . وأدهشني تعبير وجهه المتسيـد المتأمل الحذر ، الذي يحملق من فـوق المرتبة ، فقد غدا نحيلاً إلى حد يجعل التعرف عليـه أمرًا صعبًا . غار اللحم من على عظام وجنتيه معريًا الأنف الطويلة المعقوفة بعض الشيء حتى الجذور ، مظهرًا بروز المنخرين كنقرتين . وقد أعطى هذا للفم والفكين تعبيرًا فـرحًا لابد أنه كان يميز وجهه في صبـاه المبكر . كـانت عيناه محتقنتين من أثـر الحمى ، وشعره داكن خشن يظلل رقبته وحلقه ، غير أن خطوط وجهه العارية كانت نقية نقاء خطوط وجـه رجل في الثلاثين . واختفت للحـال صورتـه التي احتفظت بها طويـلاً في ذاكرتي ـــ صورة قنفـذ يقطر عرقـًا ، صورة عجل بحـر أليف . وحلت محلها

صورة هـذا الوجـه الجديد ، هـذا الرجل الجديـد الذي يبـدو مثل ـ واحـد من وحوش سفر الـرؤيا . ووقفت برهبة طـويلة أرقب في دهشة شخصيـة غريبة عني وهي تتلقى رعايـة الممرضات ، بـإعياء ذاهل يختص به الملـوك وحدهم . وهمست الممرضة المنوط بها العمل في أذني : « لقد أحسنت بالحضـور . إن أحدًا لن يحضر ويـراه . كان يهذي في بعض الأحيـان . ثم يفيق ويطلب النـاس . هل أنت أحد أقاربه ؟ » .

وقلت لها . « إنني شريكه في العمل » .

« سيفيده أن يرى وجهًا يعرفه » .

غير أني كنت أتساءل إذا ما كان سيعـرفني ؟ فلو أنى تغيرت نصف ما تغير لغدا كلانـا غريبًا تمام الغربة عـن الآخر . كان يرقد الآن على ظهـره ، وأنفاسه تصفـر بطريقـة فظة خـلال ذلك الأنف الطويل الـذي يشبه أنف الثعلب وقـد استرخى على وجهـه كنحت شـامخ في مقـدمـة سفينـة مهجـورة . وأزعجتـه همسـاتنا إذ استـدار نحوى فوجه إليّ نظـرة غائمة وإن كانت نقيـة متأملة بدت وكأنها نظرة طائر كبير من الطيور الجارحـة . غير أنه لم يتعرف عليّ إلا عندما تحركت بضع خطوات إلى جوار الفراش . ومرة واحدة فاضت عيناه بالضياء ـ مزيج غريب من المذلة والكبرياء الجريحة ، والخوف البرىء . وأدار رأسه نحو الحائط . وأدليت في اقتضاب برسالتي كلها في جملة واحدة . قلت ، إن «ميليسا» غائبـة ، وأنني قد أبـرقت لها لتعود بأسرع مـا في استطاعتهـا . وفي تلك الأثناء حضرت لأرى إن كان في وسعي أن أسـاعد على أى وجه من الوجـوه . واهتزت كتفـاه وخيل إليّ أن أنينًا لا إراديـًا على وشك أن ينفجر من بين شفتيـه ، إلا أن ضحكة سـاخرة فظـة لا مبالية خـالية من النغم انطلقت للحـال مكان الأنين . وكأنها تسخر من جيفـة نكتة مائتة بـالية بالغـة العفن لا تستطيع أن تثير فيه شيئًا أكثر من فتحة فمه الشاحبة المقورة في خديه المشدودين .

قال : « إنني أعرف أنها هنا » وامتدت إحدى يديه في سرعة فوق الغطاء كفأر خائف تتلمس يدي : « إنني أشكرك للطفك » . وبهذا بدا فجأة وكأنه قد أخذ يهدأ رغم أنه أبقي وجهه بعيدًا عني . وقال في بطء وكأنه يجمع شتات نفسه حتى يعطي للجملة معناها المحدد : « لقد أردت ، أردت أن أسوى حسابي معها بشرف ، لقد عاملتها بطريقة سيئة ، سيئة للغاية . إلا أنها بالطبع لم تلحظ ذلك ، إنها ساذجة للغاية ، غير أنها طيبة ، فتاة طيبة » . كان غريبًا أن يسمع المرء جملة « فتاة طيبة » من شفتي واحد من « الإسكندرية » وقد نطقت بالإضافة إلى ذلك بلجهة متكسرة ممطوطة منغمة مألوفة لهؤلاء الذين تلقوا تعليمهم في هذا المكان . ثم أضاف ، وهو يبذل جهدًا واضحًا ، ويناضل في مواجهة مقاومة داخلية هائلة : « لقد خدعتها فيما يختص بمعطفها . لقد كان مصنوعًا من جلد عجل البحر حقًّا كذلك كانت العثة قد غزته . فعملت على أن تعاد خياطته . لماذا كان على أن أفعل شيئًا كهذا ؟ وعندما كانت مريضة لم أكن أعطيها مالاً حتى تذهب إلى الطبيب . أشياء بسيطة ، ولكنها ثقيلة العبء » . وتزاحمت الدموع في عينيه وضاق حلقه وكأنه قد غص بجسامة تلك الأفكار . وابتلع ريقه بجهد قاس وقال : « لم تكن تلك الأفعال جزءًا من شخصيتي . سل أيًّا من رجال الأعمال الذين يعرفونني . سل أىَّ إنسان » .

غير أن الارتباك بدأ يسيطر عليه ، فقادني وهو يمسكني في رقة من يدى إلى غابة أوهامه الكثيفة ، حيث كان يسير خلالها بقدم ثابته ومعرفة راسخة حتى إنني وجدت نفسي أكاد أساير تلك الأوهام أيضًا . وشكلت أوراق أشجار مجهولة كانت تمر على وجهه في سرعة قوسًا فوق رأسه ، بينما أرصفة من الحصي تحدد طريق العجلات المطاطية لنقالة مليئة بأجسام معدنية وأخرى قاتمة ، تتحدث عن حافة الجحيم ، وعواء كريه تتخلله عبارات زاجرة باللغة العربية . وكان الألم أيضًا قد بدأ يبلغ عقله وإدراكه ويجسد له الأوهام . وتحولت أطراف السرير البيضاء الصلبة إلى قوالب من القرميد الملون ،

وتحولت الـورقة البيـانية البيضـاء الخاصـة بدرجـة الحرارة إلى وجه بحـار أبيض.

كانـا يسبحان يـدًا في يد هـو و « ميليسا » ، عبر ميـاه « مريـوط » الضحلة الحمـراء كـالـدم ، نحـو الأكـواخ الطينيــة المزدحمة بـلا نظـام حيث وقفت «راكوتيـس» ذات مرة . وأعاد سرد أحـاديثهما بدقـة شديـدة حتى أنني رغم ضآلة نصيب حبيبتي من الحديـث ، استطعت أن أسمع صوتها الرصين ، وأن أستنتج أسئلتها من الإجابات التي قدمهـا لها . كانت تحاول في استماتة إقناعه بالـزواج منها ، وهو يلف ويـدور لا يرغب في فقد جمال شخصهـا ، وبالمثل لا يرغب في توريط نفسه . لقد شدتني أمـانته الغريبة التي كان يعيد بها سرد كل تلك المناقشـة . والتي كان من الواضـح أنها تحتل في ذاكرته مكـان واحدة من أعظم التجارب التي مـر بها في حياته . لم يكـن يعرف حينذاك كم كـان يحبها ، وكـان عليَّ أنـا أن أعلمه هـذا الـدرس . ومن النـاحية الأخـرى كيف حـدث أن «ميليسـا » لم تحدثني على الإطـلاق عن رغبتهـا في الـزواج ، لم تكشف لي على الإطلاق عن أعماق ضعفها وإرهـاقها كما فعلت معه ؟ لقد جرحني هـذا جرحًا عميقًا . لقد طعن كبريائي فكرة أنها قد أظهرت له جانبًا من طبيعتها في حين أنها احتفظت به خافيًا عني .

وتغير المشهد الآن مرة أخرى ووقعت قدماه على طـريق أكثر وضوحًا . لقد بدا الأمر وكأننا قد عثرنا في هذا الدغل الشاسع من اللامعقول على أماكن خالية يسيطر عليها العقل السليم حيث استطاع أن ينفض عنه أوهامه الشاعرية . هنا تكلم عن « ميليسا » وهو يفيض بالمشاعر وإن كانت مشاعر رصينة ، كزوج أو كملك . لقد بـدا الآن والجسد يموت وكأن كل مكـونات نفسه الـداخلية والتي احتجزت طويلاً خلف أكاذيب حياة مـورست بطريقة خاطئة ، قد انفجرت عبر السدود وفـاضت تغطي أقرب الأجزاء مـن وعيه . لم تكن « ميليسا » وحـدها التي تكلم عنها ـ فقد تكلم عن زوجته ـ وكان في بعض الأحيان يخلط اسميهما .

كذلك كـان هنا اسم ثالث ، « ربيكـا » ، كان ينطقـه بتحفظ أعمق ، بأسي عاطفي أكثر من الآخريين . وأخذت الاسم على أنه اسم ابنته الصغيرة ، لأن الأطفال هم الذين يوجهون الطلقة الأخيرة القـاضية وسط كل تلك التعاملات الفظيعة التي يقوم بها القلب .

وبينما أجلس إلى جـواره أحس نبضنا يـدق في انسجام وأصغى إليـه وهو يحدثني عن محبـوبتي بهدوء جـديـد مهيب ، لم يسعني إلا أن أرى الكثير من السجايا التي يتمتع بها هذا الرجل والتي كان من الممكن أن تحبها « ميليسا » . أى صدفة غريبة جعلتها تخطئ الرجل الحقيقي ؟ لقد بدا لى الآن منافسًا خطيرًا لم أكن متنبهـًا لقدراته ، بعيـدًا كل البعد عن ذلـك الشيء الذي يوضع مـوضع الازدراء كما كنت أنظر إليـه على الدوام ، وواتتني فكـرة دنيئة حتى أني أخجل من كتابتهـا . لقد شعـرت بالسرور لأن « ميليسا » لم تحضر لتراه وهــو يموت وإلا لرأته كما رأيته أنا الآن ، وربما اكتشفته مرة أخرى في غمار الصدمة . ولقد وجدت نفسي بسبب واحـد من تلك التناقضات الوهميـة التي يسبح فيها الحب منتشيًا ، أحس الغيرة منه وهو يموت أكثر ممـا أحسست بها خلال حياته. لقد كانت تلك الأفكار أفكـارًا فظيعة بالنسبة لا مرئٍ عانى من الحب طـويلاً وكان من مريديه الظرفاء . ولكني عرفت فيها مرة أخرى وجه « إفروديت » الصارم اللامبالي البدائي .

وعرفت من خـلاله على نحو مـا ، من صدى صـوته وهو ينطق بـاسمها ، نضجًا كنت أفتقده ، لأنه قد تغلب على حبه لها دون أن يدمره أو يصيبه بالضرر . لقد تركـه ينضج كما يجب أن ينضج كل حب إلى صداقة متفانيـة تذوب فيها شخصيته . إنه لم يطلب أن يراها خوفًا من الموت أو لحاجته إليها كي تواسيه ، ولكنـه أراد أن يقدم لها من خـزائن رجل يحتضر ، من خزائنـه التي لا تفني ، عطية أخيرة .

كان معطف السمور الفاخر يرقد ملفـوفًا في ورق رقيق للغاية فوق الكرسي

عند نهايـة الفراش ، وكان في وسعي أن أدرك من نظرة واحـدة أنه لم يكن من نوع الهدايا التي تقـدم إلى « ميليسا » ، فقد كان حريـاً به أن يثير الاضطراب في صوان مـلابسـها الضيـق الرث ، متفوقـاً بحسنه على كـل ما لـديها . وقال في سعادة : « لقد كنت وأناحى أحس على الـدوام بالقلق فيما يختص بالمال . ولكن عندما تحتضر فإنـك تجد نفسك فجأة رجلاً ذا مال . » لقد كـاد أن يكون قادراً على الابتهاج لأول مرة في حياته . غير أن المرض كان يربض هناك كعليل صبور ونذير لا يرحم .

كان يمر بين الحين والآخر بفترة قصيرة من النوم القلق والظلام يطن حول أذني المتعبتين مثل خليـة نحل . كـان الـوقت متأخـراً ورغم ذلك لم أستطع أن أحمل نفسي على تركـه . وأحضرت لي ممرضـة ممن يناط بهن العمل كـوباً من القهـوة وتحدثنـا في همس . لقـد كان مـريحاً لي أن أسمعهـا تتكلم ، فـالمرض بالنسبة لها لم يكن غير مهنة أجادتها وموقفها منه هو موقف الأجير الذي ينال أجره عن كل يوم يعمل فيه . قالت في صوتها البارد : « لقد هجر زوجته وطفلته من أجل امـرأة مـا . والآن لا ترغـب زوجته ولا المرأة التي كـانت عشيقتـه في رؤيته. حسنـاً » . وهزت كتفيهـا إن تلك المشاعـر المعقدة من الـوفاء لا تثير في نفسـها أى إحساس بالشفقة ، فقد كانت لا ترى فيها إلا نقاط ضعف لا تستحق منهـا غير الازدراء . وسألتها : « لماذا لا تحضر الطفلـة ؟ ألم يطلب رؤيتهـا ؟ » ولكنها سلكت سنتها الأمامية بظفر أصبعها الصغير وقالت : « نعم لقد طلبها ، ولكنه لا يود أن يفزعها بأن يجعلها تـراه وهو مريض . إنك تدرك أن هذا الأمر لا يسعد طفلـة . » والتقطت رشاشـة وأخذت تبـخ في تراخ شيئاً مـن المطهر في الهواء فوقنا ، مما ذكرنى بشكل قاطـع « بمنمجيان » . ثم أضافت قائلة : « لقد تأخر الوقت ، فهل ستمضي الليل هنا ؟ » .

كنت على وشك أن أتحرك غير أن النائم استيقظ وقبض على يدي مرة أخرى وقـال في صوت عميق ممـزق لكنـه يدل على سـلامـة العقل ، وكأنه قـد سمع

العبارات الأخيرة من حديثنا . « لا تذهب . ابق قليلاً . هناك شيء آخر كنت أفكر فيه ويجب أن أصارحك به » . واستدار نحو الممرضة وهو يقول في هدوء ولكن في وضوح « اذهبي » فسوّت الفراش وتركتنا وحدنا مرة أخرى . وأطلق تنهيدة عميقة تبدو للمرء ، إن لم يكن مراقباً وجهه ، وكأنها تنهيدة ارتياح وسعادة . وقال : « ستجد ملابسي في الدولاب » . كان هناك بدلتان غامقتان وأخرجت حسبما أشار صديرية واحدة منهما ، وأخذت أصابعي تتحسس ما في جيوبها حتى عثرت على خاتمين : « لقد عزمت على أن أتقدم أطلب الزواج من « ميليسا » إن رغبت الآن . لهذا السبب أرسلت إليها . ومع ذلك فما فائدتى ؟ إسمي مثلاً ؟ » وابتسم ابتسامة غامضة وهو ينظر إلى السقف . «والخاتمان...» وأمسك بهما بين أصابعه في رقة وتبجيل كما يمسك المرء بقربان المناولة المقدس : « إنهما الخاتمان اللذان اشترتهما « ميليسا » لنفسها منذ زمن طويل . ولهذا يجب أن تأخذهما . فربما ... » ونظر إليّ نظرة طويلة بعينين متألمتين متسائلتين . وقال : « ولكن كلا . إنك لن تتزوجها . ما الذي يضطرك إلى ذلك ؟ ولا يهمك خذهما والمعطف إليها » .

ووضعت الخاتمين في جيب معطفي العلوي ولم أقل أى شيء . وتنهد مرة أخرى ولدهشتي أخذ يغني ، في صوت واهن يكاد أن يكون خافتًا كصوت قزم صغير ، يتلو أبياتًا قليلة من أغنية شائعة إسمها « محال » . والتي كانت ذات يوم الأغنية التي جنت بها « الإسكندرية » ، والتي كانت « ميليسا » ما تزال ترقص على أنغامها في الكباريه . وقال لي : « اصغ إلى الموسيقي . » وفكرت في الحال في « أنطونيو » وهو يحتضر في قصيدة « كافافي » ـ قصيدة لم يقرأها على الإطلاق ، ولن يقرأها ألبتة . وزعقت الصفارات فجأة عند الميناء كنجوم تعاني الألم . ثم سمعت هذا القزم مرة أخرى يغني في رقة عن الحزن والسعادة ، لم يكن يغني « لميليسا » ولكنه كان يغني « لربيكا » . وما أشد اختلاف هذا الغناء عن غناء جوقة المرتلين العظيم الممزق للقلب الذي سمعه « أنطونيو » ـــ الثراء

الذي تتمتع به حدة الأوتار والأصـوات التي انطلقت في الشارع المظلم ـ آخر ما تمنح « الإسكنـدريـة » لهؤلاء الـذين اختـارتهم نماذج يعبرون عنهـا . إن كل إنسان يغادر هـذا العالم على أنغام موسيقـاه الخاصة ، وفكرت وتذكـرت وأنا أحس بالخجل والألم الحركات غير المتقنة التي كانت تقوم بها « ميليسا » وهي ترقص .

كان قـد انساق الآن إلى حافـة النوم وقدرت أن الـوقت قد حان كي أتـركه وأنصرف . فأخذت المعطف ووضعته في درج الدولاب السفلي قبل أن أخرج على أطراف أصابعي وأستدعي المرضة المنوط بها العمل . والتي قالت « إن الوقت متأخر للغاية » فقلت لها « سأحضر في الصباح » . وكنت أعنى ما أقول .

وبينما أسير على مهل إلى منـزلي عبر الشارع المظلم الذي تصطـف الأشجار على جانبيه أتذوق ريح الميناء المالحة الطعم ، تذكرت « جوستين » وهي تقول في صوت أجش بينما تـرقد في السرير : « إننـا نستخدم بعضنـا البعض كمعاول نهدم بها هؤلاء الذين نحبهم حبًّا حقيقيًا » .

* * *

كثيرًا ما قيل لنا إن التاريخ محايد ، إلا أننـا نأخذ ما يصدر عنه من تقتير أو وفرة مأخذ الأمر الذي تدبره قوة ما ، إننا في الحقيقة لا نصغي أبدًا ....

وهـا أنذا الآن أسير على شبـه الجزيـرة المكفهرة تلـك ، التي تشبه ورقـة مسطحة ، وتمتـد كأصابع اليـد (حيث تطقطق أمطار الشتـاء بين الصخور في صوت كصـوت القش) أسير وأنا متصلب متيبس تلفنى الرياح قـرب شاطئ يخنقه أنين الإسفنج أبحث عن معني للنموذج .

وأعتقد كشـاعر للوجـدان التاريخي أنني مضطر إلى رؤيـة الطبيعة كحقل تسوده الرغبة الإنسانية ـ حقل قـد مزق إلى مزارع وكفور ، وحرث لتقام عليه المدن . منظر عـام شخبطته توقيعات الـرجال والعصور . ومع ذلك فقـد بدأت أعتقد الآن ، أن الرغبة قد آلت إلى الإنسان مـن الموقع الذي يعتمد عليه في تزويد

وتأكيد إرادته على مكانه في الأرض ، سواء كان مستأجرًا لفدادين مثمرة أو لغابة مجدبة . إنني لا أرى الآن أثر ضرباته الإرادية فوق الطبيعة (كما اعتقدت) ولكني أرى النمو الذي لا يقاوم ، لنظريات الطبيعة التلقائية غير المحدودة عن التباين والألم من خلال هذا الإنسان . لقد اختارت الطبيعة هذا المكان المسكين المتشعب نموذجًا لها . ولذا يبدو من التفاهة بمكان أن يقول أي رجل كما سمعت « بلتازار » يقول ذات مرة « إن رسالة : « القابال » ، إذا كان لها ثمة رسالة ، هي أن تشرف الوظيفة حتى إن قدر الأكل والإفراز يرتفع إلى مرتبة الفنون » ، وسترى في كل هذا ازدهارًا للشك الكامل الذي سيقوض إرادة البقاء . إن الحب وحده هو الذي في وسعه أن يمد الإنسان بسند لفترة أطول قليلاً .

إنني أعتقد ، أيضًا ، أن شيئًا كهذا كان يجول بخاطر « الأرناؤوطي » عندما كتب : « لقد انتهى البشر كحالات نفسية تطرح أمام الكاتب . إن النفس الإنسانية المعاصرة قد انفجرت في ظل الأبحاث التي يقوم بها هؤلاء الذين يفسرون ما غمض من الأمور فماذا بقي الآن للكاتب ؟ » .

لعل إدراكي لهذا الأمر هو الذي حدا بي إلى اختيار تلك البقعة الحالية كي أقضي بها السنوات القليلة القادمة ـ في هذا اللسان الذي حرقته الشمس في جزر بحر « إيجة » . إن هذه الجزيرة المحاطة بالتاريخ من كل جانب هي وحدها الخالية من كل مرجع تاريخي . إنها لم تذكر ألبتة في تواريخ الجنس الذي ننتمي إليه . إن ماضيها قد رد إليها من خلال المكان ـ لا عبر الزمان ـ حيث لا توجد بها معابد ولا حدائق ولا مدرجات تفسد الأفكار بمقارناتها الزائفة . صف من القوارب الملونة ، وميناء فوق التلال ، ومدينة صغيرة جعلها الإهمال جرداء .

هذا كل ما هناك . وسفينة تجارية تمر بها مرة كل شهر خلال طريقها إلى «أزمير » .

وتتسلق عـواصف البحر ، في تلك الأمسيـات الشتويـة ، صخور السـاحل الوعرة وتغـزو أحراش الوديان الهائلة التي لا يرعـاها أحد حيث أسير أتحدث فجأة بلغة عاميـة برية وأنا أدفع وأزيح جانبـًا تلك الأشجار ذات الفروع التي تشبه قلاع السفينة .

إنني أسير هنا ترافقني تلك الإيحاءات التي تثير الحسد لماض لا يستطيع أن يشاركني فيه أحد . وحتى الزمن نفسه لا يستطيع أن يحرمنى منه . إن شعري مثبت إلى الخلف فـوق رأسي ، وراحة يـدي تحمي من قـوة الـريح بقايـا التبغ المشتعل في غليونى . وقد رصعت السماء من فوق بصفوف متماثلة من النجوم المتلألئة . ونجم « قلب العقرب » ينساب هناك وقد غلفه الرزاز .... إنني أهجر - وأنا أحس بالبهجة - أصدقاء وكتبـًا في متناول اليد ، غرفًا مضاءة ، مداقئ بنيت لتقام حولها المناقشات - كل رغبة العقل المتمدين - إنني أفعل ذلك الشيء وأنا لا اندم عليه ولكن أحار له فقط .

وأرى في هذا الاختيار أيضًا شيئًا عرضيـًا ولدته بواعث أجد نفسي مضطرًا لاعتبارهـا شيئًا خارج نطاق مـا جبلت عليه . ومع ذلك ، فإنه لأمر غـريب حقًا إنني هنا فقط استطعت أخيرًا أن أدخل من جديد وأن أستـوطن مرة أخرى ، أنا وأصدقائي ، المدينة التي لا تندثـر وأن أصوغهم في نسيج متماسك كالفولاذ في الكتابات التي سوف تدوم نصف عمـر المدينة . أو هذا ما أتمناه . هنا على الأقل أستطيع أن أرى تاريخهم وتاريخ المدينة كشيء واحد وكظاهرة واحدة .

غير أن أغرب مـا في الأمر : أنني مديـن بهذه الانطلاقة « لبـورسواردن » - آخر شخص كـان على أن أعتبره مصدرًا محتمـلاً من مصادر الخير . ففي ذلك اللقاء الأخير ، مثلاً ، في الفندق في حجرة النـوم القبيحة الغالية والتي كان ينتقل إليهـا كلما عاد « بـومبال » من إجـازته .... لم أدرك في رائحـة الحجرة العفنـة الثقيلة رائحـة انتحار وشيك الـوقوع ، وأنى لي أن أدرك ذلك ؟ كنت أعـرف أنه تعس ، حتى لو لم يكن كذلك . فقد كان مضطرًا لأن يتظاهر بالتعاسة . إنه لأمر

متوقع ، من جميع فنـانـي هذا العصر أن ينموا ــ على سبيل الموضــة ــ شيئًا من التعاسـة في نفوسـهم . ولكـونه « انجلو سـاكسونيًا » فقـد كانت بـه لمسة من الضعف والإشفاق العاطفي الشديد على ذاته ، مما حدا به كي يشرب قليلاً . لقد كان في الليلة متوحشًا وغبيـًا وسريع الخاطر على التوالي . وأذكر أنه بينما كنت أستمع إليه خطـر ببالي ذلك الخاطر فجأة : « هنا إنسـان أهمل أحاسيسه بينما كان ينمي موهبتـه ، ولـم يحدث هذا الأمر عرضًا ، ولكنـه حدث عن قصد وعن عمد ، فقد كان التعبير عما بنفسه خليقًا بأن يضعه في تناقص مع العالم ، أو أن وحـدتـه كـانت تهدد عقلـه وإدراكـه . لم يكن في مقـدوره احتمال حـرمـانـه واستبعاده ، وهو ما زال على قيد الحيـاة ، من قاعات الشهرة والتمايز . وتحت كل هذا كان يعاني على الدوام مـن إدراك لا يكاد يحتمل بخسته الذهنية . والآن لقـد بلغ مجرى حياتـه مرحلـة مثيرة : أعني النساء الجميـلات ، اللواتي كـان يحس دائماً ، شأنه في ذلـك شأن ريفي هياب ، أنهن بعيـدات المنال ، وهن الآن سعيدات بأن يراهن الناس في صحبته . إنهن يلبسن في حضرته مسوح عرائس الشعر الساهيات قليلاً واللائى يعـانين من الإمساك . ويرضي غرورهن إن هو أمسك على مشهد من النـاس بيد مـوضوعة في قفـاز لمدة أطول ممـا يسمح به العرف . ولابد أن كل هذا كان في البدء بلسماً لغرور رجل يعاني الوحدة ، ولكنه عمق في النهايـة شعوره بـالقلق والخطر . لقد بـدأت حريتـه التي اكتسبها عن طريق نجـاحه المالي المتـواضع تبعث بالضجر في نفســه ، لقد أخـذ يحس أكثر فأكثـر بحاجتـه إلى العظمة الحقيقية بينما كـان اسمه ينتفخ كـل يوم كـلافتة مقززة . لقـد أدرك أن الناس يسـيرون الآن في الشوارع مع الاسم الـذي اشتهر وليس مع الـرجل الذي يحمل هـذا الاسم . إنهم لم يعودوا ــ مـع أن كل أعماله إنما كتبها لتجذب الانتباه إلى الشخصية التي تعاني الوحدة وتتألم والتي أحس أنه يعبر عنها . لقد غطاه اسمـه كشاهد القبر . والآن تأتى الفكرة المرعبة : ربما لم يعد هناك أحد ليراه الناس ؟ ومع ذلك فمن يكون هو ؟ .

إنني لست فخورًا بتلك الأفكار ، فهي تفضح الحسد الذي يحسه كل فاشل إزاء كل ناجح . غير أن الضغينة غالبًا ما ترى بوضوح كذلك الوضوح الذي يرى به البر والإحسان . وفي الحقيقة فقد عبرت خاطرى وفي خط متواز لتلك الأفكار كلمات « كليا » التي استخدمتها ذات مرة في وصفه ، والتي لسبب ما أتذكرها الآن وأمعن الفكر فيها : « إنه منفر في بعض النواحي . ويكمن جزء من ذلك السر في تجهمه الطبيعي إذ يوجد في موهبته بذرة من الخجل ترجع إلى انزوائه . وللخجل قوانين : إذ ليس في استطاعتك أن تهب ذاتك بطريقة مأساوية، إلا لأولئك الذين يفهمون أقل مما يفهم الجميع . لأن تَفَهُّم إنسان يتطلب إظهار الشفقة على ما في هذا الإنسان من ضعف الارادة . ومن هنا فإن النساء اللواتي يحبهن والرسائل التي يكتبها إليهن ، إنما تقوم في عقله مقام الرموز لهؤلاء اللواتي يعتقد أنه يرغب فيهن ، ويستحقهن على أى حال من الأحوال - يا صديقي العزيز » .

وتنقطع عبارات « كليا » دائماً في منتصفها وتنتهى بتلك الابتسامة الساحرة المليئة بالرقة - « هل أنا مسئول عن حراسة أخى ؟ » .

(إن أهم ما أحتاج إليه هو تسجيل التجارب ، لا بالترتيب الذي وقعت به - لأن ذلك هو التاريخ - ولكن بالترتيب الذي غدت فيه لأول مرة ذات دلالة بالنسبة إلىّ) .

ماذا إذن ، كان حافز « بورسواردن » كي يترك لي خمسمائة جنيه بشرط واحد هو أن أنفقها مع « ميليسا » ؟ واعتقدت أنه ربما أحبها هو نفسه ، ولكن بعد تفكير عميق انتهيت إلى أنه لم يحبها هي ، ولكنه أحب حبي لها . وأنه بالنسبة لجميع فضائلي لم يكن يحسدني إلا لقدرتي على الاستجابة بحرارة لتودد الآخرين الأمر الذي كان يعرف قدر ه ، حتى لعله تمناه ، غير أنه سيكون محرومًا منه إلى الأبد لأنه يشمئز من نفسه . والحقيقة أن هذا الشيء بذاته كان

لطمة موجهة إلى كبريائي ، فقد كنت أحب منه أن يبدي إعجابه - إن لم يكن بالعمل الذي أنجزته - فعلى الأقل بما يكشف عنه هذا العمل من أمل يرجى لمستقبل أعمالى الأدبية . ما أغبانا — وما أضيق أفقنا ، إننا مجرد أباطيل تسعى على أقدام .

لم نكن قد التقينا لأسابيع ، فإن أحدًا منا لم يكن يتردد عادة على مسكن الآخر ، وعندما حدث أن التقينا تم ذلك في المرحاض المصنوع من الصفيح في الميدان الرئيسي إلى جوار محطة الترام ، كان ذلك بعد أن حل الظلام ، وكان من الممكن ألا يرى أحدنا الآخر ، لولا أن غمرت المصابيح الأمامية لإحدى السيارات هذا المكان الكريه الرائحة صدفة بضوء أبيض كالرزاز . وقال وقد تعرف على : « آه » ، قالها دون اتزان وبعد تفكير ، فقد كان مخمورًا (وكان قبل ذلك بعدة أسابيع قد ترك لي في وصيته خمسمائة جنيه ، وهذا يعنى أنه قد حكم على وقيمنى - رغم أن هذا الحكم لم يكن ليبلغنى إلا عندما يذهب إلى القبر) .

كان المطر يقرض السقف المصنوع من الصفيح فوقنا . وتقت للذهاب إلى منزلي ، فقد قضيت يومًا مرهقًا ، لكني تريثت في ضعف ، وقد عاقني عن الذهاب ما أحسه على الدوام من آداب المجاملة نحو هؤلاء الذين لا أكن لهم حبًّا. وحدد الجسد المترنح بعض الشيء ملامحه أمامي في الظلام . وقال في لهجة عاطفية واضحة : « دعنى أستودع فيك سر حرفة الروائي . فأنا ناجح وأنت فاشل . إن الجواب أيها العجوز ، هو الجنس والكثير من الجنس » . ورفع رأسه وذقنه وهو يقول أو يلقى بطريقة خطابية ، بكلمة « الجنس » : وأمال رقبته الضامرة كما تفعل الدجاجة عند الشرب وقضم الكلمة وهو ينبح كصول يدرب الجنود . وقال مكررًا بطريقة أكثر طبيعية : « سياط الحب ولكن تذكر » ، ثم جعل صوته يهبط إلى تمتمة كمن يهمس سرًّا خاصًّا . « عليك بالبقاء متحفظًا حتى التزمت . فتقاليد الجدة الخالدة كفيلة بأن تنقذك ، عليك أن تظل متحفظًا تعاني الألم . حاول وابدو كأنك تعاني انقباضًا ، فذلك عنوان النخبة الممتازة في

المجتمع . أما عن الأنخاب الوقحة ، والتصرفـات القبيحة ما كان منها طبيعيًّا أو هـزليـًّا ، فهى أمور لا يسمح بها . لقـد كـانت هـذه أعمال لا غبار عليهـا أيـام «شوسر » و « اليصـابات » إلا أنها لا تـرفع من قـدر المرء في هذه الأيام ـــ كن متزمتًا وتلفع بثياب الوقار كشيخ من شيوخ الكنيسة » . وأدار نحوي في نفس اللحظة التي نفض فيها عن نفسه كل دخيلته وجهًا تشكل فحاكى غطاء الزرار . كان مشدودًا ضيقًا غريب المنظر . وشكرتـه غير أنه أزاح شكري جانبًا بطريقة ملكية . وقال : « كل هـذا مجانًا بلا مقابل » . ثم أمسك بى مـن يدى وقادنى إلى الخارج ، إلى الشـارع المظلم . وسرنـا نحـو وسط المدينـة كعبـدين ، ككـاتبين تربطهما الزمالة ، يثقل كلاً منا إحساس مختلف بالفشل . كان يتحدث بثقة إلى نفسه في تمتمـة لم أستطع تبينها عن أمـور تهمه . وعنـدما استـدرنا نسير في «شارع الراهبات » توقف أمام باب مضاء هو باب منزل سيىء السمعة وقال : «يقول « بودلير » إن المضاجعة هي موال الرعاع ، ولكنها للأسف لم تعد كذلك ! إذ أن الجنس يموت . وبعـد قرن آخر سنـرقد ولسان كل منـا في فم الآخر ، في صمت وبـلا وجد كفـاكهـة البحر . حقـًّا ! سيحـدث هذا مـا في ذلك شك » . ثم استشهد بالمثـل العربي الذي يستخدمـه كالشيء المميز لثلاثيتـه . « الدنيا زى الخيارة ـــ النهاردة في إيدك وبكـرة في .... » وتابعنا بعـدئذ خطانا نتقـدم نحو الفندق الذي يقطنـه « كابو جلمبو » وهو يكـرر في سعادة ظاهرة قـوله « ما في ذلك شك . » لما في جرسـه من نعومة متفجرة . كـان شاحبًا هزيلاً ، وقـد طالت ذقنه ، غير أنه كان يتمتع بمعنويات طيبة بعد هذه النزهة ، والتجأنا إلى زجاجة من الجن كـان يحتفظ بها في « الكـومـودينو » إلى جـوار سريـره . وأشرت إلى الحقيبتين المنتفختين والقـائمتين إلى جـوار منضـدة الـزينـة وقـد تم ربطهما بالأحـزمة ، وكان معطفه الـواقي من المطر ملقى فوق أحد الكـراسي وقد حشي بالصحف ، كـذلك بيجامته ، ومعجـون الأسنان .... إلخ . فقال إنه كـان يعتزم اللحـاق بقطار المسـاء إلى « غـزة » . كـان يود أن يستجم وأن يـزور « بترا » .

وكانت ترقد فوق رخام منضدة الزينة ، مسودات آخر رواية كتبها وقد صححت ولفت وكتب عليها العنوان . وعرفت في مسلكه الفظ واكتآبه الإرهاق الذي يلاحق الفنان عندما يصل بواحدة من أعماله إلى نهايتها . تلك هي لحظات الهبوط النفسي عند ما تبدأ هواجس الانتحار في الانتعاش من جديد .

إنني لا أستطيع لسوء الحظ أن أستعيد إلا القليل من المناقشة الفعلية التي دارت بيننا ، رغم أني كثيرًا ما أحاول استعادتها كاملة . وإذا عدنا إلى الماضى ، فإنني أجد كون هذا اللقاء هو اللقاء الأخير قد أحاطه بأهمية لا يستحقها دون شك . فإن « بورسواردن » لم يكف عن الوجود كهدف من أهداف هذا الكتاب ، لقد انتقل كما سننتقل جميعًا إلى المرآة الزئبقية العاكسة التي هي ذكرى أصدقائنا ، حيث نترك وراءنا أمراضنا ، وأفعالنا الشريرة ، وأوكار رغباتنا التي تشبه أعشاش الزنابير ، والتي مازالت تؤتي الخير أو الشر في العالم الحقيقي . ومع ذلك فإن وجود الموت يزيد من حنكتنا ـ وتلك هي وظيفته : إنه يساعد على إبعاد الفكر في كل ما يجد على الزمن . ومع ذلك ففي تلك اللحظة كان كلانا يقف على بعد متساو من الموت ـ أو هذا ما ظننته . ولربما كان يزدهر في أعماقه حينذاك شيء من التصميم الصامت على الموت ـــ ما المشكلة ؟ ليس في وسعي أن أحدد . إذ ليس خافيًا أن أى فنان يرغب في إنهاء حياة قد استنفدها ـ (ففي كتابه الأخير تصرخ إحدى الشخصيات : « لسنوات كان على المرء أن يحتمل الشعور بأن الناس لا تعبأ به ، لا تبالى به مبالاة حقيقية ، ثم يدرك المرء ذات يوم بانزعاج متزايد ، أن الله هو الذي لا يعبأ وأن الأمر لا يقف عند هذا الحد ولكنه لا يعبأ به على أى حال من الأحوال) .

غير أن هذا الجانب يذكرني بجزء صغير من ذلك الحديث المخمور فقد تكلم في هزء وسخرية عن « بلتازار » ، وعن انشغاله بأمور الدين ، عن « القابال » (التي كان قد سمع باسمها فقط) واستمعت إليه دون أن أقاطعه وأخذ صوته يهبط بالتدريج كساعة حائط قهرها ثقل الثواني . وانتصب ليصب لنفسه

كأسًا وقال : « إن المرء يحتاج إلى قـدر هائل من الجهل حتى يقرب الله . واعتقد أنى كنت أعرف على الدوام أكثر مما يجب » .

إن تلك الشذرات تثير الغيظ في عقلى اليقظ في مثل تلك الأمسيات ، وأنا أسير في ظـلام الشتاء ، إلى أن أعـود في النهايـة إلى طقطقـة نيران خشب الزيتـون في المدفأة المقوســة القديمة الطـراز ، التي ترقـد إلى جوارها « جـوستين » الطفلة نائمة في سريرها الهزاز المصنوع من خشب الصنوبر الذكى الرائحة .

إلى أى مدى أستطيع الادعاء بأني أعرفه ؟ إنني أدرك أن كل امرئٍ في وسعه أن يدعى معرفـة جانب من شخصيتنا كجزء من خبرته . إننا نـدير لكل إنسان وجهًا مختلفـًا من وجوهنـا التي تشبه المنشور . ولقـد وجدت نفسي مـرة بعد أخرى مفـاجأ بمشاهدات تـذكرني بهذه الفكرة . كما حـدث مثلاً عندمـا قالت «جوستين » عن « بومبال » : « إنه واحد من أعظم فرسان الجنس » . رغم أنه لم يبـد لى على الإطلاق مفترسـًا ســلابـًا . لم يكن غير مفـرط في ذاته إلى حـد يثير الضحك والسخريـة . كنت أرى فيه شخصًا مسليـًا ومؤثرًا ، خليقـًا بأن يكرم بعض الشيء لقدرتـه الفطرية على السخـرية . غير أنها لابد وقـد رأت فيه القط الكبير الناعم .

وأما بالنسبة « لبورسواردن » ، فإنني أتذكر ، أيضًا ، أنه شد قامته في نفس الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن الجهل الديني ولمح صورته الشاحبة المنعكسة في المرآة . فرفع الكأس إلى شفتيه ، وأدار رأســه ، ثم ألقى بملء فيه من الشراب على انعكاس صـورته اللامع . ستظـل تلك الصورة باقيـة واضحة في رأسي ، انعكاس متميع لصـورة تلك الحجرة القذرة الباهظـة الإيجار والتي تبدو الآن مكانًا مناسبًا تمامًا للمشهد الذي حدث فيما بعد في تلك الليلة ذاتها .

* * *

« محل زغلول » ـ أوان فضية وحمائم موضوعة في الأقفاص . كهف كالقبو رصت على جـانبيه بـراميل سوداء وقـد اختنق بـدخان السمك المقلي ورائحـة

«الريتزيناتو » . رسالة قـد شخبطت على طرف جريدة . هنا سكبت الخمر على معطفها ، وقد لمست نهديها دون قصد بينما كنت أحـاول مساعدتها في إصلاح الضرر . لم تصدر ولا كلمـة واحدة عن أى منـا . بينما « بورسـواردن» ما زال يتكلم في تألق عن « الإسكنـدريـة » ومكتبتها التي احترقت . وفي الحجـرة التي فوقنا يصرخ فقير مصاب بالتهاب سحائي .

يجئ اليـوم ، على غير انتظار ، مطـر ربيعي غير طبيعي ، يجمد غبـار المدينة وحبوب لقاح أزهارهـا ، يدق سقف المرسم الزجاجي حيث يجلس « نسيم » عاكفًا على الرسم التخطيطي لوجه زوجته . لقد أمسك بها لحظة كانت تجلس تغني أمام النـار وبين يديها جيتار ، وقد لفت عنقها بوشاح منقط ، وقد مـالت برأسها . ويتداخل ضجيج صـوتها في مؤخرة رأسه كـآثار صوت هـزة أرضية تندفع متراجعـة . وينصب المطر فـوق الحدائق صب نبال هـائلة حيث تميل أشجـار النخيل إلى الوراء وقـد توتـرت ، أسطورة الأمـواج الصفر الهامات تهاجم الفراعنة .

وتمتلئ المدينة في الليل بأصـوات جديـدة ، أصوات شد الـريح وضغطها ، حتى تحس وكأن المدينة قد غدت سفينة ، أخشـابها القديمة تئن وتزيق مع كل هجمة يقوم بها الطقس .

هـذا هو الطقس الـذي يعشقه « سكـوبي » . إنه يـرقد على فـراشه يـدلك منظاره المكبر في حـب ، ملقيًا بنظرة مشتـاقة إلى الحائط الطيني الأصـم ، الذي يحجب عنه منظر البحر .

إن « سكـوبي » ينـاهـز السبعين من عمـره ولكنـه مـا زال يخشى الموت ، والشيء االوحيـد الذي يخافـه هو أن يستيقظ ذات صبـاح فيجد نفسـه ميتًا ـ اللفتنانت كوماندر « سكوبي » الضابـط بالإمبراطورية البريطانية . ولذا تهزه بشدة صيحات السقائين كل صباح تحت نافذته قبل الفجر فتوقظه ، إنه يقول : إنه يظل للحظـة لا يتجاسر على فتح عينيه ، فيبقيهما مغلقتين تمامـًا (خشية أن

تفتحا على مضيف سماوي أو على الملائكة وهم يترنمـون) ويتحسس حامل ـ القطائر الموجود إلى جانب سريره حتى يمسك بغليـونه . إنه محشو على الدوام منذ الليلة السابقة وقد وضعت إلى جواره علبة ثقاب مفتوحة . ويستعيد رباطة جأشـه وإبصاره مع أول نفس من أنفـاس الدخـان . فيتنفس في عمق مسرورًا لتأكده أنه مـا زال على قيد الحياة مرة أخرى . فيبتسم . ويتفـرس فيما حوله . ويسحب فروة الخروف التي يستخـدمها كغطـاء حتى أذنيه وينشـد للصباح أغنيته القصيرة أغنية الشكر على انتصاره في صوت يطقطق كرقائق الصفيح : « اسكت أيها الطفل الصغير ، دع أمك تتكلم » . ويتلون خداه المترججان كخدي نافخ البـوق باللون الوردي من الجهد الذي يبذله . ويكتشف عنـدما يتنبه إلى نفسه أنـه يعاني من الصداع الـذي لا مفر منـه . ولسانه يـؤلمه من خمر الليلة الماضية . غير أن منظر يوم آخر من أيام الحياة يساوى الكثير لديه في مقابل تلك المضايقات التافهة . ويغنى « أسكت أيها الطفل الصـغير » وهكذا . ثم يتوقف عن الغناء ليدس طاقم أسنانه في فمه . إنـه يضـع أصابعه المجعدة على صدره يعزى نفسه بصـوت قلبه وهو يعمل ، محافظًا على دورتـه الدمويـة المرتجفة في ذلك الجهاز المكون من الأوردة ، والذي لا يعوض قصوره (لست أدرى إن كان هذا حقًّا أم من نسج الخيال) إلا جرعات يوميـة قاتلة من البراندى. لذا فهو فخور بقلبه . ولو حدث أن زرته وهو في الفـراش فكن على يقين بـأنه غالبًا ما سيقبض على راحتك قبضة فك حيوان صلب صـلابة القرن ويسألك أن تحس نبضـه . « إنه قوى كقلب ثور ، ماذا ؟ « يتكتك » بطريقة ظريفة » . هكذا يتحدث عن قلبه ، رغم البراندي . وحتى تجاريـه بعض الشيء فإنك تدس يدك داخل سترة نـومه الرخيصة وأنت تبلع ريقك لتختبر ضربات الحياة ، القليلة ، الحزينة ، الضعيفة النائية ـــ والتي تشبه دقات قلب جنين في شـهره السابع . ثم يـزرر بيجامته في إعزاز ويطلق صيحتـه التي يقلد فيها زئير الحيوان الذي يتمتـع بصـحة جيدة . ويقول : « وأقوم واثبًا من فراشي كالأسد ». وتلك واحدة أخرى من مـأثوراته .

إنك لن تتعرف على سحـر هذا الرجل تعـرفًا كـاملاً ، حتى تراه بـالفعل ، وقد انحنى ظهره من الرومـاتيزم ، خارجًا يزحف كحطام إنســان من بين بطاطينه القطنية الخشنــة ، إن عظامه لا تلين بمقدار يجعلـه قادرًا على أن يقف منتصب القامة إلا في أكثـر شهور العام دفئًا ، وهــو يتمشى في عصارى أيام الصيف في الحديقة ، وطـاسة رأسه الصغيرة تتـوهج كشمس صغيرة ، وغليونــه مسدد نحو السماء ، وقد أطبق فكيه في تقطيبة عنيفة كمن يتمتع بصحة فاجرة.

إن أسطورة المدينـة لا تكتمل دون « سكوبى » ، وستفتقد « الإسكنـدرية » شخصيته عنـدما يتدلى ، في النهايـة ، جسده الذي جففتـه الشمس ، وقد لف في علم المملكة المتحدة ، في المقبرة الضحلـة التي تنتظره في جبانة الـروم الكاثوليك قرب شريط الترام .

إن راتب التقاعـد الضئيل الذي يتقاضــاه من البحريـة لا يكاد يكفي إيجار الحجـرة الوحيـدة التي يسكن فيهـا في المنطقة القـذرة الفقيرة المزدحمة خلف «شارع التتويج » والتي تحتلها الصراصير ، ولكنـه يغطى النقص الذي يعانيه براتب تقاعد ممـاثل يتقاضاه من الحكومة المصرية . فهـو يحمل بالإضافة إلى ذلك لقب « بمبـاشي » بقـوة البوليـس وهو لقب يثير في النفس الكبريـاء ، وقـد رسمت لـه « كليـا » صـورة رائعة وهــو في زى رجل البـوليس والطـربـوش القرمزي على رأسه ، وقد رقدت منشته الهائلة السميكة سمك ذيل الحصان في رشاقة على ركبتيه العظميتين .

إن « كليا » هي التي تمده بـالتبغ وأنا أمده بالإعجـاب والصحبة والبراندي إذا كانت حالة الجو تسمح بذلك . وقد أخذنا على عاتقنا أنا و « كليا » أن نتناوب الإشادة بصحته . ونقـوم بإنهاضه عندما يضرب صـدره بقوة زائدة في غمرة حماسه لإثبات قـوته . ليس « لسكوبي » أصل ينسب إليه ــ إذ يتجمع ماضيه كمادة أسطـوريـة حقيقية عبر دستـة من القـارات . كما أن حـاضره غنى بما

يتخيلـه عن صـحته حتى أنــه لا يطلب المزيـد ـ إلا رحلــة يقـوم بها أحيانــًا إلى «القاهرة » خلال شـهر « رمضـــان » عندما يغلق مكتبه حيث يفترض أن تتوقف كل الجرائم بسبب الصيام .

الشباب أمرد وكـذلك مرحلة الطفولــة الثانية . ويشد « سكـوبى » في حنان بقايا لحية كانت ذات يوم وسيمة كثة تشبـه الطوربيد ـ ولكنه يشدها في رقة ، ودلال ، خوفًا من أن يقتلعها كلها ويترك وجهــه عاريًا تمام العرى . إنه يتشبث بالحياة تشبث نوع من الأصداف بالصخور ، نوع لا يظهر عليه تأثير البحر كل عام إلا في صـورة طفيفة للغايــة . يبدو وكأن جسده يتضاءل ، يتقلص ، بمرور فصـول الشتاء ، وسرعــان ما ستغدو جمجمته في حجم جمجمــة الطفل . سيمر عام آخــر أو عامان ، وبعدهــا سنكون قادرين على أن نحشر جمجمتــه في قنينة وأن نخللهــا هنــاك محتفظين بها إلى الأبـد . إن التجاعيـد تترك على مــر الأيــام بصمات أشد عمقًا . ويبدو وجهه بدون أسنان كوجه قرد من العصور القديمة. وتوجـد فوق لحيته الهزيلة وجنتــاه الحمراوان في لون التوت المعــروفتان على سبيل التدليل بيسار السفينة ويمينها ، وهما تشعان دفئًا في جميع الأجواء .

ولقــد تردد « سكــوبى » كثيرًا على عنبر الاستبدال ، ففي عــام ١٩٠٠ نقلت سقطــة من على الصـــاري فكــه من مــوضعــه وتحطم عظم الجمجمــة المحيط بالتجويف الأمــامي . ويسلك طاقم أسنانه الصناعية عنـدما يتكلم سلوك سلم متحــرك . إنــه ينتقل إلى أعلى ويدور داخــل جمجمته في حلـزون هــزاز . كما لا تستقر ابتســامته على حــال ، إذ من الممكن أن تظهر من أى مكــان مثلها في ذلك مثل ابتسامــة القط « شيشـير » . وفي عام ١٨٨٤ بصبص بعينيه لـزوجة رجل آخر (كما يقــول هو) ففقد واحــدة منهما . والمفروض أن أحــدًا لا يعرف بهذا الأمر غير « كليــا » ، إلا أن استبدال العين التالفــة بعين صناعيــة لم تكن عملية متقنة . إذ عندما يكون هادئًا يصعب مــلاحظة عينه الصناعية ، غير أن التفاوت بين العينين يبدو واضحًا عنــدما يكون نشطًا . كـذلك توجد هنــاك مشكلة فنية

صغيرة ، وهي أن عينــه الطبيعية تكـاد تكون على الـدوام حمراء كالـدم . ولقد لاحظت منـذ اللحظة الأولى عنـدما دعاني لـرؤية رسـم بالغـاب بعنوان « أيها الحارس ، ماذا عن الليل ؟ » بينما وقف في ركن الحجـرة ممسكًا في يده بمبـولة قـديمة ، لاحظت أن عينــه اليمنى تتحرك أبطأ قليـلاً من عينه اليسرى . وبـدت حينـذاك وكأنها تقليـد مكبر لعين النسر المحنطة التي تطل متجهمـة كئيبـة من تجويف في المكتبـة العامـة . على أن عينه الصنـاعية وليست الطبيعـة هي التي تنبض بعنف في الشتاء بطريقة لا تحتمل وتجعلـه عبوسًا بذيء اللسـان لا يهدأ حتى يلقى بقليل من البراندي في معدته .

ويشبه « سكـوبي » بعض الحيوانات البـدائية عنـدما يكون هنـاك ضباب ومطـر ، إنه يحمل معــه شيئـًا من الطقس الإنجليـزي ، ولا يسعده شيء قـدر استطاعته الجلوس في الشتاء إلى نار صغيرة ، يتحدث ، تنسال ذكرياته واحدة بعد الأخرى من ذهنه الذي يشبه آلة تالفة حتى يختلط الأمر عليه فلا يتبين أيها تخصـه هو . وأرى من خلفه أمواج الأطلنطى الطـويلة الرمادية تطوى المحيط ، وتحيط بذكرياتــه تحاصرها ، تخنقها في الرزاز ، تعميه فلا يـرى . وهو عندما يتحدث ، وكأن وسائل الاتصال ضعيفة بـالفعل ، والجو غير موات للإرسال . لقد تجمـد الرجـال العشرة الذين ركبـوا النهر في « داوســون » وماتــوا . هبط الشتاء عليهم كالمطرقة ، وأصـابهم الويسكي والذهب والقتل بفقدان الإحساس ـ إنها حرب تشبه الحرب الصليبية ، إنها تجرى في الشمال في بلاد الأخشاب . في ذلك الوقت سقــط أخوه في شلالات أوغنـدا ، لقد رآه في حلمــه ، رأى جسده الصغير للغاية وهو يسقط كذبابـة وللحال داعبته مخالب المياه الصفراء. كلا : لقد حدث ذلك فيما بعد عندما كان يحاول جاهدًا أن يتذكر متى حدث هذا الأمر بالضبط ، وقـد أسقط رأسه المصقولـة بين راحتيه ، غير أن الأمواج الرمـادية تتداخل وتحمي التيارات العالية الحاجز القائم بينه وبين ذاكرته دون عناء . لذا كانت تصلنى كلمة العاصفة بدلاً من كلمة القرصان وتبدو جمجمته وكأنها قد

امتصت واعتصرت حتى لم يبق منها غير فاصل رقيق من الجلد يفصل بين ابتسامته وابتسامة الجمجمة المختفية أسفل الجلد . خذ بالك من جمجمته بمعالمها الواضحة : الفروع العظمية داخل أصابعه الشمعية : القضبان الشحمية التي تسند قصبتي ساقيه المرتعشتين .... إن « سكوبى » العجوز كما لاحظت « كليا » ، يشبه بحق آله .. صغيرة قديمة تستخدم في إجراء التجارب وقد تركت من القرن الماضى ، شيء ودود يثير العواطف مثله في ذلك مثل أول صاروخ ناري أخترعه « ستيفنسون » .

إنه يعيش كناسك في الطابق الأعلى المنحدر بعض الشيء . و « ناسك » تلك واحدة أخرى من مأثوراته ، إنه يطقطق ـــ عندما ينطق بها ـــ أصابعه وهو يضغطها بطريقة فظة إلى خده ، تاركًا عينه الدوارة تشير إلى كل ما انغمس فيه سرًّا من علاقات نسائية ، إنه يتصرف على هذا النحو من أجل خاطر « كليا » ، ففي حضرة « سيدة كاملة » مثلها يحس بضرورة التلون بالشكل الذي يستره ، وسرعان ما يلقي هذا القناع جانبًا لحظة أن تغادر . غير أن الحقيقة أكثر مدعاة للحزن . إنه يعترف لي في صوت خفيض : « لقد قمت على الوجه الأكمل ، بعمل ضابط الكشافة في فرقة « هاكني » . كان ذلك بعد أن سرحت بسبب ضعفي . غير أنه كان عليَّ أن أبقى خارج « إنجلترا » أيها الصبي العجوز . كان الضغط هناك أكثر مما أحتمل . كنت أتوقع كل أسبوع أن أرى عنوانًا رئيسيًا في جريدة نيوز أوف ذى ورلد « أخبار العالم » يقول ، شاب آخر يقع ضحية النزوات القذرة لضابط الكشافة .

لم تكن الأمور في « هاكني » تهمنى كثيرًا . كان صبيتي مهرة في صناعة الأدوات الخشبية بطريقة يدوية . كانوا ، كما تعودت أن أدعوهم ، صغارًا يتمتعون بالأناقة والرشاقة . ولقد سجن ضابط الكشافة الذي كان من قبلى عشرين عامًا . وهذا أمر كاف يثير الريب في نفسي . فمثل تلك الأشياء تدعوك للتفكير . وكيفما كان الأمر فإنني لم أستطع الاستقرار في « هاكنى » . خد بالك ،

تذكـر لقد تخطيت الآن كل شيء ، إلا أنني أحب أن أكـون هادئ البال ـــ كما هو الحال الآن بالضبط . وعلى نحو ما فـإن المرء لم يعد يحس بالحرية في إنجلترا ، انظر الطريقة التي يخلعون بها القساوسة ، رجال الدين المحترمين . لقد اعتدت أن أرقد يقظًا أفكر في قلق .

وأخيرًا غادرت إنجلترا إلى الخارج بصفتي « حامل بـوق » خاص . فقد كان «توبى مانرينج » ، وهو ابن عضو في البرلمان ، يبحث عن ذريعة للسفر . فقالوا إنه يجب أن يكـون لديه حـامل بوق كان يـريد الالتحـاق بالبحريـة . هذه هي الطريقـة التي حضرت بها إلى هنا . وللحال رأيت أن الحيـاة هنا ظريفـة سهلة وبلا قيود .

وحصلت للفور على وظيفـة في فرقة مكـافحة الرذيلة تحت قيـادة « نمرود باشا » . وها أنذا أيها الولد العزيـز ، لا أشكو كما ترى . وماذا أرى عندما انظر من شرق هـذه الدلتـا الخصبة إلى غـر بها ؟ السمر الصغـار الملائكيين يغطون الأرض ميلا بعد ميل » .

كانت الحكومـة المصرية، بكرمها النمـوذجي الخيالي والذي تغدقـه تبذيرًا شرقيًّا على أى أجنبي يبدي قليلاً من الود والصداقة ، قد قدمت له سبيلاً للعيش في « الإسكندريـة » . ويقال إن الـرذيلة قد بلغـت بعد تعيينه في فـرقة مكـافحة الرذيلـة حدًّا هائلاً ، حتى وجد أنـه من الضروري ترقيته ونقله ، غير أنـه كان يؤكـد على الدوام أن نقلـه للعمل بفرع البـوليس الخاص بدائرة المبـاحث كان تـرقية يستحقهـا ـ وأنـا من نـاحيتي لم تكن لـدى الشجاعـة لأغيظه في هـذا الموضوع . لم يكن عمله شاقًّا .

فهو يعمل لمدة ساعتين في حجرة آيلة للسقوط في الجزء العلوي من المدينة ، تحوطه البراغيث التي تقفز من خشب مكتبه المتعفن القـديم الطراز . إنه يتغذى غذاء متواضعًا في « اللوتيشيا » ، ويشـتري لنفسـه إذا ما سمحت نقوده بالشراء تفاحة وزجاجة من البراندي لوجبة المساء . إنه يقضي عصاري الصيف الطويلة

القاسية في النوم ، وتصفح الجرائد التي يستعيرها من بائع جرائد يوناني يكن له الـود ، (وبينما يقرأ يرق النبض في أعلى جمجمتـه ويهدأ) . إن بلوغ الكمال هو كل شيء في الحياة .

ويكشف تأثيث غـرفتـه الصغيرة عن روح عـالية القـدرة على الاختيـار ، فالأشياء القليلة التي تزين حياة الناسك تحمل رائحته الخاصة على نحو حاد ، وكأنها معًا تشكل شخصية مالكها . ولهذا السبب تعطي الصورة التي رسمتها له « كليـا » إحساسـًا بالشمول ، فقـد رسمت في خلفيتها كل ممتلكـات الرجل العجوز : مثلاً ، الصليب الصغير الذي تغطيه القذراة والمعلق فوق الحائط خلف السرير ، مع أنه قد مضت بضع سنوات منـذ تلقى « سكوبي » مواساة كنيسة الـروم المقدسـة وتعـزيـاتها له لمواجهـة الشيخـوخة ولمواجهـة تلك المثـالب الشخصية التي غدت الآن طبيعـة ثانية له . وبالقرب من الصليب تـوجد هناك صورة صغيرة ملـونة « للمونـاليزا » والتي كانت ابتسامتهـا الغامضة تـذكر «سكوبي » بأمه (أمـا من ناحيتى فإن الابتسامـة الشهيرة تبدو لي على الدوام ابتسامـة إمرأة تناولت غذاءهـا لتوها بعيدًا عن زوجهـا) . ومع ذلك فإن هذه أيضًا قد دمجت نفسهـا على نحو ما في وجود « سكوبى » ، وأقامت معـه علاقة خاصة وسرية . وكأن « موناليزا » التي تخصه لا تشبه أية واحدة أخرى ، إنها هاربة من « ليوناردو » .

ثم هناك بـالتأكيد حامل الكعك الذي يستخـدمه « ككومودينـو » ، وحقيبة كتب ودرج للكتـابة في نفس الـوقت . ولقد منحتـه « كليا » كل مـا يستحق من معاملة حانية ، فرسمته بأمانة دقيقة . ويتكون هذا الحامل من أربع طبقات كل منها محاطة بحافة مائلـة ضيقة غير أنها أنيقة . لقد اشتراه بتسعة بنسات من شـارع « بوستون » عام ١٩١١ ، ولف معه حول العالم مرتين . إن « سكوبى » سيساعـدك بنفسه على أن تعجـب به دون أن يتعمد ذلـك أو يبدو عليـه أى أثر للمزاح . سيقول لك وهو يتناول قطعة من القماش ينفض بها التراب عنه : « إنه

شيء صغير جذاب أليس كذلك ؟ » وسيشرح لك في عناية أن الطبقة العليا قد صممت خصيصًا من أجل الخبز المحمر المدهون بالزبد ، والطبقة الوسطى من أجل الفطائر ، والسفلى من أجل « نوعين من الكعك » . ومع ذلك فإنها الآن تفى بأغراض أخرى . فعلى الرف العلوى يرقد المنظار المكبر والبوصلة والإنجيل ، وعلى الرف الأوسط توجد مراسلاته التي تتكون من ظروف خطابات معاش التقاعد ، وعلى الرف الأسفل ترقد في وقار مهيب مبولة يشير إليها دائماً باعتبار أنها « المتاع المنقول الموروث » ، والتي تقترن بها قصة غامضة سوف يستودعني إياها يومًا ما .

ويضيء حجرته مصباح كهربى ضعيف ، وحزمة من شعلات الزيت القائمة في مشكاة والموضوعة على « زلعة » فخارية مليئة بماء الشرب البارد . ويطل شباك حجرته الوحيد الخالى من الستائر على حائط طيني قاتم تساقطت قشرته كما أنه يحجب كل شيء . إنه يذكرني وهو راقد في السرير ووميض أنوار الليل الباهتة في لون الدخان تنعكس على زجاج بوصلته ـ يذكرني وهو راقد في السرير بعد منتصف الليل والبراندي ينبض في جمجمته بكعكة زواج قديمة ، في انتظار من ينحني فوقها ويطفئ شمعاتها .

إن آخر تعليقاته في الليل ، بعد أن يضعه المرء في السرير ويطمئن عليه ويحشر حوله الغطاء عدا عبارته السوقية « قبلني في عنف » والتي يصحبها على الدوام بطرقعة وغمزة من خده ـ إن آخر تعليقاته أن يقول بطريقة أكثر جدية : « أصدقني القول ، هل أبدو في حدود عمري ؟ » .

وفي صراحة فإن « سكوبى » يبدو مناسبًا لجميع الأعمار ، إنه أسن من ميلاد المأساة وأصبى من الموت الأثينى . ولد في فلك « نوح » حصيلة لقاء وقران عابر بين الدب والنعامة ، ولد قبل ميعاده من صيحة السأم التي تشبه قباع الخنزير والتي أطلقها قاع السفينة وهو يحط على « جبل أرارات » . وقد خرج « سكوبي » من الرحم على كرسي ذى عجلات إطاراتها من المطاط ،

مرتديًا قماطًا من جلد الغزال ولفة من الصوف الأحمر . يغطى أصابع قدميه القابضة ألمع زوج من الأحذية ذات الرقبة المرنة الجوانب . يحمل في يده إنجيل العائلة المهترئ وقد كتب على صفحته الأولى « يشوع صموئيل سكوبى ١٨٧٠. أكرم أباك وأمك » . وقد أضيفت إلى تلك الممتلكات عينان كقمرين ميتين ، تقوس واضح في العمود الفقرى لهذا القرصان ، وحاسة ذوق للسفن القديمة . لم يكن ما يجري في عروقه دمًا ولكن ماء أخضر مالح ، من قاع البحر . مشيته دحرجة بطيئة عسيرة تطحن ما تحتها كقديس يسير في الجليل . حديثه رطانة الماء الأخضر وقد غسل في خمسة محيطات ـ دكان أنتيكات مليئًا بالخرعيلات المهذبة منتفشًا بالمزاول ، أجهزة ملكية ، البروبنيتينات وأجهزة قياس الضغط الجوي . عندما يغني ، وهو غالبًا ما يفعل ذلك فإنه يغني بنفس النبرات التي كان إله البحر العجوز يغنى بها . وكقديس من الأولياء فإنه يترك قطعة من لحمه في كل مكان من العالم ، في « زنجبار » « كولومبو » ، « توجولاند » ، وفي «ووفو » : الشذرات الصغيرة . المتساقطة والتي كان ينثرها منذ زمن طويل ، كقرون قديمة ، وأزرار أكمام القمصان ، الأسنان والشعر .... والآن يتركه المد المنحسر عاليًا وجافًّا فوق أمواج الزمن التي تنطلق في سرعة ، « يشوع » المفلس رجل الأنواء ، ساكن الجزيرة ، الناسك .

* * *

إن « كليا » ، « كليا » الرقيقة المحبوبة والتي لا يمكن معرفة ما في أعماقها هي أعظم صديق « لسكوبى » ، إنها تقضى الكثير من وقتها مع القرصان العجوز ، تهجر مرسمها الذي يشبه عش العنكبوت لتصنع له الشاى وتستمتع بالإصغاء إلى ذلك المونولوج الذي لا ينتهى عن حياة تقهقرت منذ أمد بعيد ، فقدت دافعها الجوهرى ، لتعيش عوضًا عن ذلك في متاهات الذاكرة .

أما عن « كليا » نفسها : إنني أتساءل إذا ما كان خيالي وحده هو الذي يجعل رسم صورتها يبدو لى وكأنه أمر عسير للغاية ؟ إنني أفكر فيها كثيرًا جدًّا ـ

ومع ذلك فإنني أرى كم راوغت في كل ماكتبت من التعـرض لها بشكل مباشر . ربما تكمن الصعوبـة هنا : في أنه لا تـوجد كما يبـدو علاقة سهلـة بين عاداتها ومـزاجها الحقيقي . وإن كـان على أن أصف بنيـان حياتها الخارجي ــ وهي البسيطة إلى حـد يجرد المرء من غضبه ، فهي رشيقة تتحكم في ذاتها ـــ فهنالك خطر حقيقي في أن تبدو إمـا كراهبة أخلت مجال النزوات الإنسـانية كله ليحل محله استغـراق في البحث عن ذاتها التي لا تعرف الخوف . وإما كعـذراء خاب أملها وانطوت على نفسها ، وقد حـرمت نفسها من العالم بسبب نوع من الخلل العقلي أو بسبب جرح قديم لا يرجى له التئام .

إن كل شيء يحوط شخصهـا ذهبي في لـون العسل ؛ دافئ النغم ، شعـرهـا الأشقر المقصـوص والمسوى بطريقة مجعـدة تتركه ينساب قليلاً على ظهـرها وقـد عقصتـه عند أسفل العنق ، ممـا يبرز الـوجـه الصادق لعـروس الشعـر الصغيرة بعينيها الـرماديتين الخضراوين المبتسمتين . إن في يـديها المطبوعتين على الهدوء حذقًا وجمالاً لا يمكن للمرء أن يلحظهما إلا عنـد يراها وهي تعمل ، ربما وهي تمسك بفرشاة الرسم أو وهي تجبر ساق عصفور مكسورة بجبيرة مصنوعة من عيدان الكبريت .

إنني أستطيع القول إنها قد صبت ، وهي ما تزال دافئـة ، في جسد الرشاقة صبيـة : أي في جسد ولـد بـلا غـرائز ولا شهوات . أن تحوز الجمال الـرائع ، وتملك مـا يكفي من المال لتبنى حيـاة مستقلـة وأن تكـون حـاذقـة ، تلك هي العوامل التي أغرت الحساد وضعاف النفوس إلى اعتبارها محظوظة دون وجه حق . غير أن من ينتقدونها ويـراقبونها يتسـاءلون عن السبب الـذي من أجله حرمت نفسها من الزواج ؟

إنها تعيش حياة متـواضعة رغم أنها ليست حياة بائسـة ، تقطن في مرسم مريح يوجد في أعلى طابق بالبناء ، مؤسس بسرير حديدي صغير وعدد قليل من كراسي الشـاطئ البالية والتي تنقل بكـاملها إلى كابينتهـا الصغيرة في « سيدي

بشر » . أما الشيء الكمالى الوحيد لديها ، فهو حمام مبلط بالقيشانى البراق ، وضعت في أحد أركانه موقدًا صغيرًا لتغطيه بأى طبيخ تحس ميلا نحو طهيه لنفسها ، ومكتبة تدل أرضها المكتظة على أنها لا تبخل عليها بشيء .

إنها تعيش بلا عشاق ولا روابط عائلية ، بلا أحقاد ولا حيوانات مدللة ، مركزة كل اهتمامها على ما تقوم به من أعمال الرسم التي تأخذها مأخذ الجد ، غير أنها لا تبالغ في تلك الجدية . وهي محظوظة أيضًا في عملها ، فتلك اللوحات الجسورة الظريفة تشع لطفًا ومرحًا . إنها مليئة بروح المداعبة ـ إنها كأطفال محبوبين غاية الحب .

ولكنني أرى أنني قد تكلمت عنها سخفًا . باعتبار أنها « تحرم نفسها من الزواج » . كم سيثير هذا القول غضبها ، إنني أتذكرها وهي تقول ذات مرة : «إذا أردت أن نظل صديقين فعليك ألا تفكر أو تتكلم عنى كامرأة تحرم نفسها من أى شيء في الحياة . إن وحدتى لا تجردنى من أى شيء ، كما أنى لست مؤهلة لأى شيء غير ما أنا عليه . إنني أودك أن ترى مقدار نجاحي ولا تتخيلني مليئة بأنواع الفشل الداخلية . أما عن الحب ذاته ـــ يا صديقى العزيز ـ فلقد أخبرتك من ذى قبل بأنه لا يعنيني إلا قليلاً جدًّا ـ ويعنيني الرجال بدرجة أقل من ذلك . إن التجارب القليلة ، وفي الحقيقة التجربة الوحيدة ، التي أثرت في نفسي كانت تجربة مارستها مع امرأة . ومازلت أعيش في سعادة تلك العلاقة التي أنجزت على الوجه الأكمل ، وأى بديل جسدى لهذا الذي أحسه يبدو لي اليوم سوقيًّا وفارغًا إلى درجة بشعة . ولكن لا تظن أنني أعانى أى مظهر من مظاهر الموضة الحديثة عن القلوب المحطمة . كلا . إنني أحس على نحو يثير الضحك بأن حبنا قد ربح حقًّا بخلاصه من المحبوب ، إذ يبدو الأمر وكأن الجسد كان يقف بصورة ما في طريق النمو الحقيقي للحب ، في طريق استيعابه وإدراكه لذاته . هل يبدو قولى هذا مفجعًا ؟ » وضحكت .

كنا ، كما أتذكر ، نسير في الخريف على الكورنيش الذي غسلته الأمطار تحت سماء معتمة هلالية ملبدة بالغيوم ، عندما وضعت ذراعها في ذراعي بطريقة ودودة ، بينما أخذت تتكلم ، وابتسمت لى في حنان حتى أن العابر بنا لا يلام إذا ما ظن أننا عاشقان .

وتابعت حديثها : « إن هناك شيئًا آخر قد تكتشفه من تلقاء نفسك ، شيئًا عن الحب ـ لا أقول معيبًا ، فالعيب يرقد في أعماقنا نحن ، ولكنه شيء أخطأنا فهم طبيعته . فحبك الذي تحسه الآن ، مثلاً ، نحو « جوستين » ليس حبًا مختلفًا لشيء مختلف ، إنه نفس الحب الذي تكنه « لميليسا » : يحاول التعبير عن نفسه خلال « جوستين » . والحب شيء ثابت بقدر هائل وليس مخصصًا لكل منا ، إلا جزء منه ، نصيب ما . إنه قادر على الظهور في صور لا نهاية لها والارتباط بأناس لا حصر لهم . إلا أن كميته محدودة ويمكن استهلاكه ، فيغدو بضاعة بائرة ويذبل قبل أن يؤتى مفعوله الحقيقي . إن غاية الحب ترقد في مكان ما في أعمق أجزاء النفس حيث يمكن التعرف عليها باسم حب الذات ، تلك الأرض التي قام عليها نوع من سلامة النفس ، إنني لا أعنى بذلك الأنانية أو النرجسية » .

لقد كانت مثل تلك الأحاديث هي التي قربتني في بادئ الأمر من « كليا » . أحاديث كانت تستمر في بعض الأحيان حتى الهزيع الأخير من الليل ـ أحاديث علمتني بأنه في وسعي أن أعتمد على القوة التي استمدتها هي من التأمل ومعرفة الإنسان بذاته . إن صداقتنا قد جعلتنا قادرين على أن نتبادل أفكارنا وآراءنا الخاصة ، وأن تأثيرها على كل منا بطريقة كان يستحيل اللجوء إليها لو كنا أكثر ارتباطًا بقيود تفرق ، وياله من تناقض ظاهرى ، بصورة أعمق مما تجمع . رغم أن الوهم البشرى يمنعنا من تصديق ذلك . إنني أتذكرها تقول ذات مرة عندما نوهت لها عن تلك الحقيقة : « إنه لحق أنني أقرب من بعض النواحى ، أقرب إليك من كل من « ميليسا » و « جوستين » . أنت تعرف أن حب

الجـزء الثالث

كانت رياح الخماسين في ذلك الربيع الثاني لوجودى في « الإسكندرية » ، أسوأ مما عرفتها من قبل أو من بعد . فقد تلونت سماء الصحراء قبل شروق الشمس باللون البنى الذي يشبه لون ثياب خشنة منشاة ، ثم أخذت تعتم في بطء وهي تنتفخ ككدمة وتحدد على الأقل ملامح السحب ، غانيات عملاقة من اللون الأصفر ، تكومت من الدلتا مثل كثبان من الرماد تحت بركان . المدينة أحكمت إغلاق منافذها ، وكأنها تواجه ريحًا عاصفة . لفحات قليلة من الهواء ومثلها من مطر ثقيل هي نذر الظلام الذي يمحو ضوء السماء . والآن يغزو الرمل كل شيء دون أن يُرى في ظلام الحجرات الموصدة النوافذ ويظهر كما ، لو كان بفعل السحر ، في الملابس المصانة منذ أمد بعيد ، في الكتب والصور وملاعق الشاى ، في أقفال الأبواب وتحت الأظافر . الهواء القاسي اللاهث ييبس أغشية الحلوق والأنوف ، ويجعل العينين تدمعان بصورة متصلة . سحب في لون الدم الجاف تقطع الشوارع كالنبوءات ، وتستقر الرمال في البحر كما يستقر مسحوق في خصلات شعر مستعاربال . أقلام الحبر غَصَّت ، والشفاه جفت ــ وكومة بيضاء رقيقة وكأنما هي ثلج حديث التكوين تغطى اردواز النوافذ البندقية الطراز . والفلوكة التي تشبه الأطياف تعبر القناة تبحر بها غيلان معصوبة الرؤوس . ومن حين لآخر تهبط من السماء مباشرة ريح تطرقع تثير المدينة كلها فتدور وتدور حتى يخيل للمرء أن كل شيء ، الأشجار والمنائر ، النصب التذكارية والناس ، قد وقعت في قاع دوامة هائلة وأنها سترجع في رفق في النهاية إلى الصحراء التي نبت منها الجميع عائدين مرة أخرى إلى أرض الكثبان المجهولة التي نحتتها الأمواج ...

لا أستطيع أن أنكر أن كلانا تملكه في ذلك الوقت إرهاق روحى جعلنا

يائسين طائشين ، نتعجل انكشاف أمرنا . فالإثم يهرع دائماً نحو تتمته ، نحو جزائه : فهنالك فقط تكمن راحته . وسيطرت على حماقة « جوستين » التي كانت تفوق حماقتى رغبة خفية في التكفير ، أو ربما انتاب كلانا ونحن مقيدين ذراعًا وساقًا إلى بعضنا البعض شعورًا مبهماً بأن هزة ما يمكن أن تعيد كلانا إلى صوابه ـ كانت تلك الأيام مليئة بالنذر والتحذيرات التي كان يقتات عليها قلقنا .

أخبرنى « حميد » الأعور ذات يوم أن زائرًا غامضًا أخبره أن يسهر على حماية سيده ، حيث إن شخصية عالية المكانة تتهدده بخطر كبير . وكان وصفه للرجل ينطبق على « سليم » ، سكرتير « نسيم » : إلا أنه ينطبق كذلك على أيّ من الـ ٥٠,٠٠٠ الذين يسكنون الإقليم . وفي تلك الأثناء كان موقف « نسيم » حيالى قد تغير ، أو بالأحرى قد عمق إلى عذوبة غامرة يشوبها القلق . لقد ألقى بتحفظه السابق جانبًا . وأخذ عندما يتكلم إلىّ يستخدم عبارات تودد غير مألوفة . كان يمسكنى من كمي في محبة . وأحيانًا بينما نتكلم كان يتورد وجهه من الخجل فجأة : أو تغرورق عيناه بالدموع فيدير رأسه ليخفيها . وكانت «جوستين » ترقب هذا باهتمام من المؤلم أن تلحظه . غير أن الذل وتأنيب الضمير الذي كنا نحسه لأننا أسأنا إليه كان يقربنا أكثر فأكثر كشريكين في الذنب . وتكلمت «جوستين » في بعض الأحيان عن الرحيل ، وفعلت أنا بالمثل في أحيان أخرى . غير أن أحدًا منا لم يكن في وسعه أن يتحرك . كنا مجبرين على انتظار النتيجة في تسليم ونفاذ صبر كانا في الحقيقة تجربة مخيفة .

ولم تقلل هذه التحذيرات من حماقاتنا ، بل ضاعفتها . وساد أفعالنا استهتار مخيف ، وتميز سلوكنا بالطيش المفزع . لم يكن لنا حتى أن نأمل (وهنا أدركت أنى قد أضعت نفسي تمامًا) في تجنب ما أعده لنا القدر . لم يكن يعنينا لحماقتنا سوى خوفنا ألا نتمكن من اقتسام قدرنا سويًّا ـــ خوفنا أن يفرقنا عن بعضنا البعض . وأدركت من خلال هذا التلمس الواضح

للاستشهاد أننا قد أظهرنا حبنا وهو في أشد حالاته فراغًا وقصورًا . قالت «جوستين » ذات مرة : « لابد أنني أبدو لك مقززة بما أقول من خليط قبيح من الافكار المتعارضة: كل هذا الاهتمام السقيم بالله وعجز كامل عن طاعة أبسط وأعز خلقي صادر عن طبيعتي الداخلية.كأن أكون مثلاً وفية لرجل واحد أحبه لدرجة العبادة . إنني أرتجف يا عزيزى إشفاقًا على نفسي . إنني أرتجف . كم أود لو كان في استطاعتي أن أنجو من تلك الشخصية التقليدية المتعبة لليهودية المختلة الأعصاب . لو كان في وسعي أن أنزعها عن نفسي » .

خلال تلك الشهور ، بينما كانت « ميليسا » تستشفي في فلسطين (وكنت قد استدنت المال اللازم من « جوستين » حتى تتمكن « ميليسا » من السفر) أفلتنا من عدة مآزق . فمثلاً كنت ذات يوم أتحدث أنا و « جوستين » في حجرة النوم الكبيرة بالمنزل . كنا قد عدنا من الاستحمام بالشاطئ وكنا قد أخذنا دشًا باردًا كي نزيل الملح من على أجسادنا . وجلست « جوستين » فوق السرير عارية تحت بشكير الحمام الذي لفته حولها في رشاقة كرداء يوناني الطراز . وكان «نسيم» في القاهرة حيث كان مفروضًا أن يقدم حديثًا في المذياع نيابة عن جمعية خيرية أو ما شابه ذلك ، وخارج النافذة كانت الأشجار تميل بأوراقها المتربة في جو الصيف الرطب . بينما كان من الممكن سماع ضجيج حركة المرور الخافتة في «شارع فؤاد » .

وجاءنا صوت « نسيم » الهادئ من المذياع الصغير الأسود الموجود قرب الفراش ، وقد حوله مكبر الصوت إلى صوت رجل شاخ قبل أوانه . وعاشت العبارات الخالية من أى فكرة في الصمت الذي غزته حتى بدا الجو وكأنه قد ازدحم بالتفاهات . غير أن الصوت كان جميلاً ، كان صوت رجل أحكم عزل نفسه عن أية مشاعر . وكان باب الحمام خلف ظهر « جوستين » مفتوحًا . وخلفه يوجد باب به لوح زجاجي أبيض بياض العيادات الطبية يؤدى إلى سلم حديدى يستخدم للنجاة عند الحريق ـ فقد كان بناء المنزل مصمم حول بئر

تتوسط المكـان حتى يمكن ربط حجرات الحمام والمطابخ بشبكـة من السلالم الحديدية كتلك التي تمتـد في غرفة الآلات بالسفينـة . وفجأة ، بينما الصوت ما زال يتكلم وبينما نصغى نحن إليه وصلت أسماعنا خطى خفيفـة شابة سريعة تصعد السلم الحديدى خارج الحمام : خطوة « نسيم و التي لا يخطئها السمع. أو خطوة أىٍّ من الخمسين ألفًا الذين يقطنون الإقليم . ورأيت عندما نظرت من فوق كتف « جوستين » ، رأس وكتفى رجل نحيل ، يرتدى قبعة طرية من اللباد مشدودة إلى عينه ، تظهـر فوق زجاج الباب الأبيض . كـانت تتضح معالمه مثل صورة تطبع في وعاء التحميض . وتوقف الشبح وقد مد يده إلى مقبض الباب . وأدارت « جوستين » رأسهـا عندمـا رأت اتجاه نظرتى . ووضعـت ذراعا عارية حـول كتفى ، بينما أخذ كلانا يرقب ـ في هـدوء كامل يخفق كالقلب بشعور من الإثـارة الجنسية المحمومـة العاجزة ـــ الشبح المعتم الواقف هناك بين عالمين وقـد تحددت معالمه كأنما على شـاشة أشعـة « إكس » ، وعلى وجهينا ارتسم شعور بالبراءة لا شعور بالخوف .

ووقف الشبح هناك لفترة طويلة ، كأنما يفكر بعمق ، وربما كان يتصنت إلى شيء ما . ثم هز رأسه في بطء مرة واحـدة ، وبعد لحظة استدار وقد لاحت عليه الحيرة ثم بدأ يذوب في بطء من فوق الزجـاج . وبينما يستدير بدا وكأنه يضـع شيئًا في جيب سترته الأيمن . وسمعنا خطاه تتـلاشي بطيئة ـ كسلم من الأنغام الهابطة الرديئة ـ فوق سلم البئـر الحديدى . ولم يتفوه أىٌّ منا . فقط استدرنا وبتركيز عميق إلى المذياع الصغير الأسود الذي ينساب منه صوت « نسيم » ، في دماثة ورقة متصلتين . وبدا أنه من المستحيل أن يوجد في مكانين في وقت واحد. ولم ندرك حقيقـة الأمر إلا بعـد أن أوضح لنا المذيع أن الحديث قـد سجل من قبل. لماذا لم يفتح الباب ؟

الحقيقة أنه كان قـد وقع في قبضة دوامة الشك التي تتبع قرارًا اتخذ للعمل على ضوئه ، عند من كانت طبيعتهم مسالمة . فطوال ذلك الوقت كان هنالك شيء

ينمو في داخله حبة فحبة ، حتى غدا وزنه فوق ما يحتمل . كان متنبهًا إلى أن تغييرًا في طبيعته يتم في أعماقه وأن هذا التغيير ينفض عنه أخيرًا ذلك الشلل الطويل ، شلل الحب العاجز الذي كان يسيطر على أفعاله . وألحت عليه كشيء طريف مخدر فكرة عمل محدد مفاجئ ، عمل يحسم الأمر إن خيرًا وإن شرًّا وأحس (كما أخبرني فيما بعد) أنه كمقامر يوشك أن يجازف في ضربة واحدة يائسة بالبقايا التافهة لثروة مفقودة . إلا أنه لم يكن قد استقر بعد على طبيعة هذا العمل . ما الشكل الذي يتخذه ؟ وتفجرت في داخله كومة من النزوات المضطربة .

وبلغ تياران رئيسيان من تيارات هذه الرغبة مصبهما ، نهايتهما ، يستحثانه على العمل . فمن ناحية بلغ دوسيه المعلومات الذي جمعه له عملاؤه عن « جوستين » حجماً لا يمكن التغاضي عنه ، وتملكته من الناحية الأخرى فكرة جديدة ومخيفة فكرة لم تطرأ على باله من قبل ـ إن « جوستين » قد وقعت في الحب أخيرًا . لقد بدا أن مزاج شخصيتها العام يتغير ، وأنها قد غدت للمرة الأولى ، متأملة ، مفكرة ، تفيض عذوبة من تلك العذوبة التي في وسع المرأة أن تمنحها للرجل الذي لا تحبه . « ونسيم » أيضـًا ، كما ترى ، كان يتعقب خطاها من خلال صفحات كتاب « الأرناؤوطي » .

« كنت أعتقد في بادئ الأمر أنه يجب السماح لها بأن تقاتل خلال دغل الحائل متجهة نحوى . وعندما كانت تلح عليَّ فكرة خيانتها الموجعة كنت أذكر نفسي بأنها ليست امرأة ممن يبحثن عن اللذة ، ولكنها امرأة تتصيد الألم في بحثها عن نفسها ـ وعني . واعتقدت أنه لو تمكن رجل واحد من تحريرها من نفسها فإنها ستصبح في متناول جميع الرجال ، وكذلك أنا أولى الناس بها . غير أن فكرة فظيعة طرأت على بالي ، عندما رأيتها تذوب مثل غطاء من الثلج : وهي أن الرجل الذي سيحطم الحائل سيحتفظ بها إلى الأبد ، حيث إن الراحة التي أعطاها لها بالتحديد هي الشيء الذي كانت تبحث عنه في جنون خلال أجسادنا

ومصائرنا . وللمرة الأولى سيطرت عليَّ مشاعر الغيرة التي كان يغذيها خوف».

ولقد بدا غريبًا لي أن تصيب الغيرة « نسيم» على الدوام وحتى الآن من كل شخص ما عدا الشخص الحقيقي الذي يسطر حاضر « جوستين » ـ منى أنا . ورغم كومة الأدلة الغامرة إلا أنه لم يجرؤ على السماح لنفسه بالشك في . ليس الحب هو الأعمى ، ولكن الغيرة هي العمياء . لقد مضي وقت طويل قبل أن يتمكن من ترويض نفسه على أن يثق في كومة المستندات والأدلة التي جمعها له عملاؤه عنا ، عن لقاءاتنا ، وتصرفاتنا . غير أن الحقائق فرضت نفسها الآن بصورة واضحة لا يحتمل معها الخطأ . وغدا السؤال كيف السبيل إلى التخلص منى ــ « إنني لا أبالى بالجسد كثيرًا : لقد غدوت مجرد خيال يحجب عنى الضياء . ربما كنت أراك تموت ، أو تذهب بعيدًا . لم أكن أدرى . كان عدم اليقين ذاته مثيرًا إلى حد السكرة » .

غير أنه جنبًا إلى جنب مع تلك المشاغل ، كانت هنالك مشاغل أخرى ـ المشاكل التي انبعثت عند « الأرناؤوطى » والتي عجز عن حلها والتي كان يتابعها « نسيم » على مدى سنتين بفضول شرقي أصيل . لقد غدا الآن قريبًا من الرجل ذى العصابة السوداء على عينيه ـ أقرب إليه من أى منا في أى وقت . هنا كان في حوزته جزء آخر من المعرفة لم يكن قد قرر بعد أفضل السبل للإفادة منه . وإذا كانت « جوستين » تخلص نفسها بالفعل منه ، فما الفائدة إذن من أن ينتقم لنفسه من الشخص الحقيقي لذلك الكائن الغامض ؟ ومن الناحية الأخرى ما الحل إذا كنت أنا على وشك أن أحتل المكان الذي خلا بزوال هذا الشبح ؟

ولقد سألت « سليم » صراحة إذا ما كان قد زار شقتى ليحذر « حميد » الأعور . غير أنه لم يجب ، أحنى رأسه وقال في صعوبة : « إن سيدى على غير طبيعته في تلك الأيام » .

وفي تلك الأثناء اتخذت أقدارى طريقًا غير معقول ولا متوقع . فقد سمعت

ذات ليلـة طرقـات مدويـة على باب شقتـى وفتحت الباب ليـدخل منه ضـابط مصرى من ضباط الجيش أنيق الهيئة يرتدى حـذاء متألقًا وطربوشًا . ويحمل تحت إبطه منشة صـخمة ذات مقبض من الأبنوس وكان « يوسف بك » يتحدث بلغة إنجليـزية سليمة ، تنثـال من شفتيه في سهولـة ، كلمة بعد أخـرى منتقاة بعنـاية ، من وجـه جاد أسـود كـالفحم به أسنـان ممتازة صغيرة ذات سنـاء كحبات اللـؤلؤ . كان يتمتع بـالوقار المحبـب لبطيخة ناطقـة قادمة لتـوها من «كامبريدج » . وقـدم له « حميد » القهوة المعتادة ومشروب كحـولى حلو لزج ، وأثناء تناوله للمشروبات أخبرنى أن صديقـًا كبيرًا لي يحتل مركزاً عاليًا يود أن يرانى بإلحاح . وللحال اتجهت أفكارى إلى « نسيم » ، غير أن هذا الصديق ، كما زعم البطيخة كان ضابطًا إنجليزيًّا . وأنه ليس في وسعه أن يقول أكثر من هذا . كانت مهمته سرية . هل أذهب معه وأزور صديقي ؟

كـانت تملأنى الشكوك والـريب « فالإسكنـدرية » التي تبـدو من الخارج مسالمة ، لم تكن في الحقيقـة مكانًا مأمونـًا للمسيحيين ، ففي الأسبوع الماضى فقط ، جاء « بـومبال » إلى المنـزل يحكي قصة نـائب القنصل السويـدى الذي أصيبت سيارته بعطب على طريق مطروح . كان قد ترك زوجته بمفردها بينما اتجه هو إلى أقرب تليفون ليتصل بالقنصلية ويطلب منها إرسال سيارة أخرى. وعـاد ليجدهـا تجلس في المقعد الخلفي بطـريقـة طبيعية ـــ جسدًا بـلا رأس . واستـدعى البـوليس وفتشت المنطقـة كلهـا بدقـة . وكـان بين الـذين يجرى استجوابهم بعض البدو الذين يقيمون في مخيم قـرب هذا المكان . وبينما كانوا غارقين في إنكار أى معرفة بالحادث ، تدحرجت الرأس المفقودة من فوطة إحدى النسـاء . كـانـوا يحاولـون اقتـلاع أسنـانها الـذهبيـة والتي . كـانت تعطى لابتسامتها سمـة غير محببة في الحفلات . لم تكن مثل هذه الحادثـة من الندرة بالقدر الذي يجعل المرء يقدم على زيارة الأحيـاء القريبة من المدينة بعد أن يحل الظـلام ، ولذا فقـد تبعت الضـابط دون أى إحسـاس بـالاطمئنان إلى سيـارة

حكومية جلست في مقعدها الخلفي ، خلف سائق يرتدى رداء رسميًا ، ووجدت السيارة تدور بسرعـة نحو أقذر أحياء المدينـة . وأخذ « يوسف بك » يتحسس شاربـه الصغير الأنيق بطريقة من يتوقع شيئًـا كالموسيقي عندما يشـد أوتار آلته . كان من العبث سؤاله المزيد من الأسئلة : ولم أكن أود أن أكشف شيئًا من القلق الذي أعانيه . ولذا فقد استسلمت في دخيلتي للموقف ، وأشعلت سيجارة، وأخذت أراقب شريط الكورنيش الطويل وهو يتلاشى خلفنا . وتوقفت السيارة فهبطنا وقـادنى الضابط سيرًا على الأقدام عبر مجموعـة من الأزقة والحوارى المتشعبة قرب « شـارع الراهبات » . فإذا كان الهدف من إحضـارى هنا هو أن أفقد سيطرتى على نفسي فقد تحقق على الفـور تقريبًا . كان يسير بخطى خفيفة واثقة ، يدندن في صوت خافت . وأخيرًا خرجنا من الشوارع الضيقة إلى شارع في الضواحى ملىء بـالمتاجـر ووقفنا أمـام باب كبير نحتت عليـه بعض النقوش ودفع الضابط البـاب ففتحه بعد أن دق الجرس . ودخلنا إلى سـاحة بها بعض أشجار النخيل العـاجزة عن النمو ، وقـد وضع فانوسـان باهتا الضـوء فوق الحصى على جانبي الممر الذي يقطع تلك المسافـة . وعبرنا الممر وصعدنا بضع درجات حيث كان مصبـاح كهربي ناصع البياض يلقي بنـوره القوى على باب أبيض طويل . وطرق الباب ودخل ورفع يده بـالتحية في حركة واحدة . وتبعته إلى حجرة كبيرة أميل إلى أن تكـون أنيقة ودافئـة وقد زينت أرضيتهـا النظيفة المصقولة سجاجيد عربية جميلة. وفي أحد الأركان جلس «سكوبى » على مكتب عال مطعم يحيط نفسـه بجو من الخيلاء الكـاذبة ، وعلى وجهه تقطيبـة المعتد بنفسه تغطى ابتسـامة الترحيب التي حيـانى بها . وقلت « يا إلـــهى » . وأطلق القرصان العجوز ضحكة مكتومة من ضحكات حارة « دوروری لين » ، وقال : « أخيرًا ، أيها الرجل العجـوز، أخيرًا » . ومع ذلك فإنه لم ينهـض لاستقبالى وظل جالسًا على كرسيه غير المريح ذى المسند العالى ، طربوشه على رأسه ، ومنشته على ركبته يحيط نفسـه بجو يترك في النفس إحسـاسًا بـالغموض . ولا حظت

مزيدًا من النجوم على كتفه . السماء القادرة وحدها تعلم مصدر تلك الزيادة في الرتبة والسلطة . وقـال وهو يشير بيده في حركة ضجرة تشبـه حركة المنشار وتحمل شبهًا ضئيلاً للإيماءات الإمبراطورية : « اجلس أيها الرجل العجوز » . وسمح للضابط بالانصراف فغادر المكان وهـو عابس . وبدا لي أن « سكوبى » لايبدو شديد الارتياح في هذه الأبهة التي تحيط به . كان يحيط نفسه بإطار من الدفـاع عن النفس ، وقال وهو يخفض صوتـه إلى همس مسرحي : « لقد طلبت منهم القبض عليك ، لسبب خـاص للغايـة » . كـان يوجـد على مكتبه عـدد من الملفات الخضراء ، وغطاء براد شاى عديم المنظر بصورة غريبة . وجلست .

نهض « سكوبى » في سرعة وفتح الباب . لم يكن هناك أحد بالخارج ، ففتح النافذة . لم يكن هنـاك أحد يقف عند حافة الشباك . فوضـع غطاء الشاى فوق تليفـون المكتب ثم عـاود الجلـوس . ثم مـال إلى الأمـام ، وبينما كـان يتكلم في حرص، أخذ يفحصنى بعينه الزجاجية بطريقة حادة تآمرية . قال : « ولا كلمة لأى إنسـان ، أيها الـرجـل العجـوز . اقسم أنك لن تتفـوه بكلمـة واحـدة » . وأقسمت. « لقد جعلونى رئيسًا للشرطة السرية » . وصفرت الكلمات من خلال طاقم أسنانه الصناعية بطريقة ظريفة . وأومأت برأسي وأنا في دهشة . وسحب نفسًا عميقًا وكأن عبئًا قد أزيح عن كاهله واستمر يقول : « أيها الولد العجوز ، ستقع الحرب . معلـومـات داخليـة » . وأشار بأصبعـه إلى صـدغـه : «ستقع الحرب. والعـدو يعمل ليل نهار هنـا بيننـا ، أيها الـولـد العجـوز » لم يكن في مقدورى أن أجـادله فيما يقـول . غير أنى كنت أتعجب من «سكوبـى» الجديد الذي يجلس أمـامي كصورة في مجلـة رديئة . «في استطـاعتك أن تساعـدنا في مباغتتهم والإجهاز عليهم ، أيها الـرجل العجوز » . واستمر في حديثـه بطريقة آمرة مـدمرة : « إننا نود أن نضمك إلى قـوتنا » . وكان لهذه الجملة وقعـًا أكثر قبولاً على نفسي . وانتظرت التفـاصيل . قال الرجل العجوز في صوت لـه هدير وصرير : « إن أخطر العصابات جميعًا هنا ، في « الإسكندرية » ، وأنت في قلبها ، إنهم جميعًا أصدقاؤك » .

وفجأة رأيت في حاجبيه المعقودين وعينيه المضطربتين ، رأيت كاللمحة البديهية الخاطفة صورة « نسيم » ، وهو يجلس إلى مكتبه الضخم في الحجرة ذات الأنابيب الباردة المصنوعة من الصلب ، في انتظار مكالمة تليفونية بينما حبات العرق تتجمع فرق جبهته . كان يتوقع رسالة عن « جوستين » ـ وخزة أخرى من وخزات السكين . وهز « سكوبى » رأسه وقال : « ليس هو على وجه التحديد . بالطبع إنه واحد من العصابة . الزعيم رجل يدعى « بلتازار » ... انظر ما عثرت الرقابة عليه » .

وأخرج بطاقة من أحد الملفات وناولها لي . إن خط « بلتازار » أنيق ، كان من الواضح أن الكتابة بخطه ، غير أنى لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام عندما رأيت أن ظهر البطاقة البريدية لم يكن يحتوى إلا على تخطيط للوحة شطرنج بطريقة الخطوط المتعاقبة في اتجاهات متضادة . والحروف اليونانية تملأ المربعات الصغيرة . وقال « سكوبى » : « إنه يتمتع بوقاحة لاحد لها حتى أنه يرسل تلك البطاقات بالبريد المفتوح » . وفحصت التخطيط وحاولت أن أتذكر القليل الذي تعلمته من صديقي عن حساب التفاضل ، وأضاف « سكوبى » وهو يلهث : « إنه نظام القوة التاسعة . وأنا لا أستطيع قراءة تلك البطاقة . إنهم يجتمعون بطريقة منتظمة كي يجمعوا المعلومات . إننا نعلم هذا علم اليقين » . وأمسكت بالبطاقة البريدية بخفة بين أصابعي وبدا لي أني أسمع صوت «بلتازار » وهو يقول « إن مهمة المفكر هو أن يقترح ، أمام عمل القديس فهو أن يلتزم الصمت إزاء ما يكتشف » .

وعاد « سكوبى » ليتكئ في كرسيه ، يغمره شعور ظاهر بالرضا عن نفسه . كان قد نفخ نفسه كحمامة ممتلئة الحوصلة . وخلع طربوشه من فوق رأسه وتأمله في حدب ولطف ووضعه فوق مفرش الشاى . ثم حك صلعته المشققة بأصابع ناتئة العظام واستمر يقول : « إننا في بساطة عاجزين عن فك الشفرة ، ولدينا العشرات من أمثال تلك البطاقة » . وأشار إلى ملف متخم بالنسخ

المتشابهة والتي تماثل تلك البطـاقات : « لقد لفت كل الحجـرات المختصة بحل الشفرات : حتى أساتذة الجامعة المقتدرين في الرياضة . ولكن بلا طائل ، « أيها الرجل العجوز » .

ولم يثر هـذا الأمر دهشتـي . ووضعت البطاقـة البريدية فـوق كومـة من مثيلاتها وعدت أتأمل « سكوبى » ، الذي قال وهو مقطب الجبين : « وهنا يجيء دورك ، إن شئت أن يكون لك دور ، أيها الـرجل العجوز . إننـا نود منك أن تفك الشفرة مهما استغرق هذا الأمر من وقتك وستنال ما يرضيك تمامًا . فما قولك في هذا ؟ » .

ماذا في وسعي أن أقول ؟ لقد كانت الفكرة تبهج النفس ، وكان على المرء ألا يتركها تفلت منـه . يضاف إلى ذلك أن عملي المدرسي خلال الشهـور الأخيرة قد هبط كثيرًا حتى أني كنت متأكدًا من أن عقدي مع المدرسـة لن يجدد عند انتهاء المدة الحالية . كنت أصل على الـدوام متأخرًا بسبب لقـاءاتي مع « جوستين » . ولم أعد أبالى بتصحيح أوراق الطلبة .

وأصبحت حـاد الطبع مشـاكسًا مع زمـلائي ورؤسـائي . هنـا لاحت لي الفرصـة كي أعود سيـد نفسي . وسمعت صوت « جـوستين » يقول من داخل رأسي « لقـد غـدا حبنا كخطـأ مخيف ورد في مثل شعبي » ، بينما كنت أميل إلى الأمام مرة أخـرى وأنا أومئ برأسي ، وأطلق « سكوبى » آهـة ارتياح وانبساط واستعاد شخصية القـرصان مرة أخرى . وعهد بشئـون مكتبه إلى شخص ما يـدعى « مصطفى » كان مـن الواضـح أنـه يعيش في مكـان ما داخل التليفـون الأسود ـــ كان « سكـوبى » ينظر على الـدوام خلال حـديثه إلى بـوق التليفون وكأنه ينظـر إلى عين آدمية . وغـادرنا المبنى سويـًا وحملتنا إحـدى السيارات العسكرية نحو البحر . كان من الممكن مناقشة المزيد من التفاصيل عن وظيفتى حـول زجاجـة البرانـدى الصغيرة الموجودة في قـاع حـامل الفطائر إلى جـوار سريره.

تركنا السيارة عند الكورنيش وسرنا معًا نقطع باقي الطريق في ضوء القمر الساطع العربيد ، نرقب المدينة القديمة وهي تتلاشي ثم تعود تلتئم من جديد فيما يرسمه ضباب المساء من أشكال ، مثقلة بصمت الصحراء التي تحيطها ، وخضرة الدلتا التي تغوص فيها حتى النخاع ، فتعطيها ما لها من قيمة . وتحدث « سكوبى » عن غير هذا وذاك . إنني أتذكر أنه كان يندب يتمه منذ سن مبكرة ـ لقد قتل والداه معًا في ظروف مأساوية أمدته بمادة دسمة يمعن فيها فكره : « لقد كان والدى من رواد سباق السيارات الأول أيها الرجل العجوز . سباقات الطرق التي أقيمت في فترة مبكرة ـــ كان ينطلق بسرعة عشرين ميلا في الساعة . ويمتلك سيارة « لاندو » . التي أستطيع أن أراه الآن وهو جالس خلف عجلة القيادة بشاربه الكث . الكولونيل « سكوبى » ، لقد كان فارسًا . وقد جلست أمي إلى جواره ، أيها الرجل العجوز . إنها لم تكن تتخلي عن جواره حتى في سباق السيارات . كانت تقوم بوظيفة الميكانيكي . وكانت الصحافة تأخذ لهما على الدوام صورًا في بداية السباق ، وهما يجلسان مرتديان أقنعة كتلك التي يلبسها أصحاب المناحل ـ والله يعلم لماذا كان الرواد الأول يرتدون مثل تلك الأقنعة الضخمة . ربما كان ذلك بسبب التراب » .

ولقد أثبتت تلك الأقنعة قدرتها على القتل . إذ بينما كان والده يجتاز منحنى يستدير إلى الوراء في سباق على طريق « لندن ـ بريتون » القديم أمسك وشاح قناعه بالمحور الأمامي لعجلة السيارة التي كان يقودها ، فجذبه وألقاه في الطريق ، بينما اتجهت رفيقته رأسًا لتصطدم بشجرة وتتهشم . « إن عزائى الوحيد أنه قد مات على النحو الذي كان يتمناه . فقد كانا يتقدمان غيرهما من المتسابقين بربع ميل » .

لقد كنت مغرمًا على الدوام بالميتات التي تحدث بطريقة هزلية ، ولذا ، وجدت صعوبة كبيرة في ضبط ضحكتي عندما كان « سكوبى » يصف تلك الكارثة وعينه الزجاجية تدور دورات شؤم ونحس . ومع ذلك فبينما كان

يتكلم وأنا أنصت لما يقـول ، كانت نصف أفكارى تنطلق في خط مواز مشغـولة بالـوظيفة الجديدة التي سأقـوم بها . أقيِّمها بقدر الحريـة التي ستمنحها لي . كنت سألتقي « بجـوستين » في سـاعة متأخـرة من تلك الليلـة قرب المنتـزه ـ والسيارة الكبيرة تهر كفـراشة في عتمـة الطريق التي تلطفهـا أشجار النخيل . ماذا سيكـون رأيها ؟ بالطبع سيبهجهـا أن تراني وقـد تحررت من قيود عملي الحالى . إلا أن جـزءًا من أعماقها سيئن ألمًا لفكـرة أن هذه النجـدة لن تخلق إلا مـزيدًا من الفـرص كي نزداد التصـاقًا ، كي نمضي في زيفنـا ، كي نكشف عن أنفسنا لقضـاتنا أكثر من أى وقت مضي . هنـا يكمن تناقض ظاهـرى آخر من تناقضات الحب ، إن الشيء الذي يقربنا من بعضنا البعض ـ كالحركة المتعاقبة في اتجاهات متضادة ـــ يكون على وجه الخصوص ، لو سيطـرنا على الفضائل التي يصورها ـــ هو مصدر فرقتنا إلى الأبد ـ أعنـى يغرق نفسينا اللتين تغذت كل منهما بشراهة على خيال الأخرى الذي يسحر الألباب .

« وفي تلك الأثناء » كما كـان يقول « نسيم » في تلك النبرات الرقيقـة المفعمة بالرزانة المبهمة التي تحل بأصـوات هؤلاء الذين أحبوا في إخلاص إلا أن حبهم كان من جـانب واحد « وفي تلك الأثناء كنت أعيش في قلب حالـة من الاستفزاز تصيب المرء بالدوار ولا مخرج لى منهـا إلا من خلال عمل لم يكن في وسعي أن أدرك كهنه وطبيعتـه . كانت تنفجـر في نفسي مشاعر هـائلة من الثقـة بالنفس تتبعها حالات من الاكتئاب عميقة إلى حد أنها كانت تبدو وكأني لن أشفى منها ألبتة . وشعور غامض ينتابني بأنني أعد نفسي لمبارزة ـ وكما يفعل الرياضي ـ بـدأت في أخذ دروس في اللعب بـالسيف وتعلمت كيفية إطـلاق الرصـاص من مسدس جيب أوتـوماتيكي . ودرست تركيب وتأثير السمـوم من كتاب صغير خاص بعلم السموم استعرته من الدكتور « فؤاد بك » .

كان قـد بدأ يـرسي في أعماقه مشـاعر تستعصي على التحليل وكـانت تعقب الفترات التي يعيشها كـالسكران فترات أخرى يحس فيها بثقل وحـدته : وكان

هذا الشعور ينتابه للمرة الأولى . كان يعانى ألمًا نفسيًّا داخليًّا ، ومع ذلك فقد كان عاجزًا على أن يجد له متنفسًا ، في الرسم أو في العمل . إنه يسلي نفسه الآن بأن يعود دائماً إلى باكورة حياته ، إلى تلك السنين المليئة بشعور مستقر بالثراء، إلى بيت أمه الظليل وسط أشجار النخيل والزهور المكسيكية في « أبي قير » : حيث تصعد المياه وتنزلق بين طوابي القلعة القديمة ، إنه يجمع أيام طفولته المبكرة في مشاعر واحدة مركزة نابعة من ذكرياته المرئية . إنه يتشبث بهذه الذكريات في هلع ووضوح كما لم يحدث له من قبل . وهناك خلف ستار الكآبة العصبية ، عاشت طوال الوقت جرثومة التمزق عنيدة لا يمكن التحكم فيها ـ حيث إن العمل الذي فكر فيه حلاً لمشكلته لم ينته منه بعد ، إنه يرقد في أعماقه كعملية مضاجعة لم تكتمل . كان يبدو وكأن هناك من يحثه ، أن يتقدم أقرب وأقرب .... ولكن إلى ماذا بالتحديد ؟ لم يكن في وسعه أن يعرف ، إلا أن خوفه القديم من الجنون تقدم هنا وأمسك بتلابيبه ، وأخل بتوازنه الجسدى ، حتى أنه بدأ يعانى من نوبات دوار كانت تجبره على أن يتحسس ما حوله كالأعمى يبحث عن شيء يجلس عليه ـ مقعد أو كنبه . إنه يجلس وهو يلهث قليلاً ويحس العرق وقد بدأ يتصبب من جبينه ، غير أنه كان يحس بالارتياح لأن أحدًا من العابرين لن يرى شيئًا مما يعانيه من صراع داخلي . إنه يكرر بصوت عال ، كما لاحظ هو ذلك الآن أيضًا ، جملاً يرفض عقله الواعى أن يستمع إليها . لقد سمعته « جوستين » ذات مرة يتحدث إلى نفسه في واحدة من مراياه قائلاً : «حسنًا ، إذن فأنت تتردى في النورستانيا » .

ومرة أخرى فيما بعد سمعه « سليم » وهو جالس إلى عجلة قيادة السيارة ، بينما كان خارجًا إلى جو يغمره ضوء النجوم الزاهية وقد ارتدى ملابس المساء المتقنة التفصيل سمعه يضيف قائلاً : « أعتقد أن هذه الثعلبة اليهودية قد التهمت حياتي » . وفي بعض الأحيان أيضًا كان مرعوبًا إلى حد أنه كان يسعى ، إن لم يكن وراء من يقدم له يد العون ، فعلي الأقل وراء ما انقطع من اتصال

بالآدميين الآخـرين ، لقـد وصف له أحـد الأطباء دواء مقويـًا من الفـوسفور ونظامًا خاصـًا بالغذاء إلا أنه رفض أن يتبع العلاج . وساقـه منظر طابور من رهبان « دير الكرمل » وقد حلقت قمـة رؤوسـهم كالقردة الأفريقية الضخمة ، وهم يعبرون شـارع « النبى دانيال » إلى أن يجدد صـداقتـه السابقـة مع الأب «بـول » الذي كـان يبدو في الماضي رجل غـاية السعـادة يغلفه دينـه كما يغلف الجراب الموسي . غير أن كلمات التعزيـة الشفوية التي كـان يقدمها لـه الآن هذا البهيم المحظوظ ، السعيد ، مجدب الخيال ، قد ملأت نفسه بالتقزز .

وقد ركع ذات ليلة إلى جواره سريره ـ وهو شيء لم يفعله منذ كان في الثانية عشرة ـ وفـرض الصلاة عمـدًا على نفسه . لقـد ظل هناك لفترة طـويلة ، ذاهل العقل ، مربوط اللسان بلا أفكار ولا كلمات تشكل نفسها في ذهنه . كان يتملكه شعورًا رادعًا مرعبـًا كما لو كان صدمة عقلية ـ وظل هناك كذلك حتى لم يعد يحتمل المزيد ـ حتـى أحس أنه قد بلغ حد الاختنـاق . فقفز إلى سريره وسحب الأغطية فوق رأسه وهو يتمتم مزقـًا محطمة من لعنات وابتهالات لا إرادية لم يكن يدرى أين مصدرها في نفسه .

ومع ذلك فـإن مظهـره الخارجي لم يحمـل أى إشـارة تنبئ عـن هـذه الصراعات، فقد ظل حديثه جـافًا موزونًا رغم حمى الأفكار التي تكمن وراءه . وقد مدحه الطبيب لما يعكسه من ردود فعل رائعـة وأكد له أن بوله خال من أى نسبة زائدةمن الـزلال . كما أثبت الصداع الذي يصيبه ما بين حين وآخـر بأنه ضحيـة توعك بسيط ـ أو شيء آخر من تلك الأمـراض المعتادة عنـد الأثريـاء والكسالي .

لقـد كان مستعـدًا من ناحيتـه أن يعـاني كل هذا طـالما ظلت المعانـاة تحت سيطرة وعيه وإدراكه . لم يكن يخشي غير الشعور بالوحدة الكاملة ، كان يدرك عجـزه عن إطـلاع أىّ من أصـدقائه أو الأطبـاء ، الـذين يحتمل استـدعـاءهم

ليفحصوا تصرفاته الشاذة والتي لا يرون فيها غير أعراض اضطرابه ، على تلك الحقيقة .

لقد بذل جهودًا محمومة للعودة إلى الرسم ، ولكن دون جدوى . إن إحساسه بما يجرى في أعماقه كان ينخر كالسم في الألوان ، فيجعلها فاترة ميتة. لقد كان عسيرًا عليه حتى مجرد أن يعمل بالفرشاة وهناك يد خفية تشد ذراعه طوال الوقت ، تمنعه ، تهمس إليه ، تزيح بعيدًا كل قدرات الحركة ، كل حريتها وانسيابيتها .

وعندما أحس أنه محاصر بهذا الغروب الذي يتهدد مشاعره ، اتجه مرة أخرى ، في محاولة يائسة لاستعادة اتزانه وسكينة نفسه إلى استكمال القصر الصيفي — كما كنا ندعوه من قبيل المزاح — إنه مجموعة من الأكواخ والاصطبلات العربية في « أبى صير » . فقد عثر نسيم منذ مدة طويلة بينما كان في رحلة على ظهور الخيل إلى « بنيغازى » ، على ثنية في الصحراء تبعد عن البحر أقل من ميل ، حيث ينفجر فجأة في قلب حزام الرمال نبع ماء صاف يتعرج قليلاً نحو الشواطئ المهجورة قبل أن تدركه كثبان الرمال وتخنقه . هنا زرع البدوى ، وقد تملكه ذلك الجوع التلقائي للخضرة الذي يرقد في أعماق كل عشاق الصحراء ، نخلة وشجرة تين تشبثت جذورهما بقوة بالحجر الرملى الراقد تحت الأرض والذي تنبع منه المياه النقية . وجلسوا يستريحون وخيولهم في ظل هاتين الشجرتين النضرتين .

وعين « نسيم » تمعن النظر عجبًا في منظر القلعة العربية القديمة البعيدة ، والندية البيضاء الممتدة على الشاطئ الخالى حيث تتكسر الأمواج ليل نهار . لقد طوت كثبان الرمال نفسها في الجوار فغدت على شكل واد طويل كان خيال «نسيم » قد بدأ يصوره في الحال عامرًا بأشجار النخيل وهي « تطقطق » وبأشجار التين الخضراء التي ستلقى ، وهي المزروعة قرب المياه الجارية — ظلالاً وارفة حتى أنها تشبه قطعة قماش مبتلة تلتف حول الرأس ترطبها .

وترك تلك المنطقة تترعرع وتنضج في خياله لمدة عام . كان كثيرًا ما يتوجه إليها على حصانه يدرسها في كل أنواع المناخ ، حتى تمكن من خصائصها . لم يخبر أحدًا بها . غير أن فكرة بناء منزل صيفي يدخل السعادة على قلب « جوستين » كانت تكمن في خلفية ذهنه ـ واحة مصغرة حيث يمكنها أن توفر اصطبلا لجيادها الثلاثة العربية الأصيلة وتقضي أكثر مواسم العام حرارة تمارس هوايتها المفضلة ، السباحة وركوب الخيل .

حفر النبع ، وشقت منه قناة وتجمع الماء في حوض رخامي يشكل مركز الساحة ، التي رصفت بالحجر الرملي الخام ، والتي أقيم حولها المنزل والاصطبلات . وكلما ازدادت المياه زادت الخضرة بزيادتها ، وخلقت الظلال من نباتات الصبار ومن أدغال الذرة الهندية الكثيفة أشكالاً مجردة ذات أشواك. وبمرور الزمن زرع حوض من البطيخ أيضًا ـ فبدا كشيء نادر منفى من بلاد الفرس . وقد بنى اسطبل واحد موحش على النمط العربي يدير ظهره لرياح البحر الشتوية ، بينما أقيمت مجموعة من غرف الخزين وحجرات الجلوس على شكل حرف L غرف ذات نوافذ تغطيها شبكات حديدية «ودرف» من الحديد الأسود اللون .

حجرتان أو ثلاثة من حجرات النوم التي لا تزيد في حجمها عن حجم صومعة رهبان القرون الوسطى تفتح مباشرة في حجرة تتوسطها ، حجرة لطيفة مستطيلة منخفضة السقف تستخدم كحجرة استقبال وحجرة طعام في نفس الوقت ، ولقد أقيمت في أحد أطرافها مدفأة بيضاء كالكتلة وقد زخرفت حوافها بوحي من تصاميم الفسيفساء العربية . وانتصبت في الطرف الآخر من الحجرة منضدة حجرية ومقاعد حجرية تذكر المرء ببعض قاعات الأكل القديمة التي ربما كان يستخدمها رهبان الصحراء . وحدت السجاجيد الفارسية الفاخرة والصناديق الضخمة المحفورة والمحلاة بماء الذهب الذي يتلوى فوق مشابكها الخطافية وجنبها الجلدية المصقولة ، من القسوة التي كانت عليها

الغرفة . كان كل شيء ينطلق بالبســاطة المتعمدة التي تعكس أرقي أنواع البهاء والفخامــة . وعلى الحائط الموحش المطلي باللون الأبيـض والذي تقدم نــوافذه المغطاة بــالشبكات الحديـدية منــاظر فجائيــة طوليــة ضيقة ورائعــة للشاطئ والصحراء ، علقت بعض تذكارات الصيد القديمة أو الخاصة بالحياة في منطقة البحر المتوسط : رمح يحمل علماً عربيًا مثلثًا طويلاً ، كاتب بوذى ، بضع رماح أفريقيــة في المنفى ، قوس كبير ما زال يستخدم في صيــد الأرانب ، بيرق إشارة خاص بأحــد اليخوت . لم تكن هنالك أيــة كتب سوى نسخة قديمــة من القرآن مغطاة بالعاج ولها مشابك معدنية لامعة ، إلا أن عدة مجموعات من ورق اللعب كانت تــرقد على حافــة النوافذ ، وكــان من ضمنها مجمــوعة من أوراق اللعب القديمة ، لهواة قراءة الغيب والمستقبل .

ومجموعــة أخرى للعبة « العــائلات السعيدة » . كـذلك كان يوجـد في أحد الأركان « سيموفار » قديم ليشبعا إدمانهما الوحيد ـ ألا وهو شرب الشاى .

وســار العمل في بطء وتردد ، غير أن « نسيم » في النهــايــة ؛ وقد عجـز عن الاحتفاظ بسره أكثــر من ذلك ، أخذ « جوستين » لتراه . وعجـزت « جوستين » عن منع دموعها وهي تسير في داخله ، من نافـذة إلى أخرى من نوافذ الحجرات الرشيقة ، إنها تلمح الآن بشكل خاطف صورة البحــر الزمردى يتدحرج فوق الرمال ، إنها ترى على نحو فجائى صورة حلزونية للكثبان الرملية وهي تنزلق شرقًا نحو السماء . ثم جلست فجأة قبالة نــار الأشواك وهي ما تزال في ردائها واستمعت إلى دقات البحــر الواضحــة الرقيقة على الشطــآن الطويلــة مختلطة بصهيل وطرقات حوافر الخيل في مرابطها الجديدة خلف الساحة . كان ذلك في أواخــر الخريف ، عند مــا بدأ الــذباب المضيء ينهش بعضـــه البعض في عنف في الظلام الــرطب الذي أخذ يتجمع ، وغمرهما هــذا المنظر بالسعادة وقــد ظنًا أن راحتهما قد بدأت ، لتدعم حياة أخرى غير حياتهما .

وكان على « جوستين » أن تكمل الآن ما بــدأه « نسيم » . لقد جعلت الشرفة

القائمـة تحت شجرة النخيل تمتد نحـو الشرق ثم سورتها حتى تصـد كثبان الرمال التي لا تكف عن الانتقـال ، والتي تحركها الريح الشتويـة نحو الأمام ، فتغطى أحجار السـاحة بست بـوصات من الرمـال . وأشجار العليق الـدائمة الخضرة والتي تشكل حـواجـز تتكسر عليهـا الـريح وتـزود الأرض بطبقـة نحاسيـة قاتمة من أوراق الشجر المتعفنـة والتي ستغدو على مر الأيـام أرضًا صلبة تمد الشجيرات الصغيرة والكبيرة بما تحتاجه فيما بعد من غذاء .

كانت حـريصة أيضًا على أن ترد لزوجهـا اهتمامه فقدمت له هـدية تتصل بالفلك الذي كان يسيطر حينذاك على مشاعره . فقد أقامت في أحد أركان البناية المقامة على شكل حرف L مرصدًا صغيرًا يحتوى على تلسكوب يكبر الأشياء إلى ثلاثين ضعفـًا . هنا كان يجلس « نسيم » في الشتـاء ليلة بعـد أخرى ، مرتـديًا عباءتـه القيمة الحائلة اللـون ، يحملق باهتمام في « الجوزاء » ، أو يهيم في كتب التقـاويـم التي تبحث في كل شيء يخص العـالم وكـأنـه عـراف مـن القـرون الوسطى، هنا أيضًا كان في استطاعـة أصدقائهم أن ينظروا إلى القمر أو يغيروا زاوية المنظار فيكشف لهم فجأة عن نتف كالدخـان من سحاب لؤلؤى يبدو أن المدينة كانت تطلقه على الدوام زفرات بعيدة .

وغدا كل هذا بالطبع في حاجـة إلى حارس ، ولم تصب الدهشة « نسيم » أو «جوستين » عندما جاء « بانا يوتيس » وأقام في حجرة صغيرة للغاية إلى جوار الاصطبلات . إن هذا الـرجل العجوز بلحيته التي تشبه المجرفـة وعيناه اللتان تشبهان الخرز كـان يعمل لعشرين عامـًا مدرسًا ثـانويـًا في دمنهور . وتلقي المراسيم الدينيـة وأمضى تسعة أعـوام في « دير سـانت كاتـرين » في صحراء سيناء . كـان من المستحيل أن يعرف المرء ما الـذي جاء به إلى تلك الواحـة فقد قطع لسانه في فترة ما من حياته الخالية من أية مغامرة . ولقد بدا من الإشارات التي كان يقـوم بها ردًا على الأسئلة التي وجهت إليـه ، بأنه كان يقـوم بالحج سيرًا على الأقـدام إلى ضريح « سـانت ميناس » الصغير والموجـود في الغـرب ،

فوقع على الواحة في طريقه . وعلى أى حال فقد بدا الأمر وكأن قراره بالبقاء في الواحة لم يكن صدفة ألبتة ، كان ملائماً للمكان تمام الملاءمة ، وهناك أقام طوال العام كحارس وبستانى في مقابل أجر ضئيل . كان رجلاً صغير الجسم قويًا ، نشيطًا كالعنكبوت ، يغار بصورة مخيفة على نباتاته الخضراء التي تدين بحياتها لمثابرته ورعايته . لقد كان هو الذي روض حوض البطيخ على الحياة وهو الذي نجح أخيرًا في إغراء كرمة عنب بأن تبدأ نموها وتسلقها قرب البوابة الوسطى . كانت ضحكته غير واضحة « كقوقة » الدجاج ، وكان من عادته أن يخفي رأسه في حركة خجلة في الكم البالى لردائه الكنسي القديم . كانت ثرثرته اليونانية وقد حجزها عجزه تفيض في عينيه حيث تلمع وتتراقص لأقل ملاحظة أو سؤال .

لقد بدا وكأنه يقول : « ماذا يستطيع المرء أن يطلب من الحياة أكثر من هذه الواحة إلى جوار البحر ؟ » .

حقًا ماذا يريد المرء أكثر من هذا ؟ لقد كان هذا هو السؤال الذي ظل «نسيم» يردده لنفسه بينما السيارة تئن وهي متجهة نحو الصحراء « وسليم » بملامحه التي تشبه ملامح الصقر يجلس بلا حراك إلى عجلة القيادة . كان الطريق ينحرف قبل القلعة العربية متجهًا إلى الداخل بعيدًا عن الشاطئ ، وكان على المرء كي يصل إلى الواحة أن يحيد عن الطريق ويسير بحذاء كثبان رملية على صورة رقائق متيبسة كزلال البيض المضروب ، لامعة تشبه الميكا في المنجم، وكانت العجلتان الأماميتان لتلك العربة المترنحة تجدان على الدوام ما ينقذهما من طبقة الحجر الرملى الهشة والتي تشكل العمود الفقرى لكل ذلك الجبل الممتد إلى داخل البحر ، كلما همتا بأن تغوصا في الرمال . لقد كان مبهجًا أن يمخر المرء هذا البحر من المواد الهشة البيضاء كقارب شراعي يبحر أمام ريح لاحقة .

كانت تجول بخاطر « نسيم » منذ فترة مضت ـ وكان هذا الاقتراح في

الأصل اقتراح « بورســواردن » ـ فكـرة أن يجازى « بنايـوتيس » العجوز على تفانيـه ، بالهدية الوحيـدة التي يمكن أن يفهمها الرجل العجـوز وأن يتقبلها : كان « نسيم » يحمل في تلـك اللحظة في حقيبته الـلامعة تصريحًا من بطـريرك «الإسكندرية » يسمح له بأن يبنى في منزله كنيسة صغيرة وأن يهبها « لسانت أرسينيوس » . ولقد تم اختيار القديس كما هي العـادة بطريقة عشوائية . فقد عثرت « كليا » على أيقوتة لهذا القديس منـذ القرن الثامن عشر . كانت الأيقونة في حالة جيدة وراقدة بين ركام دكان في الموسكي « بالقاهرة » .

كانت تلك هي الكنـوز التي أفرغـاها أمام عينى الـرجل العجوز المتطلعتين القلقتين . لقد استغرقـا قدرًا من الوقت حتى جعلاه يفهم ما يريـدان ، فقد كان يتابع العربية بفتور كما أن « نسيم » لم يكن يعرف اليونانية إلا أنه عندما رأى تصريح البطريـرك ضم راحتيه معـًا وطوح لحيتـه وهو يبتسم ، وبـدا وكأنه أوشك أن يتعثر تحت ثقل العواطف التي غمرته . لقد فهم الآن كل شيء . وأدرك لماذا كان « نسيم » يقضي تلك الساعـات الطويلة يفحص الإسطبل الأخير الخالي ويخطط على الـورق . وهز يـدىّ « نسيم » بحـرارة وهو يصـدر أصواتـًا غير واضحة تشبـه قوقـة الدجاج . ومـال إليه قلب «نسيم » وهـو يحس شيئًا من الحسد الخبيث وقد رأى كيف فاض قلب الرجل بالسعادة لهذا العمل الذي يدل على الاهتمام به . ومن أعماق ظلام الأفكار التي مـلأت رأسه أخذ يفحص رجل الكنيسة العجوز في عنـاية ، وكأنه بهذا التقصي الشديد يود أن يفـاجئ بساطة قلب الرجل التي عادت عليه بالسعادة وراحة البال .

وفكر « نسيم » فيما بينه وبين نفسه ، هنا سأبنى على الأقل بيدىّ شيئًا ما ، شيئًا يحفـظ علىّ ثباتى وانتبـاهي ـ وأخذ يفحـص راحتى اليونـاني العجوز الجافتين بإعجاب الحاسد ، بينما كان يفكـر كم من الوقت قتلت تلك الأيدى من أجل صـاحبهـا ، وكم أراحتـه مـن التفكير . قـرأ فيهما سنـوات من النشـاط الجسـدى الملىء بالعـافية والـذي غلق المنافـذ أمام انطـلاق الفكر وجـرده من

التأمل. ومع ذلك ... فمن يدرى ؟ تلك السنوات الطويلة التي قضاها في التدريس : وتلك السنوات في الدير . والآن يطبق الشتاء الطويل بوحدته على الواحة ، حيث لا أنيس لأفكار المرء غير هدير البحر وانزلاق أمواجه وحفيف سعف النخيل وصوت اصطدامه ببعضه البعض ... وفكر « نسيم » بينما كان يمزج الأسمنت والرمل الجاف بعزم وتصميم في جرن خشبي ، « هناك على الدوام وقت تتأزم فيه الروح » .

إن « نسيم » لم يُترك وحيدًا حتى في هذا المكان ، فقد جاءت « جوستين » ، وقد بدأ ينتابها شعور جنونى بالذنب نحو الرجل الذي أحبته ، ومع ذلك فإنها تحاول تحطيمه ، جاءت إلى منزلها الصيفي في الواحة ومعها ثلاثي خيلها العربية . لقد كانت رفيقة قلقة متقلبة المزاج متنمرة . وقد هرَّبت لها ـ تحفزنى أحزانى المرعبة التي خلفها غيابها في نفسي ـ رسالة أخبرها فيها بأن تعود إلى المدينة أو تقنع « نسيم » بدعوتى إلى القصر الصيفي . وجاءنى « سليم » بالسيارة في الوقت المناسب وقادنى في صمت متعاطف لم يجرؤ على أن يقحم فيه أقل مظهر من مظاهر الازدراء والتحقير .

أما من ناحية « نسيم » فقد استقبلنى برقة مدروسة ، والحقيقة أنه كان سعيدًا وهو يرانا متلازمين مرة أخرى ، وهو يعزلنا عن إطار تقارير عملائه الزائف ، وأن يحكم بنفسه ما إذا كنا ... ماذا أقول ؟ « نحب بعضنا البعض ؟ » إن الكلمة تدل على شمول تفتقده عشيقتي التي كانت تشبه إلهة قديمة في أن سجاياها قد تكاثرت عبر حياتها ولم تتلخص في فضيلة واحدة من فضائل القلب يمكن للمرء أن يحبها أو لا يحبها . أما من الناحية الأخرى فإن حب «التملك » قوى غاية القوة : فقد كنا بشرًا لا شخصيات كرتونية من شخصيات « برونتي » . غير أن اللغة الإنجليزية تفتقر إلى المعانى المتميزة والتي يمكن أن تعطينا (كما تفعل اليونانية الحديثة) كلمة تعبر عن الحب العاطفي .

وما خلا ذلك فقد كنت عاجزًا عن تهدئة مخاوف « نسيم » الداخلية : وذلك

بأن أخبره أن « جوستين » تفعل معى نفس الشيء الذي يثير الهم والذي نهجته على صفحات كتاب « الأرنـاؤوطي » ، فقد كنت جاهلاً بما تنطـوى عليه أفكاره واتجاه تلك الأفكـار . إن « جـوستين » تثير في إرادتها رغبـة ، تتغـذى سرًا على ذاتها ولذا لابد لها أن تذبل كالمصبـاح ـ أو تنطفئ . إنني لم أدرك هذا إلا بجزء من عقلي : غير أنني اكتشفت هناك ذلك الشيء الحقيقي الذي تفتقـد إليه الرابطة التي بيننا . إنها لم تكن قائمة على أى صورة من صور الإرادة الحرة . ومع ذلك كم بـدت طريقـة حياتها سـاحرة .. محظيـة تفيض فطنة وفتنـة حتى أن المرء ليعجب كيف حدث وأحب من قبل وكيف قنع بما كان عليه الحبيب من صفات .

ولقـد دهشت في ذات الوقت إذ أدركت أن جـزئى المرتبط « بميليسا » كـان يعيش وجوده المستقل ، تعلق بها في هـدوء وثقة . ولكنه لا يـرغب في عودتها . وكانت الخطابات التي أرسلتها إلىَّ مرحـة مليئة بالعواطف التي لا يشوهها أى ظل من التأنيب أو الرثاء لذاتها .

ورأيت في كل مـا كتبت كيف ازدادت ثقتها بنفسهـا . لقد وصفت المصحـة حيث كـانت تقيم ، بطـريقـة لطيفة وعين مـدققـة ، وصفت الأطبـاء والمرضي الأخرين كما يصف المرء نزهة قام بها . لقد بدت على الورق وقد نضجت وغدت امرأة أخرى . وجاوبت رسائلهـا بقدر ما استطعت غير أنه كان من العسير علىَّ أن أخفي الارتباك الـذي لا حيلة لي فيه والذي تسلط علي حياتي ، لقـد كان من المستحيل وبنفس القدر أن أشير إلى انشغال بالى « جوستين » ـ كنا نتحرك عبر عـالم مختلف من الأزهـار والكتب والأفكـار ، عالم غـريب تمام الغـرابـة على «ميليسا » . إن الوسط الذي نعيش فيه ، لا افتقـارها إلى الحساسية ، هو الذي أغلق أبـوابه دونها . ولقد قـالت « جـوستين » ذات مرة « الفقر فـاصل كبير ، والثراء مانـع كبير » . إلا أن « جوستين » نالت تصريحًا بدخـول العالمين ، عالم الحاجة وعالم الوفرة ، ولذا فقد كانت حرة في أن تحيا حياة طبيعية .

غير أن المرء هنا في الـواحة يعيش على الأقل في وهم بـالسعادة الفـائقة التي

أفلتت منه في حيـاة المدينة . كنـا نستيقظ مبكرين ونعمل في الكنيســة حتى تبدأ حـرارة النهـار في الاشتـداد ، حينما كـان يعتـزل « نسيم » إلى أوراق عملـه في مـرصده الصغير ، ونمتطـى أنا و « جـوستين » الجيـاد نقطع كثبـان الرمـال المتموجة كـالريش إلى البحر نقضي وقتنا في السباحـة أو الحديث . وكان البحر على بعد ميل من الواحة قـد أزاح كمية كبيرة من الرمال على هيئة دائرة صغيرة كونت بحيرة ضحلة المياه ، قام إلى جوارها كوخ من الغاب سقفه مغطى بأوراق الشجر ، وقـد حشر في صدارة واحـدة من الكثبـان الرمليـة ، كوخ يستخـدمه المستحم مكانًا يستظل فيه ويغير ملابسه . وقضينا في هذا المكان معظم النهار . وكانت أخبار مـوت « بورسواردن » ما زالت طازجة ، فتحـدثنا عنه في حرارة ورهبـة ، وكأنما نحـاول جـادين تقييم شخصيـة حجبت صفـاتها طبيعتهـا الحقيقيـة . وكأنه بمـوته قـد نفض عنـه شخصيته الأرضيـة وتقمص بعض الأبعاد المؤثرة الموجـودة في كتاباته ، والتي كانت تتراءى لأنظارنـا أكثر فأكثر بينما كانـت ذكرى الرجـل تذبل وتتـلاشي . لقد أمدنـا الموت بأسس انتقـادية جـديـدة وبأفق عقلى جـديد لتقييم هـذا الـرجل المتعب الـلامع ، عـديم التأثير والفاعلية ، الممل في أغلب الأحيـان والذي كان علينا أن نتعـامل معه . إن أحدًا لا يراه الآن إلا من خـلال المرآة السحريـة التي تعطى للإنسـان أشكالاً مشـوهة مضحكة أو من خـلال طيف الذاكـرة المعتم . ولقد كنت أسمع النـاس تتسـاءل فيما بعد إذا ما كان « بورسواردن » طـويلاً أم قصيرًا ، إذا ما كان له شـارب أم لا : لقـد كانت تلـك الذكـريـات البسيطة هي أشق الأشيـاء التي يمكن للمـرء استعادتها والتأكد منهـا . إن بعض الذي يعرفونـه جيدًا قالوا إن عينيـه كانتا خضراوين ، وقال آخرون إنها كـانت بنية ... كم كانت غريبـة تلك السرعة التي تلاشت بها الصـورة الإنسانية في الصـورة الأسطورية التي خلقهـا لنفسه في ثلاثيته « الله يحب الفكاهة » .

في تلك الأيام التي كان ضوء الشمس فيها يعشى الأبصار ، تحدثنا عنه هنا،

كأناس يتلهفـون الإمسـاك بالذاكـرة الإنسـانية وتثبيتهـا قبل أن تغيم تمامًا في الأسطورة الناميــة ، كنا نتحدث عنه مؤكدين ومنكـرين ومقارنين ، مثل عملاء سريين يتدربـون على إلقاء قصة يقصد بها التمـويه والتغطية ، لأنــه برغم كل شيء فإن هذا الإنســان المخطئ كان ينتمى إلينـا ، أما ذلك الإنســان الأسطورة فإنه كان ينتمى إلى العالم . لقد عرفت الآن أيضًا أنه قال « لجوستين » ذات ليلة، بينما كانا يتفرجان على « ميليسا » وهي تـرقص « لو أنني اعتقدت بوجود أى أمل في نجاحي لعرضت الزواج عليها غدًا . إلا أنها جاهلة للغاية وقد شوه الفقر وسوء الطالع عقلها تشويهًا كبيرًا حتى أنها سترفض طلبى فهي لن تصدقه » .

غير أن « نسيم » كان يتتبعنــا بمخاوفــة خطوة خطوة . ووجــدت ذات يوم كلمــة « حذار » ، وقــد كتبت بــاللغة اليــونانيــة بعصــًا فوق الــرمال في مكــان الاستحمام . وأوحت الكلمة اليــونانية بأن كــاتبها هو « بنــايوتيس » غير أن « سليم » أيضًا كان يجيد اليونانية .

وقد تدعم هذا التحذير الموجه إلىَّ بحادثة وقعت فيما بعد ذلك بفترة قصيرة للغاية ، وذلك عندما ضللت الطريق إلى مرصد « نسيم » الصغير ، بحثًا عن فرخ من الــورق كي أكتب عليه خطــابًا « لميليسا » ، ونقبــت فوق مكتبه من أجــل ما أريد. فلاحظت أن ماسورة التليسكوب كانت موجهة إلى أسفل حتى أنها لم تعد تشير إلى السماء ، ولكن عبر كثبــان الـرمــال حيث تــرقــد المدينــة في أبعــادهــا الضبابية تغلفها السحب اللؤلؤية . لم يكن هذا بالأمر الغريب ، إذ أن رؤية أعلى المآذن بينما الأجــواء تتكثف وتتبدل أمــرًا مسليــًا . وجلست فوق الكــرسي ذى الأرجل الثلاث ووضعت عينى فــوق المنظار ، حتى تلتئم أمامي صــورة المنظر الذي كان يهتز ويرتعش ارتعاشة خفيفــة . ورغم القاعدة الحجرية المتينة التي يقف عليهــا الحامل الثلاثي فإن قــدرة العدســة العاليــة على التكبير والشبورة الدخانية النــاشئة عن الجو بينهما قد جعلا الصورة تهتز هــزات تشبه الريش مما جعل المنظر يبدو وكأنه يتنفس في رقــة وبلا انتظام . ودهشت عندما رأيت

الكوخ الصغير المصنوع من الغاب ، حيث كنت و « جوستين » مستقليين كل في ذراع الآخر نتحدث عن « بورسواردن » ، يرتعش ويقفز ورغم ذلك فإنه واضح تمام الوضوح وحزمة صفراء لامعة فوق الكثبان الرملية تكشف غلاف كتاب من كتب الجيب هو « الملك لير » كنت قد أخذته معى ونسيت أن أعيده ولو لم تكن الصورة ترتعش على هذا النحو لكان في وسعي دون شك أن أقرأ العنوان من على الغلاف . وحملقت في تلك الصورة وأنا ألهث لفترة طويلة وغمرنى الخوف . لقد بدا الأمر لي ، وكأن المرء في غرفة مظلمة ولكنه معتاد عليها وعلى يقين بأنه لا يوجد بها أحد ، وفجأة أحس بيد تمتد وتحط على كتفه . وغادرت المرصد على أطراف أصابعي وقد أخذت معى رزمة الأوراق والقلم وجلست فوق كرسي كبير مريح أتطلع إلى البحر ، وأنا أحس الحيرة ماذا أقول « لميليسا » .

* * *

لم يكن قد تقرر شيء في ذلك الخريف ، عندما أنهينا معسكرنا وعدنا إلى المدينة لنمضى فيها فصل الشتاء ، حتى مشاعر الأزمة كانت قد تضاءلت . وهناك غرقنا جميعًا في الحل الضبابى لحياتنا اليومية والتي سيتبلور منها المستقبل مهما كانت المأساة التي تنتظرنا . لقد استدعيت كي أبدأ وظيفتي الجديدة مع «سكوبى » وحاولت بلا جدوى أن أصل تلك الخطوط الملعونة المتتابعة فى اتجاهات متضادة والتى ظل «بلتازار» يعلمنى إياها بين أدوار الشطرنج . وأقر أننى حاولت أن أخفف من وقع هذا الأمر على ضميرى بأن أطلعت فى أول الأمر ، العاملين فى مكتب «سكوبى» على الحقيقة ــ وهى أن «القابال» جماعة لا ضرر منها وهبت نفسها للفلسفة «الهرمزية» وأن نشاطاتها لا تمت إلى الجاسوسية بصلة . ولقد قيل لى بطريقة جافة ردًا على هذا بأننى يجب ألا أصدق هذه القصة الواضحة الزيف لتغطية حقيقتهم . وعلىّ بدلا من ذلك أن أحاول حل الشفرة ـ وطلبوا منى تقارير تفصيلية كنت أمدهم

بها فى حينـه ، إذ كنت أكتب على الآلة الكـاتبـة أحـاديث «بلتازار» عن «آمـون» و«هرمز بـريسمجستس» وأنا أحس بلذة المشاكسـة ، متخيلاً وأنا أفعل ذلك ، موظفـى الحكومة وهـم منهمكون يخوضـون خلال تلك المادة فى البـدرومات الرطبة على بعـد ألف ميل . غير أنى كنت أكافأ ماليًّا ، وأكـافأ بسخاء ، وغدوت لأول مرة قادرًا على إرسال قدر قليل من المال إلى «ميليسا » وأن أقوم بمحاولة لأسدد ما تديننى به «جوستين» .

وكـان ممتعاً ، أيضـاً ، أن أكتشف مَن من معـارفى عضواً عـاملاً فى شبكـة الجاسوسية تلك . لقد كان«منمجيان» ، مثـلاً ، واحداً من الشبكة ، وكان دكانه مركزاً لمراجعة أعمال الجاسـوسية العامة الخاصة بالمدينـة . كان اختياراً يثير الاعجاب . وكان «منمجيان» يؤدى عمله بحذر وبصيرة هائلتين ، كان يصر على أن يحلق لى ذقنى دون أجـر ، ولقد حز فى نفسـى عندما علمـت فيما بعد بفترة طويلة أنه كان ينسخ فى صبر وأناة ثـلاثة نسخ من الملخصات التى كان يعدها من أعمال التجسس وأنه كان يبيعها لهيئات الجاسوسية الأخرى .

وكان هناك جانب آخر ممتع فى هذا العمل ، فقد كان للعضو منا سلطة الأمر بشن غارة تفتيشيـة على منزل أحـد الأصدقـاء . ولقد استمتعت كثيراً عنـدما أمرت بتفتيش شقـة «بومبال» . لقـد كان لهذا الـزميل البائس عادة مشئـومة وهى أن يحضر معه إلى المنزل ملفات القنصلية ليعمل بها مساء . ولقد وقعت فى أيدينا مجمـوعة كاملة من الأوراق بعثت البهجة فى نفس «سكـوبى» فقد كانت تحتوى على مـذكرات تفصيليـة عن النفوذ الفـرنسى فى «سـوريا» ، وقـائمة بأسماء عملاء «فـرنسا» فى المدينـة ، وقد لاحظت اسم «كـوهين» تاجـر الفراء العجوز فى واحدة من تلك القوائم .

وهزت هذه الغارة التفتيشية «بومبال» هزة عنيفة ، فظل لما يقرب من شهر بعد ذلك يتلفت خلفه وهو يسير ، كان مقتنعاً بأن هناك من يراقبه وروج لفكرة متهوسـة وهى أن البعض قـد رشى «حميد » الأعـور ليقتله بالسـم ، ولم يعد

يقرب الطعام المطبوخ بالمنزل إلا بعد أن أتـذوقه أنا أولا . كان لا يزال فى انتظار ترقيته ونقله ولذا كان شديـد الخوف من أن فقده الملفات قد يؤثر على كليهما . غير أننا تركنا أغلفة التبويب عن عمـد فغدا فى مقدوره أن يعيدها إلى تتابعها مع مذكرة يقول فيها إن الملفات قد حرقت «طبقاً للتعليمات» .

وقـد حقق أخيرًا نجـاحـًا غير قليل خلال حفـلات «الكـوكتيل» التى كـان يخرجها فى عنـاية ـ والتى كان يقـدم فيها من حين لآخر ضيـوفاً من مجالات الحياة الفقيرة كـالبغايا والفنانـات . غير أن نفقات تلك الحفلات والعجـز الذى كانت تثيره كان عـذاباً شديد الألم . إننى أتذكـره وهو يشرح لى ذات مرة ، وفى صـوته رنـة شقاء ، أصل تلك الحفـلات : «إن حفلات «الكـوكتيل» ـ كما يـدل اسمها عليهـا ـ قد اخترعتها الكـلاب فى الأصل . إنها فى بساطة ارتفـاع بعملية الشمشمة السفليـة إلى مرتبة الحفـلات الرسميـة» . ورغم ذلك فقد واظب على إقامة مثل تلك الحفلات ، التى كوفئ عليها بأن أسبغ القنصل العام رعايته عليه ، ورغم احتقار «بـومبال» لهذا القنصل العام فإنـه كان ينظر إليـه بخوف يليق بالأطفال . لقد نجح «بومبـال» فى إغراء «جوستين» ، بعد كثير من الاستعطاف الذى يثير الضحك ، كى تظهر فى إحدى تلك الحفـلات لتعضد خططه فى أن ينال الترقيـة . ولقـد أعطتنـا هـذه الحفـلات فرصـة لـدراسـة «بـوردر» وحلقـة الدبلـوماسيين الصغيرة «بالاسكنـدرية» ـ وكـان الانطباع الذى تـركه القسم الأكبر من هؤلاء الناس هـو أنهم قد طليوا بالفرشـاة . كم بدت لى شخصياتهم الرسمية شاحبة ومشتتة .

كان «بوردر» نفسه وهماً أكثر منه رجـلاً . لقد ولد ليكون الشخصية التى يسخر منهـا رسام هزلى . كان لـه وجه شاحب طـويل يحمل تقاطيع شخص مفسد ، تزينه رأس فاخـرة ذات شعر فضى تعود أن يصطنعه بنفسه ، إلا أنها كانت مـلامح خادم تابع . إن زيف إيماءاتـه (واهتمامه وصداقته المبـالغ فيها لأبسط المعـارف) كـان له وقع منفـر مكننى من أن أفهم معنى الشعـار الـذى

وضعه صديقى للسلك الفرنسى الخارجي وكذلك العبارة التى أخبرنى ذات مرة بضررة وضعها على ضريح رئيسه (لقد كان خلاصه فى كونه وسطاً بين الجيد والردىء) . لقد حدث كل هذا بالطبع منذ سنوات قبل أن يشتهر «بوردن» بمفاوضاته من فوق الأسطول الفرنسى . ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أصدق أن ذلك الشخص ، كما عرفته ، قد أصابه أى تغيير : كانت شخصيته هزيلة نحيلة كقشرة من صفحة ذهبية سمكها غاية فى الرقة ــ إنها قشرة التهذيب التى يكتسبها الدبلوماسيون بما يتميزون به عن غالبية الرجال .

ونجحت الحفلة إلى حد الكمال ، ودعا «نسيم» الدبلوماسى العجوز إلى الغداء فطغى عليه سرور مفرط لا ادعاء فيه ولا تصنع . فقد كان معروفاً أن الملك كثيراً ما يحل ضيفاً على مائدة «نسيم» وكان العجوز قد أخذ يكتب بالفعل رسالة فى ذهنة تبدأ بالكلمات التالية . «بينما كنت أتغذى مع الملك فى الأسبوع الماضى أدرت الحديث إلى السؤال ... فقال ... وأجبته ...» وأخذت شفتاه تتحركان ، وعيناه تزوغان أمام المحتفلين فى واحدة من نوبات السبات التى اشتهر بها والتى كان يستيقظ منها بغتة ويفاجئ محدثيه بابتسامة اعتذار بلهاء كابتسامة سمكة البكالاه .

ومن ناحيتى فقد وجدته أمراً غريباً أن أزور من جديد الشقة الصغيرة التى تشبه الحوض حيث أمضيت قرابة عامين من حياتى ، لأتذكر أنه فى هذا المكان ، وفى هذه الحجرة بالذات ، التقيت «بميليسا» لأول مرة. لقد أجريت فيها تغييرات كبيرة على يدى آخر محظيات «بومبال» .فقد أصرت على أن تُكسى جدرانها بالأخشاب وتُطلى باللون الأبيض وتزين بحواف من ألواح مدهونة باللون اللبنى القرمزى . وأعيد تنجيد المقاعد القديمة ذات المساند ، والتى كان حشوها يتساقط فى بطء فى مزق من جوانبها ، أعيد تنجيدها بالدمقس الثقيل المحلى برسوم زهور الزنابق بينما الكنبات الثلاث البالية قد أزيحت تماماً لتغطى المكان إتساعًا . لا بد أنها بيعت أو حطمت . وتذكرت فقرة من شعر الشاعر

الشيخ : «فى مكان ما ، لابـد وأن تلك الأشياء البالية البـائسة ما زالت تنبض» . كم تحقد الذاكرة ، وكم تمسك فى مـرارة بالمادة الخام التى تستخدمها فى عملها اليومى .

وأصبحت غرفة نوم «بومبال» الهزيلة تشبه بصورة غامضة غرف أواخر القرن الماضى وكـانت نظيفة كحلية جديدة . وربما وافـق «أوسكار وايلد» على استخدامها منظراً فى خاتمة الفصل الأول لإحدى تمثيلياته . لقد عادت حجرتى كما كانت من قبل حجـرة مخزن ، غير أن السرير كـان ما يزال قـائماً هناك إلى جوار الحائط قـرب البالـوعة الحديـدية . واختفت الستـائر الصفراء بـالطبع واستبـدلت بقطعـة من القماش الأبيـض القـذر . ووضعت راحتى على الهيكل الحديدى الصدئ للسرير القديم فطعنتنى حتى الأعماق ذكرى «ميليسا» وهى تستـدير بعينيهـا الصريحتين الصـافيتين نحـوى فى ضوء الحجـرة الصغيرة المعتم. ولقد خجلت ودهشت من حزنى هذا . وعندما دخلت «جوستين» الغرفة خلفى ركلت الباب فأغلقتـه ، وللحال بـدأت أقبل شفتيها وشعرهـا وجبهتها ، وأعصرها بين ذراعى حتى تكاد تلهث ، وإلا فاجـأتنى والدموع فى عينى . لكنها أدركت الأمـر فى الحال ، وبـادلتنى القبـلات بحمية مـذهلـة لا تسبغهـا على تصرفاتنا غير الصداقة وحدها . وتمتمت قائلة «إننى أعرف ، إننى أعرف» .

ثم خلصت نفسها منى فى رقة وقادتنى خارج الحجرة وأغلقت الباب خلفنا. وقالت فى صوت منخفض : «يجب أن أطلعك على شىء يخص «نسيم» . استمع إلىّ . ففى يوم الأربعـاء ، اليوم السابق على مغادرتنـا القصر الصيفى ، خرجت على ظهر الجواد فى نزهة بمفردى قـرب البحر . كان هناك سرب كبير من طيور النورس فـوق الشاطئ ، وفجـأة رأيت السيارة عن بعـد تتدحـرج وتحبو عبر الكثبان الرملية نحو البحر ، و«سليم» جالس إلى عجلة القيادة . لم أستطع تبين ما يفعلان . كان «نسيم» جالساً فى المقعد الخلفى . واعتقدت أن العربة لا محالة غائصـة فى الرمال ، ولكن كلا ، لقـد إنطلقا نحو المياه حيث الـرمال متماسكة

وأخذا يسرعـان على طول الشاطئ نحـوى . لم أكن على الشاطئ ولكنى كنت فى تجويف يبعـد قرابـة خمسين يـاردة من البحـر . وبينما يسرعان ليصبحـا فى محاذاتى ، وبينما طـار سرب النـورس ، رأيت «نسيـم» وهـو يحمل فى يـديـه بندقيته القـديمة عديدة الطلقات . ثم رفعها وأطلق النـار مرة أخرى على سرب النورس ، الذى كـان كالسحابة حتى أفرغ مخزن البـارود . وسقطت ثلاثة أو أربعة منهـا إلى البحر وهى تـرفرف ، غير أن السيـارة لم تتوقف . وعبرا فى لمح البصر . لابد أن هناك طريقاً للعودة يمتد من الشاطئ الطويل إلى الحجر الرملى وهكـذا يعود مـرة أخرى إلى الطـريق الـرئيسى ، لأننى عندمـا عدت ممتطيـة جوادى بعد نصف ساعة ، وجدت أن العـربة قد عادت . و«نسيم» فى مرصده . كان الباب مغلقاً وقال إنــه مشغول . وسألت «سليم» عن معنى هذا المشهد غير أنه هز كتفيه فى بساطة وأشــار إلى الباب الذى يجلس «نسيم» خلفه . وكان كل ما قالــه : «لقد أعطانى الأوامر بـذلك» . غير أنك لو كنت قد رأيت ، يـا عزيزى ، وجه «نسيم» وهو يـرفع البندقية ...» وإذ هى تفكر فى منظـره رفعت أصابعها الطويلة بصـورة تلقائية إلى وجنتيها وكأنها تعدل تعبير وجههـا وقالت : «لقد بدا كمن أصابه الجنون» .

وفى الحجرة الأخـرى كانـوا يتكلمون بتأدب فى أحـداث العالم السيـاسية ، وعن الحالة فى «ألمانيا» . كان «نسيم» قـد حط فى رشاقة إلى جوار «بوردر» على كرسيه وكان «بومبال» يبتلع تثاؤبه الذى ظل يعاوده بطريقة مزعجة للغاية فى صورة كرعـات متتالية . وكان عقلى ما يزال مشغـولا «بميليسا» . لقد أرسلت لها مبلغاً من المال فى ذلك الأصيل ، وكنت أحس بالـدفء وأنا أفكر فيها تشترى لنفسها بهذا المبلغ شيئاً من الملابس الأنيقة ، أو حتى تنفقه بطريقة حمقاء . كان «بومبال» يتحدث بطريقة تمثيلية إلى امرأة متقدمة فى السن تبدو كجمل تاب عن آثامـه» . النقود . يجب أن يتأكد المرء على الـدوام من وجود مصـدر يمده بها . لابـد أن المدام تعـرف المثل العربى القـائل : « الغنى يشترى الغنى ، أمـا الفقـر فيشترى بالكاد قبلة أبرص!».

وقـالت «جـوسـتين» : «هيـا بنا» . وأدركـت وأنا أنظـر عينيهـا الـداكنتين الدافئتين ـــ بينما كنت أودعها ـــ أنها تكهنت بأن رأسى مشغول تمامـاً فى تلك اللحظة «بميليسا» ، ولقـد أعطى هذا الإدراك ليدها وهى تصـافحنى مزيداً من الدفء والمشاركة الوجدانية .

وأعتقد أنه فى تلك الليلة ، بينما كانت تـرتدى ملابس العشاء ، جاء «نسيم» إلى غرفتها ، وتـوجه بالحديث إلى صورتها فى المرآة التى تشبه المجـرفة . قال فى حـزم : «جوستين» ، لابـد لى أن أسألك ألا تظنى بىَّ الجنون أو أى شىء آخـر يماثله ولكن ـ هل كـان «بلتازار» فى يوم من الأيام أكثـر من صديق لك؟» كانت «جوستين» تضع حلية ذهبية على صورة حشرة مجنحة فى حلمة أذنها اليسرى، فنظـرت إلى أعلى إليـه لفترة طـويلـة قبل أن تجيـب بنفس لهجتـه : «كـلا ، يـا عزيزى».

«شكراً» .

وبحلق «نسيم» فى صــورتـه فى المرآة لفترة طـويلة بثقـة وتـرقب ثم تنهـد وتناول من جيب صديريته التى يلبسها مفتاحاً صغيراً ذهبيًّا على شكل «عنخ» رمز الحيـاة عند المصريين القدماء ، وقـال فى خجل شديد : «إننى فى بسـاطة لا أستطيع أن أعرف كيف وصل هـذا المفتاح إلى حوزتى» . ومد لها يـده بالمفتاح كى تـراه . لقد كـان مفتاح السـاعـة الصغير الذى سبب فقـده كثيراً من القلق «لبلتازار» وحملقت فيه «جوستين» ثم فى زوجهـا بشىء من الانزعاج وقالت : «أين كان ؟»

«فى علبة الأزرار» .

واستمـرت «جوستين» فى إتمام زينتهـا ولكن بخطى أبطأ ، وهى تنظـر فى دهشة إلى زوجها الـذى كان من ناحيته يتمعن تقاطيعـه بنفس التدقيق العاقل المتأن : «يجب أن أجد وسيلة أعيده بها إليه . ربما سقط منه فى أحد الاجتماعات غير أن الشىء الغريـب هو ...» وتنهد مـرة أخرى : «إننى لا اتـذكر» لقـد كان

واضحـاً لكل منهما أنـــه قـد سرقــه . واستــدار «نسيم» على عقبيـــه وقــال : «سأنتظـرك فى الطابق الأسفـل» . وعندمـا أغلق البـاب خلفه فى رقـة فحصت «جوستين» المفتاح الصغير فى فضول .

* * *

فى هذا الوقت كان «نسيم» قد بدأ يعيش تلك الدورة من الأحلام التاريخية ، والتى حلت فى عقلـه الآن محل أحـلام صباه ، وألقت المدينـة بنفسهـا فى غمار أحـلامه تلك ـــ وكأنها قـد عثرت أخيراً على شىء إيجابـى تعبر من خلالـه عن رغباتها الجماعية التى كانت تنبئُ عن ثقافتها . كان يسهر ليرى الأبراج والمآذن مطبوعة فوق السماء المرهقة المعفرة بتراب ناعم ، يراها وكأنما قد لصقت عليها البصمات العمـلاقة لأقـدام الـذاكرة التـاريخيـة التى تكمن وراء الـذكريـات الشخصية للفرد ، لتكون الموجه والمرشد ، والمبدع الحقيقى ، حيث إن الإنسان ليس إلا امتداداً لروح المكان .

ولقد أزعجته تلك الأحلام ، لأنها لم تكن بأى حال من الأحوال أحلام الليل ، لقد غطت الحقيقـة واحتوتها ، وأعـاقت عقله اليقظ ، وكان غشـاء وجدانـه قد تمزق فجأة فى أماكن عدة ليسمح لها بأن تعبر وتمر .

وانتابته جنباً إلى جنب مع تلك التراكيب الخيالية العملاقة ـ والتى تمثلت فى معـــارض، صــور على النمط التقليـــدى لفن المعمار فى القـرن الســـادس عشر استنبطها من قراءته وتأمله فى ماضيه الخاص وماضى المدينة ـ إنتابته نوبات متـزايـدة الحدة من شك لايستند إلى العقـل ضد «جـوستين» التى لم يكن قـد تعـرف عليها من قبل إلا نـادراً ، «جـوستين» الصديقـة المواسيـة والعاشقـة المتفانية. كانت تلك النوبـات لا تستمر إلا لفترة قصيرة ولكنها كانت من العنف بحيث أنه ، وهو يعتبرهـا عن حق الوجه الآخر للحب الذى يحسه نحـوها ، بدأ يخاف من الحلاقـة فى الحمام الأبيض القـاحـل كل صبـاح . وكثيراً مـا لاحظ

الحلاق الصغير وهو ينشر فوطتـه البيضـاء فى صمت فوقه ، وجـود الدموع فى عينى زبونه .

ولكن بينما احتلت أحلام الماضى الجزء الأمـامى من عقله كـانت أشخاص أصدقائه ومعارفه ، حقيقة ملموسة ، تسير جيئة وذهاباً بين تلك الأحلام ، بين أنقـاض «الإسكندريـة» التقليـدية ، وتحتل فى الماضى فترة زمنيـة تثير الحيرة وكأنها أشخـاص حقيقية ذات شأن . وعكف «نسيم» فى جـد واجتهاد ككـاتب أمين على تسجيل كل ما رآه ومـا أحسه فى يومياته ، مصـدراً أوامره «لسليم» ، الذى لا يؤثر فيه شىء ، بأن ينسخها له على الآلة الكاتبة .

لقد رأى «الموسوية» ، مثلا ، بفنانيهـا المتجهمين الذين أمدوا بالمال بسخاء ، ينقشـون لوحـة تذكـارية لمؤسسيهـا : ورأى فيما بعد أن الفليسـوف من بين المتوحدين والحكماء يتمنى في صبر وأناة أن يغدو العالم دولة خاصة محرمة لا جدوى منها لأحد سواه ـ حيث إنه فى كل مرحلة من مراحل التطور يلخص كل رجل ، الكـون جميعه ، ويجعلـه ملائماً لطبيعتـه الداخليـة : بينما يخصب كل مفكر ، وتخصب كل فكرة الكون من جديد .

وتمتمت له النقوش المدونة فوق رخـام المتحف عندما مر بها وكأنها شفاه تتحـرك . كـان «بلتـازار» و « جـوستين » فى انتظاره هنـاك . وكـان قـد قـام لرؤيتهما، وأذهله ضـوء القمر وظلال صفوف الأعمدة وقـد بللها الماء . كان فى وسعه أن يسمع صـوتيهما فى الظلام ، وأخـذ يفكر ، بينما أطلق صفيراً خـافتاً كانت تميزه بـه «جوستين» دائما ، «إنها لمسألة مبتذلة من الناحيـة الفكرية أن يقضى الإنسان وقته واثقاً أشد الوثوق فى المبادئ الأولية كما يفعل «بلتازار»» . وسمع صوت الرجل الذى يكبره سنًّا وهو يقول : «والأخلاق لا شىء إن كانت مجرد شكل مظهرى للسلوك الطيب» .

وسار عبر الأقـواس متجهاً نحوهما فى بطء . وخطط ضوء القمـر والظلام الأحجار الرخاميـة فبدت كالحمار الوحشى ، كانا يجلسـان فـوق غطاء تابوت

رخامى ، بينما كـان «بورسواردن» يسير جيئة وذهابـاً يصفر نغماً من ألحان «دونيـزتى» فى مكان مـا فى ظـلام الفنـاء الخارجى القاتم كـالقلب المتحجـر . وتحولت «جـوستين» بحليتها الذهبيـة التى فى أذنيهـا ، تحولت فى ناظـريه إلى واحـد من أحلامـه فرآهـا و«بلتـازار» ، رؤى كأنها الحقيقة ، وهما يـرتديـان بطريقة مبتذلة رداءين نحتهما ضياء القمـر نحتًا عميقاً . وكان «بلتازار» يقول فى صوت عـذبه التناقض الظـاهرى الذى يكمن فى قلـب كل دين : «بالطبع فإن التبشير بالإنجيل على نحـو ما يعتبر عمـلاً شريراً ، هـذه واحدة من سخـافات المنطق الإنسانى . ليـس الإنجيل على الأقل هو الذى يـورطنا مع قـوى الظلام ولكنه التبشير الذى يفعل ذلك . لهذا فإن «القابال» مفيد للغاية لنا . إنه لا يضـع أيًّا من القواعد أكثر من علم اليقظة الصحيحة» .

وأفسحت «جوستين» و«بلتازار» له مكانًا فوق مقعدهما الرخامى ، غير أنه هنا أيضـاً وقبل أن يصل إليهما اختلطت عليه الرؤيـا ، وتداخلت بقوة مشـاهد أخرى ، دون اعتبـار لترابطها ، والوقت الذى يـراها فيه ، ودون اعتبـار للزمن التاريخى والاحتمالات العامة لحدوثها .

إنه يـرى فى وضـوح تـام الضريح المقدس الذى بنـاه الجنود المشـاة للآلهة «إفروديـت» ... الحمام ... على ذلك الشاطئ المهجـور الذى يغطيه الطمـى . لقد كانـوا جوعى . ودفعهم طـول السير إلى أقصـى حدود الاحتمال ، وبـرز شبح الموت الـذى يسكن أعماق كل جنـدى بصـورة حادة حتى تـراءى لهم فى دقـة ووضـوح غير محتملين. فدواب الحمل تنفق لقلـة العلف ، والرجـال يموتـون لنقص الميـاه . إنهم لم يجرؤا على الوقـوف عند الآبـار والينـابيع المسمومـة . والحمير البريـة تتسكع حـولهم بطـريقـة تثير الغيظ إذ أنها أبعـد من مـرمى سهامهم. إنها تصيبهم بالجنون لما كانوا يتوقعـونه من لحمها الذى لن ينالوه طالما أن الطابور يتقدم منتشراً عبر الحفر المتنـاثرة لذلك الشاطئ الشائك . كان عليهم أن يسيروا قدماً إلى المدينة رغم النبوءات والنذر . وسار المشاة عرايا رغم

إدراكهم أن هذا عمل جنونى . وقد تبعتهم أسلحتهم فى عربات كانت على الدوام متأخرة . وقد ترك الطابور خلفه الرائحة الحامضة لأجساد لم يمسسها الماء - رائحة العرق وبول الثيران : رماة المقاليع المقدونيين «يظرطون ويفسون» كالماعز .

وكان أعداؤهم يتمتعون بأناقة تبهر الأنفاس - فرسانًا فى دروعهم البيضاء التى كانت تبدو وتختفى عبر طريق مسيرتهم كالسحب . يراهم المرء عن قرب فيجدهم رجالاً يرتدون العباءات الأرجوانية وصديريات مطرزة وسراويل حريرية ضيقة . ويضعون سلاسل ذهبية حول أعناقهم السمراء ، وأساور حول أذرعتهم التى تحمل النبال . كان المرء يشتهيهم كما يشتهى سربًا من النساء . أصواتهم عالية وفتية . أى تناقض كانوا يشكلون مع رماة المقاليع ، رجال الطابور المدربين الأشداء والذين لا يعرفون إلا أيام الشتاء التى تجمد صنادلهم فى أقدامهم ، أو أيام الصيف التى ييبس عرقها جلد الصنادل تحت أقدامهم حتى يغدو فى صلابة الرخام . إن غنائم الذهب ، وليست العاطفة ، هى التى جعلتهم يلتحقون بهذه المغامرة التى يتحملونها فى صبر وأناة أولئك الذين ينالون أجرهم بكدهم . وغدت الحياة الخالية من الجنس كسير من جلد يغوص فى أعماق الجسد . كانت الشمس قد لفحتهم وحرقتهم ثم داوتهم وشفتهم وحبس الغبار أصواتهم وغدا من العسير عليهم وقد اشتدت حرارة الشمس أن يرتدوا خوذاتهم المزدانة بريش الشجاعة والتى خرجوا بها لغزوتهم - وأفريقيا التى تراءت لهم امتداداً لأوروبا - امتداداً للحدود ولماض معين - قد أكدت نفسها لهم كشىء مغاير لما تخيلوه عنها : ظلمة منكرة حيث يسابق نقيق الغربان الصرخات الجافة لرجال خارت منهم العزائم ، والضحك بمقدار كهمهمات أطفال القردة الإفريقية .

كانوا يأسرون فى بعض الأحيان أحد الأشخاص - رجلاً وحيداً خائفاً خرج يصطاد الأرنب - وكانت تصيبهم الحيرة عندما يجدون أنه آدمى مثلهم . كانوا

يجردونه من أسماله ويحملقون فى أعضائه التناسلية باهتمام من يتقن عملاً لا يفهمه . وفى بعض الأحيان كانوا ينهبون إحدى الأبروشيات أو عقارات الأثرياء من عند سفوح التلال ، ويتغذون بلحم الدلفين المحفوظ فى الجرار (جنود سكارى يحتفلون فى جرن بين الثيران ، يتطوحون ، يرتدون أكاليل من أوراق نبات برى حاد الأطراف ، ويشربون من أكواب ذهبية أو مصنوعة من قرن الحيوان وقد وقعت غنيمة في أيديهم) كل هذا كان قبل أن يبلغوا الصحراء ...

وعندما تداخلت الطرق قدموا القرابين «لهرقل» (واغتالوا الحارسين فى نفس الوقت ، حتى يضمنوا السلامة لأنفسهم) . ولكن منذ تلك اللحظة سار كل شىء فى الطريق الخاطئ . كانوا يعرفون دون أن يجهروا بأنهم لن يصلوا المدينة أبداً ، وأنهم لن يستولوا عليها . وأنت أيها الإله ! لا تدع الشتاء الذى قضاه الجنود عرايا فى التلال بلا خيام ، يتكرر مرة أخرى . لقد أكل الصقيع الأصابع والأنوف!. والغارات! إنه ما يزال يسمع ضمن ما تعيه ذاكرته من ذكريات ، صوت وقع أقدام الحارس وهى تقرقش وتعصر الجليد طوال الشتاء. لقد كان الأعداء فى تلك المنطقة يرتدون فوق رؤوسهم جلد الثعالب والهامات الكاسرة ، والصيديريات الطويلة التى تغطى سيقانهم . كانوا صامتين ينتمون بصورة فريدة ـــ كما تنتمى الخضرة حولهم ـ إلى تلك الوهاد الحادة والممرات التى تكونها الخطوط الفاصلة الهائلة بين وديان الأنهار التى تقطع الأنفاس .

وغدت الذاكرة ، مع سير الطابور ، أداة تصنع الأحلام التى تجمعها الشرور السائدة فى طائفة من الأفكار القائمة على الحرمان. لقد كان «نسيم» يعرف أن الرجل الهادئ هناك ، إنما يفكر فى الوردة التى عثر عليها فى سريرها يوم الاستعراض الرياضى . وأن الآخر لا يستطيع أن ينسى الرجل ذا الأذن المقطوعة . أما طالب العلم المتأفف والذى أجبر على الخدمة العسكرية فإنه يحس أن المعارك قد أصابته ببلادة الفكر فغدا كالمبولة فى حفل سكر على الطريقة

اليونـانية القديمـة . وذلك الرجل البـدين برائحته الغـريبة كرائحـة الأطفال : وصاحب النكتـة الذى جعل طليعة الجيـش تهدر بالضـحك من قفشاتـه . كان يفكر فى مزيل جديد للشعر من مصر ، فى سريـر علامته التجارية «هرقل» دليل النعومة ، فى حمائم بيضـاء مقصوصة الأجنحة ترفرف حـول مائدة الولائم . لقد كان يقابل طـوال حياته بالضحك الصاخب وتحيات الشبـاشب عند أبواب المواخير . وكان هناك آخرون يحلمون بمتع أقل شيوعاً من تلك المتعة ـ يحلمون بأن يعفروا رؤوسـهم بالأسبيـداج ، أو بالتلاميذ وقد ساروا فى الفجـر عرايا فى طـابـور كل اثنين متجـاورين متجهين إلى مـدرسـة معلم القيثـارة عبر الثلج المتسـاقط الكثيف كالـدقيق . واحتفل العـوام فى الريف «بـديونيس» حـاملين صورة جلدية ضخمة لعضو التذكير رمز التناسل وهم يزمجرون ، ولكنهم ما أن اطلعـوا على الطقوس حتى أخـذوا ملح التقـدمة وصـورة الرمـز فى صمت مرتجف . وتكاثرت أحـلامهم فى أعماق «نسيم» ، الذى ما أن سمعهم حتى فتح طريق الـذاكرة أمام وجـدانه ووعيه فى مهـابة وعظمة كما يفتتح المرء شـارعاً رئيسيًّا .

لقـد كان غـريبـاً أن يتجه إلى جـوار «جـوستين» فى ضوء القمـر الخريفى الأسمر النحاسى عبر ذلـك المد الوبيل من الذكريات : وأحـس بأن كيانه المادى يزيح أحلامه بما له من وزن ثقيل . وتحرك «بلتـازار» ليفسح له مكاناً وهو ما يزال مستمـرًّا فى الحديث إلى زوجته بصـوت منخفض . (لقد شربـوا الخمر فى تـؤدة ولم يتنـاثر منهـا إلا القليل على أرديتهم . لقـد أخبرهـم قـادتهم أنهم لن ينجزوا المهمـة أبداً ، لن يعثروا على المدينـة أبدًا.) وتذكـر «نسيم» فى وضوح ، كيف كانت تجلس «جوستين» متربعة فوق السرير ، بعد أن يضاجعها ، وتبدأ فى ترتيـب رزمة أوراق اللعب القديمـة التى كانت تحتفـظ بها دائماً على الرف بين الكتب ـــ وكأنها تحصى مـا تبقـى لهما من حظ سعيـد بعـد تلك المرة الأخيرة والتى غـاصـا فيهـا فى ذلك النهر التحتى الثلجى من الـوجد والهوى والـذى لم

تستطع «جـوستين» أن تكبته أو تـرويه . (لقـد قال «بلتـازار» ذات مرة : «إن العقول التى تمزقهـا رغباتها الجنسية ، لن تجد الراحـة حتى يقنعها كبر السن والقوى المنهكة بأن الصمت والهدوء ليساعدوين لها»).

هل كان كل ما انتاب حياتهما من تنافر مقياساً للقلق الذى ورثاه عن المدينة أو العصر ، فغالباً ما كان «نسيم» يقول . «أوهْ يا إلهى ، لماذا لا نغادر تلك المدينة يا «جوستين» ، ونبحث عن جو أقل تشبعـًا بهذا الإحساس بالضياع والفشل؟ وحلت بخاطره كلمات الشاعر الشيخ وضغطت عليه كما يضغط العازف مسند القدم فى «البيان» وأخـذت تفور وترتد حول الأمل الـواه الذى نبعت الفكرة من مرقده القاتم .

ليس هناك يا صديقي أرض جديدة ولا بحر جديد

ستتبعك المدينة :

بنفس الأشياء البعيدة عن العقل وهى تنحدر من الشباب إلى الشيخوخة .

فى نفس الشوارع التى تتداخل إلى ما لا نهاية .

وفى نفس البيت سيبيض شعرك .

المدينة قفص

لن تجد نهاية لمطافك غير هذه النهاية .

لن تجد سفينة تحملك . آه . ألا ترى .

كيف حطمت حياتك فى كل الأرض

بمجرد أن ضيعت نفسك هنا فى هذا المكان .

وقال لنفسـه فى هدوء ، وهو يتحسس جبينـه ليرى إذا ما كـانت الحمى قد أصابته : «إن مشكلتى أن المرأة التى أحببتها قد منحتنى شعوراً كاملاً بالرضى دون أن ينال هذا الشعـور ألبتة من سعادتها هى» ، وأخذ يستعيـد فى فكره كل الأوهام التى أخذت تؤكد حقيقتها بدلائل مادية . أعنى أنه قد ضرب «جوستين» حتى آلمه ذراعه وتحطمت العصا بين يديه . لقد كان كل هذا بالطبع حلماً . ومع

ذلك فإنه وجد عندما استيقظ أن ذراعه يؤلمه وأنه متورم . ماذا يصدق المرء عندما تسخر الحقيقة بما يستعرضه الخيال؟

وفى نفس الوقت ، بالطبع ، أدرك «نسيم» إدراكاً تاماً أن معاناته ، وفى الحقيقة كل علته إنما هى بذاتها شكل حاد من أشكال تضخم الذات ، وجاءت كل تعاليم «القابال» كريح لاحقة تنفخ فى احتقاره لذاته ، كان فى وسعه أن يسمع صوت «أفلاطون» يتكلم ، كأصداء بعيدة فى ذاكرة المدينة ، يتكلم عن السير نحو نور جديد ، نحو مدينة من الضياء جديدة . لا عن الهرب بعيداً من ظروف دنيوية غير محتملة . «ومع ذلك فإنها رحلة لا يمكن إنجازها سيراً على الأقدام . انظر إلى أعماق نفسك ، انسحب إلى أعماق نفسك وانظر» غير أن هذا العمل كان هو العمل الوحيد ، الذى أدرك الآن أنه سيعجز دونه إلى أبد الآبدين .

إنه لأمر يثير دهشتى ، أن أتذكر وأنا أسجل تلك الصفحات ، كم كانت الدلائل الظاهرة على سطح حياته ، والتى تعكس ذلك التغير الداخلى ضئيلة للغاية ــ حتى لهؤلاء الذين كانوا يعرفونه معرفة وثيقة . كانت هنالك أشياء قليلة يمكن أن يضع المرء أصبعه عليها ــ مجرد إحساس بأن الأمور ليست كالمعتاد ـ إنها كما يُعزف لحن معروف بطريقة بها بعض النشاز . لقد بدأ فى الحقيقة خلال تلك الفترة فى إقامة الولائم بإسراف لم تعرفه المدينة من قبل حتى بين أوساط أغنى الأسر وأثراها . لم يعد البيت الكبير يخلو الآن من الضيوف . واحتلت جناح المطبخ الكبير حيث غالباً ما كنا نسلق لأنفسنا بيضة أو نغلى كوبًا من اللبن بعد عودتنا من حفلة موسيقية أو مسرحية ـ والذى كان حينئذ متربًا ومهجوراً ـ أورطة دائمة من الطباخين ، الذين يشبهون الجراحين والممثلين بطراطيرهم البيضاء فى لون الدقيق . وكان عدد من العبيد السود يقطعون الحجرات العاوية ، والسلم الطويل ، والقاعات والصالونات حيث يتردد أنين الساعات فى أبهة ، كبجع يقوم بمهام خطيرة . وكانت ملابسهم التيلية البيضاء التى تفوح منها رائحة مكواة القدم نظيفة خالية من البقع ـ وقد

تحزم كل منهم بزنار قرمزي ثبت فى وسطه مشبكاً ذهبيًّا على شكل سلحفاة : هى الرمز التى اتخذه «نسيم» لنفسه . كانت الطرابيش التقليدية القرمزية التى تشبه أصص الورد تعلو عيونهم الناعمة كعيون خنزير البحر ، وأيديهم التى تشبه أيدى الغوريلا موضوعة فى قفازات بيضاء . كانوا صامتين صمت الموت ذاته .

ويمكن القول أن «نسيم» إن لم يكن قد تفوق كثيراً في بذخه وإسرافه على الشخصيات المصرية الكبيرة فمن المحتمل أنه كان يفكر فى أن يبذهم فى هذا المضمار . كان البيت على الدوام مليئاً بالحياة ، إما بالرباعى الموسيقى الرصين الذين يشبه نبات السرخس ، وإما بأصوات الساكسفون العميقة والتى تشكو لليل كما يشكو زوج تخونه زوجته .

وفتحت خلوات وأركان مفاجئة فى حوائط حجرات الاستقبال الجميلة الطويلة لزيادة قدرتها الكبيرة بالفعل على استيعاب الجلوس . وفى بعض الأحيان كان يجلس إلى عشاء فاخر لا معنى له أكثر من مائتى أو ثلاثمائة ضيف ـ يرقبون مضيفهم وقد غرق فى تأمل وردة ترقد أمامه فى طبق فارغ . ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يكن الشيء الوحيد الذى يلفت الأنظار فيما ينتابه من ذهول . فقد كان يبتسم ابتسامة مفاجئة لحديث تافه يدور إلى جواره، يبتسم كما يبتسم امرؤ يزيح كوبًا مقلوبًا ، ليكتشف نوعًا من المخلوقات الحشرية النادرة لا يعرف اسمه العلمى ، كان الكوب يخفيه أسفله .

ما الذي يمكن إضافته إلى ما سبق ؟ كان من العسير أن يلحظ المرء أي مظهر من مظاهر الإسراف البسيط في ملبسه كشخص كانت تبدو ثروته على الدوام وكأنها تتناقض بطريقة شاذة مع ذوقه في ارتداء « بناطيل » من الفانلة وسترات من التويد . ولقد بدا الآن في حلته « الشاركسكين » الناعمة كالثلج والزنار القرمزي كما كان يجب أن يبدو على الدوام ـ أغنى رجال الأعمال بالمدينة وأكثرهم وسامة ، هؤلاء اللقطاء الحقيقيون . وأحس الناس أنه قد

احتل مكانــه أخيرًا . فهكذا يجب أن يعيش شخص لــه مقامه وثـروته . واشتم رجال السلك الـدبلوماسي وحـدهم من هذا البذخ الحديث ، رائحــة خطة تكمن وراءها دوافع خفيــة ، ربما كانت مؤامــرة لأسر الملك . وبدأوا بأدبهم المدروس يكثرون من التردد على مرسمه . كان في استطاعة المرء أن يحس بالفضول القلق خلف سمات وجوههم المزوقــة الخاملة ، والـرغبة في معـرفة دوافع « نسيم » ونواياه . ففي تلك الأيام كان الملك ضيفًا كثير التردد على المنزل الكبير .

في تلك الأثناء لم يعكس كل هذا أي تحسن على الوضع الأساسي . وبدا الأمر وكأن العمل الذي انتواه «نسيم » ينمو في بطءلا نهائي . مثل « الستالاكتيت » ، مثل الترسيبات التي تتكون مدلاة من سقوف الكهوف ، أي أنه كان هناك وقت يملأ فراغ المسافة بين التدبير والتنفيـذ ـ الصواريخ تشق طريقًا من الشرر عبر السماء التي تشبــه القطيفـــة : وتخترق الليل أبعـد وأبعـد حيث أرقـــد أنـــا و «جوستين » كل منا يمسك الآخر بين أحضانه ، وفي عقله كان المرء يرى في حياة النافـورات الساكنة خيــالات الوجوه الآدمية ، وقـد أشعلتها النجوم الـذهبية والقرمـزية أثناء ارتفاعهــا وهي تئز في السماء كالبجع العطشـــان . وفي الظلام وضعت يدها الدافئة على ذراعي ، وكان في وسـعي أن أرقب سماء الخريف وقد راحت في رجفـات من الضيــاء الملــون في هدوء كهـدوء شخص انحسرت عنــه وتنـاثرت آلام عــالم الإنسان التي لا تستحق شيئـًا . كالألم عنـدما يظل مـدة طويلة ، ثم ينتشر كالطوفان من عضو محدد ليغمر منطقة كاملة من الجسد أو العقل : ولم تفعل الأخاديد الجميلة التي خلفتها الصواريخ وراءها فوق صفحة السماء أي شيء بنا غير أن تملأنا بإحساس الانبهـار الذي ينسجم مع الطبيعة الكاملة لعالم الحب الذي كان على وشك أن يهجرنا.

كانت تلك الليلة على وجه الخصـــوص مليئة بوميض البرق الصيفي النادر : وما أن أنتهى هذا العرض حتى جاءت من الشرق ـ من الصحراء ـ قشرة رقيقة من الـرعد تشبه في شكلهـا قشرة قرحــة فوق الصمت الشجي . وسقــط مطر

خفيف ، فتى ومنعش ، وللحال امتلأ الظلام بأشباح تسرع عائدة لتحتمى بالمنازل المضاءة ، ورفعت الملابس فوق مفصل القدم وعلت الأصوات في لهو صاخب . وتركت المصابيح للحظة قصيرة آثار أجسادها العارية فوق المواد الشفافة التي تحيط بها . أما نحن فقد اتجهنا في صمت إلى داخل إحدى المظلات التي تقع خلف السور الذي تغطيه النباتات الحلوة الرائحة ، ورقدنا فوق دكة حجرية منحوتة على شكل بجعة . وتدفق الجمع الثرثار الضاحك مارًّا بمدخل المظلة متجهًا نحو الضوء ، ورقدنا في أرجوحة من الظلام نحس وخزات المطر اللطيفة فوق وجوهنا . وأضاء رجال يرتدون سترات العشاء آخر المصابيح الكهربية في جسارة ، ورأيت من خلال شعرها آخر المذنبات الباهتة وهي تنزلق إلى أعلى فى الظلام . وتذوقت ، مع متعتى بالألوان التى توهجت في رأسي ، ضغط لسانها الداقْ البرىء على لسانى ، وذراعاها على ذراعي . وعجزنا عن الكلام ـ من فرط سعادتنا ، كنا ننظر باستمرار إلى بعضنا البعض بعيون مليئة بدموع متحجرة .

ومن المنزل وصلت إلى أسماعنا أصوات « طقطقة » سدادات زجاجات الشمبانيا وضحكات البشر .

« إننا الآن لا نقضي ليلة واحدة بمفردنا » .

« ماذا يحدث « لنسيم »؟ »

« لم أعد أعرف شيئًا . فعندما يود أحد أن يخفي شيئًا ما فإنه يتحول إلى ممثل . ويفرض هذا على كل من يحيطون به أن يمثلوا بنفس قدرته » .

لقد كانت الحقيقة أن نفس الرجل يسير على سطح حياتهما المشتركة ـ نفس الرجل المجامل ، الرقيق ، الدقيق : ولكن كل شيء كان قد تغير بصورة مخيفة ، لم يعد له وجود في حياتهما . « لقد هجر كل منا الآخر » . قالتها في همسة صغيرة لاهثة وهي تضغط نفسها أكثر قربًا مني مما صعد بمشاعرنا إلى قمتها ورنت قبلاتنا التي كانت خلاصة كل ما شاركناه سويًا . فأمسكنا بهافي قلق

للحظة بين أيدينـا ، قبل أن تغيض في الظلام المحيط بنا وتذهب عنـا بلا عودة . ومع ذلك فقد بـدت وكأنها تقول لنفسها في كل معانقـة : « ربما كان من خلال هذا الشيء بالذات والذي يؤلم أشد الألم والذي لا أرغب في أن ينتهي أبدًا ـ ربما من خلاله سأجد طريقي إلى « نسيم » مرة أخرى » . وامتلأت نفسي فجأة بكآبة تفوق طاقتي واحتمالي .

وانتـابتني فيما بعد ، بينما كنت أسير في الحي الـوطني بضجته الشديـدة وأنواره النفاذة ورائحـة الملابس الداخلية ، انتابتني الحيرة كما كـانت تنتابني على الـدوام . إلى أي مصير تقـودنا الأيـام . وكأنما أردت أن أختبر صـدق تلك العواطف التـي يمكن أن يقوم عليها الحب والقلق إلى حـد كبير ، فملت إلى كشك يغمره الضياء وتزينه قطعـة من إعلان سينمائي ـ نصف وجه كبير لعاشق في أحد الأفلام ، صورة لا معنى لها تشبه بطن حوت مقلوب بعد موته ـ وجلست على الكـرسي المخصص للزبـائن ، كما يفعل الإنسـان في دكان الحلاق منتظـرًا دوره . كـانت تتدلى على البـاب الداخلي ستـارة قـذرة وكانت تأتي من خلفهـا أصوات خافتة مثل تلك الأصوات التي تصـدر عن اجتماع مخلوقات لا يعرفها العلم . ولم يثر مـا يحدث سـخطي ـ ولكنه في الحقيقة أثـار فضولي كما تستثير العلوم الطبيعية فضول هؤلاء الذين كفوا عن ادعاء الأحاسيس المهذبة . كنت في ذلك الـوقت سكرانـا مرهقـا . سكـرانًا « بجـوستين » قدر سكـري « بالبـول روجيه» .

كان هنـاك طربـوش موضوعـا على كرسي مجاور لي ، فـوضعته على رأسي دون أن أدري . كـان دافئًا ولـزجـا بعض الشيء من داخلـه ، والتصق الشريط الجلـدي السميك المبطن للطربـوش بجبهتي . وقلت لنفسي وأنـا أنظر في مـرآة لصقت شقوقها بأطراف الأوراق الصمغيـةالتي تحيط بورق البريد : « أريد أن أعرف مـاذا يعني هذا الأمر حقًـا » . كنت أقصد بـالطبع كل تلك الحيرة الهائلة للجنس ذاتـه ، أقصد عمليـة الإيلاج التي يمكن أن تقـود الإنسـان إلى الشعـور

باليأس والقنـوط من أجل مخلوقة لها نهدان وهلال كما تصـورها لغة الشرق العاميـة الزاهية . وارتفع في الـداخل صوت أنين لعوب وصريـر ، صوت آدمي ملتهب يضاف إلى صوت هزات سريـر قديم تغطيه الأخشاب . وأغلب الظن أن هذه العملية التي تحدث هي بعينها العمليـةالتي كنا نمارسـها أنا و«جوستين » مع كل سكان هـذا العالم المشترك الذي ننتمـى إليه ؛ وكيف يمكن أن تختلف ؟ وإلى أي مدى حملتنـا مشاعرنـا بعيدًا عن حقيقـة العملية الحيوانيـة البسيطة المجردة نفسـها ؟ وإلى أي مدى كان العقل الغدار مسئـولاً ـ بقائمة الأشياء التي لا حد لها واللازمـة للقلب كي يتعقل ؟ كنت أود إجابة عن سـؤال لا جواب له . كنت متلهفًا للـوصول إلى يقين في هـذا الأمر ، حتى لقـد بدا لي أنني لـو فاجأت العملية في حالتها الطبيعية ، دافعهـا المال لا الحب ، ومع ذلك فهذا الأمر لا يؤثر عليها ، فقد أتعـرف على حقيقة مشاعري ورغبـاتي . ورفعت الستائر فقد كنت أتعجل إنقـاذ نفسي من السؤال ، وخطـوت في خفة إلى داخل الحجـرة الصغيرة للغـاية والتي كـانت مضـاءة بمصباح نفطي كـان يطن ويترنح وقـد خفضت شعلته .

كانت تحتل السريـر كتلة من اللحم غير واضحة المعالم تتحـرك في أكثر من وضع في ذات الوقت ، تهتز بطـريقة غامضة ككومـة من النمل . ولقد استغرق الأمـر مني بعض الوقت حتـى استطعت أن أتبين فخذي رجل متقـدم في السن شاحبة ومليئـة بالشعر ، من فخذي شريكته ــ البيضاوين بميل للون الأخضر واللذان يتمتعان باستدارة نسائيـة ، لها رأس كرأس حية « البواء » العاصرة ـ رأس يتوجه شعر أسود خشن يثير الضيق يتبع حركتها وقد تدلى فوق أطراف الحشية القذرة . ولابـد أن ظهوري المفاجئ قد أوحي لهما بكبسـة بوليسية إذ تبع ظهـوري شهقة ثم صمت مطبق . وبـدا الأمر وكأن جبل النمل قـد أصبح خاليًا من الحياة . وأنّ الرجل ونظر في اتجاهي بسرعة وفي ذعر ، ثم دفن رأسه بين نهدي المرأة الضخمين وكأنـه يهرب بـذلك مـن افتضـاح أمـره . كـان من

المستحيل أن أوضح لهما أنني لا أتحرى شيئًا على وجه الخصوص غير تلك العملية التي يمارسانها سويًا . وتقدمت نحو السرير في حزم وفي اعتذار ، وأمسكت قضبان السرير الصدئة بيدي وحملقت إلى أسفل بطريقة أسبغ عليها بالضرورة جو البحث العلمي . ولكني لم أكن أحملق فيهما فقد كنت أعي وجودهما بصعوبة كنت أحملق في نفسي و « جوستين » ، في نفسي و «ميليسا » . وتحولت المرأة تنظر إلىَّ بعينين مرتبكتين سوداوين سواد الفحم وقالت شيئًا باللغة العربية .

ورقدا هناك كضحيتين من ضحايا حادثة رهيبة ، منهمكين فيما يؤديان بطريقة حمقاء خالية من الإتقان، وكأنهما بهذا النمط المفكك من الممارسة أول رجل وامرأة في تاريخ الجنس البشري يستنبطان هذه الوسيلة الخاصة للاتصال الجنسي . وبدا وضعهما المضحك والذي لا انسجام فيه وكأنه نتاج بعض المحاولات البدائية التي يمكن أن تتطور ، بعد قرون من التجربة إلى قدرات جسدية على قدر عال من التجانس كأوضاع البالية . غير أني أدركت رغم ذلك أن هذا الوضع من العلاقة الجنسية والذي يحمل طابع المأساة إلى الأبد ويثير الضحك قد ثبت بلا تغيير ولا تطوير . من هذا الوضع انطلقت كل مظاهر الحب التي استخدمها الشعراء ومجانين الرجال ليزينوا بها فلسفتهم عن أشكال السمو والتفوق المؤدبة . من هذا المكان ابتدأ المرض والجنون نموهما ، وإلى هنا أيضًا يعود ذلك القرف والغم الذي يكسو وجوه من تزوجوا منذ عهد بعيد . وقد قيد كل منهم إلى ظهر الآخر ، حتى يمكن القول أنهم كالكلاب وقد عجزت عن الانفصال بعد السفاد .

وفاجأتني جلجلة الضحكة الناعمة المتكسرة التي صدرت عني ، غير أنها أكدت لهما ماهيتي . ورفع الرجل وجهه بضع بوصات وتصنت بانتباه كأنما يؤكد لنفسه أنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الضحكة عن رجل من رجال البوليس . واطمأنت المرأة لوجودي فابتسمت ، وصاحت وهي تلوح بيدها

البيضاء البشرة وتشير نحو الستارة : « انتظر لحظة واحدة ، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً» . وأتى الرجل ، وكأنما قد أحس التوبيخ في لهجتها ، ببعض الحركات التشنجية ، كأنه مشلول يحاول السير ــ تدفعه إلى ذلك أنقى مشاعر المجاملة لا دواعي اللذة ، وكشف التعبير المرتسم على وجهه عن أدب فائق ـ كالأدب الذي يتحلى به شخص في ترام مزدحم عندما ينهض كي يعطي مكانه لأحد مشوهي الحرب . وصدر عن المرأة صوت «كقباع» الخنزير وتقلصت أطراف أصابعها .

وخطوت إلى الشارع مرة أخرى وأنا أضحك وقد تركتهما خلفي هناك في حالة من الوفاق غير المتقن لأقوم بجولة في الحي الذي ما يزال يطن بحياة الرجال والنساء تلك الحياة المتميزة الساخرة . كان المطر قد توقف والأرض الرطبة تخرج رائحة الطمي والأجسام والياسمين الذابل ، رائحة حلوة تثير في النفس الشجن . وأخذت أسير في بطء شديد ، وقد انتابني ذهول عميق ، وأخذت أصف لنفسي في كلمات كل هذا الحي من أحياء « الإسكندرية » فقد كنت أدرك أن النسيان سيطويه في القريب وأن أحدًا لن يعود لزيارته غير هؤلاء الذين استولت المدينة المحمومة على ذكرياتهم ، عالقة بعقول عجائز الرجال كما تعلق آثار العطر بالأكمام، « الإسكندرية » ، عاصمة الذكرى . كان الشارع الضيق مرصوفًا بالآجر الذي تفوح رائحته ، كان المطر قد جعله هشًا غير أنه لم يكن مبتلاً . وقد اصطفت أكشاك العاهرات الملونة على طول الشارع ، كن يعرضن أجسادهن المثيرة الرخامية بطريقة محتشمة أمام منازلهن التي تشبه منازل الدمى ، وكأن كلا منهن تجلس أمام ضريح مقدس . كن يجلسن على قارعة الطريق على كراسي ذات ثلاثة أرجل يرتدين شباشب ملونة وكأنهن عرافات . وكانت غرابة الإضاءة تضفي على المشهد كله ألوانًا رومانتيكية نابضة ، فبدلاً من أن يضاء الشارع بالضوء الكهربائي من أعلى أضيء الشارع كله بمجموعة من مصابيح الكاربيد النفاذة وقد وضعت على الأرض : كانت تلقي إلى أعلى

زوايا وأسقف منازل الدمى المائلة ، على أنوف وعيون سكانها ، على الظلام المستسلم الناعم كالفرو ، بظلال ظامئة بنفسجية مشحونة بالبهجة . وسرت فى بطء بين تلك الزهرات الآدمية الشاذة . أفكر في أن المدينة كالإنسان تجمع ميولها وشهواتها ومخاوفها . إنها تنمو حتى تبلغ النضج وتقدم أنبياءها ، ثم تنحدر إلى التبلد أو الشيخوخة أو الوحدة وهي أسوأ من كليهما . والأحياء لا يزلن يجلسن على قارعة الطريق ، لا يدرين أن أمهن المدينة تموت ، يجلسن كالتماثيل المنصوبة يسندن الظلام ، وآلام المستقبل ترقد فوق جفونهن ، ترقب في يقظة ، الباحثين عن الخلود عبر كل تنبؤات الزمن .

هناك كشك مدهون مزخرف بأزهار السوسن ، وقد رسمت بعناية وبطريقة صحيحة باللون الأزرق الغامق على أرضية في لون الخوخ . وعلى بابه جلست صبية زنجية ضخمة يميل لونها إلى الزرقة ، ربما لم تكن تتعدى الثامنة عشرة من عمرها ، ترتدي قميص نوم أحمر من الفانلة يشبه بصورة مبهمة ملابس الإرسالية . وقد وضعت على رأسها السوداء بشعرها الذي يشبه جزة الغنم تاجًا من زهور النرجس يخطف الأبصار . وجمعت يديها في تواضع في حجرها ــ فبدى كفوطة مليئة بالأصابع المقددة . كانت تشبه أرنبًا كالملاك يجلس عند مدخل جحره . وجلست عند الباب المجاور لها امرأة هشة كورقة الشجر ، وبعدها أخرى تشبه مركبًا كيمائيًّا غسلته الأمونيا ودخان السجائر . وفى كل مكان فوق تلك الجدران المبنية المترنحة رأيت تعويذة المدينة الرئيسية ــ نقش كف ممدودة الأصابع تسعى إلى رد الأهوال التى احتشدت فى الظلام خارج المدينة المضاءة . لم تكن تصدر عنهن وأنا أسير الآن بينهن صرخات البشر الساعين خلف المال ، ولكن نداءات كمناغاة اليمام ، ومتلأت أصواتهن الهادئة الشارع بسكون كسكون الأديرة . إنهن لا يعرضن الجنس فى تلك العزلة الفظيعة ، التى يعشنها بين الشعلات الصفراء ، ولكنهن يقدمن، باعتبارهن بنات أصيلات « للإسكندرية » ، النسيان العميق الذى يمنحه

المخاض والميلاد ، وهـو مزيج من متع جسدية يحصـل عليها الإنسان دون أن يحس بالنفور أو الاشمئزاز .

واهتزت منـازل الدمى وتمايلت للحظة عنـدما اقتحمت رياح البحـر المكان تهجم على قطع الملابس النسـائية وتضغط الحواجـز غير المثبتة . وكـان الباب الخلفى لأحد المنازل لايستره غطـاء ولذا كان فى استطاعة النـاظر عبر الباب أن يلمح فناء به شجرة نخيل عاجزة عن النمـو . وقد جلست ثلاثة فتيات يرتدين ملابس فضفاضة ممزقة على كراسى حول نار تصعد ألسنتها من جردل ملىء بنشارة الخشب المشتعلـة . كن يتحدثن بأصـوات خفيضة وقد مـددن أطراف أصابعهن إلى النـار الهزيلة . وبدون مستغـرقات نـائيات وكأنهن كن يجلسن حول نار مخيم فى مناطق «الاستبس» .

(كان فى وسعى أن أرى فى خلفية عقلى شطآن الثلـج الضخمة ـ أكوام الثلج حيث ترقـد زجاجات الشمبـانيا فى منـزل «نسيم» ، تلمع بلون أخضر يميل إلى الزرقـة كسمكة عجـوز من أسماك «الشبوط» فى بـركة مـاء عاديـة . وشممت أكمامى كأنما أسترجع ذاكرتى بحثًا عن آثار عطر «جوستين») .

وأخيرًا ملت إلى مقهى خالٍ حيث تنـاولت فتجانًا من القهوة قـدمه إلىَّ خادم صعيدى ، كان حَوَل عينيه الغَريب يبدو وكأنه يضاعف كل شىء يحملق فيه . وتكومت امـرأة عجوز للغايـة على صندوق كبير فى ركن المقهى البعيـد ، كانت تجلس سـاكنة حتى أنى لم أرهـا فى بادئ الأمـر، وقد أخـذت تدخن النـرجيلة وتطلق من حين لآخر كركرة ناعمـة كصوت هديل اليمام . وهنا استعرضت فى مخيلتى القصة كاملة من أولها إلى آخرها ، مبتدئًا بتلك الأيام التى لم أكن أعرف فيهـا «ميليسا» ومنتهيـاً إلى القـريب العاجل فى مكـان مـا حيث سأموت ميتـة تافـهة ، ميتـة من حشر نفسه فيما لا يعنيه ، فى مدينـة لا أنتمى إليها . قلت إنى استعـرضت القصة فى مخيلتى ، غير أن الغـريب حقـاً هـو أننى لم أفكر فيهـا كتـاريخ شخصى لـه طابع فـردى بقـدر مـا فكرت فيهـا كجـزء من النسيج

التاريخى لهذا المكان . لقد صورت الأمـر لنفسـى على اعتبار أنه جزء لا ينفصل عن سلـوك المدينة ، يتطـابق تمام التطابق مع كل مـا سبقه من قبل ، وبكل مـا سيلحقه من بعد . كان الوسط المحيط بى قد خـدر خيالى بدهاء حتى أنه لم يعد قادرًا على الاستجابة لأى تقييم شخصى أو فردى . لقد فقدت القدرة حتى على الشعـور بما يثيره الخوف من رجفـة . وإنـى لأشعـر على وجـه الخصـوص بالأسف الشديـد من أجل هذا الخليط الذى أصفه فى مخطـوط مذكراتى والتى يمكن أن أتـركهـا من بعـدى . لقـد كنت أكـره على الـدوام الأعمال النـاقصـة والشذرات وقررت ضرورة إتلافها على الأقل قبـل أن أخطو أية خطوة أخرى . ونهضت على قدمىَّ ـ وصدمنى عندئذ خاطـر مفاجئٌ هو أن الرجل الذى رأيته فى الكش كان «منمجيان» . كيف حدث أن أخطأت هذا الظهر المشوه ؟ وسيطرت علىَّ هذه الفكرة وأنا أعود أعبر الحى ، متجهـًا إلى حيث الشوارع العمومية أكثر اتسـاعـًا ناحية البحر . وسرت خـلال هذا السراب من الأزقة الضيقة المتقـاطعة كما يجوس المرء أرض معركة ابتلعت كل أصدقـاء شبابه، ورغم ذلك ، لم يكن فى مقدورى إلا أن أحس البهجة لكـل ما أشمه أو أسمعه ـ أحس بهجـة من نجا وعاش . وهنا فى أحد الأركان وقف لاعب يبتلع النيران وقد استدار بوجهه نحو السماء يبخ من فمه عمودًا من اللهب يتحول عند أطرافه إلى دخان أسود متطاير وقد فتح فى السماء ثقباً . كان يأخذ من حين لآخـر جرعة كبيرة من زجاجة بها بترول قبل أن يلقى برأسه إلى الوراء مرة أخرى ويطلق شعلات النار إلى ارتفاع ستة أقـدام . وترامت فى كل كل ركـان خيالات بنفسجية ، أحـاطت بها تجربة إنسانية ـ وحشية ورقيقة الأحاسيس فى ذات الوقت . واعتبرت إحساسى بأنى لم أعد أمتلئ بشعور الـرثاء على حالى ولكنى أمتلئ برغبة فى أن تـدعونى المدينة واحـداً منها ، أن تسجلنى بين ذكـرياتها التـافهـة أو المأساويـة ـ إن شـاءت ، اعتبرت ذلك مقياساً لنضجى .

وما إن وصلت إلى شقتى الصغيرة حتى نبشت كراسات التمارين الرمادية

التى كتبت فيها مذكراتى بلا عناية وبنفس القدر من طبيعتى لم أعد أفكر ف إتلافها على الإطلاق . جلست هناك فى ضوء المصباح وأضفت إليها أشياء جديدة بينما «بومبال» يتحدث عن الحياة وهو جالس على المقعد المريح ذو المساند .

ما أن عدت إلى حجرتى حتى جلست صامتاً ، أصغى إلى نغم عطرها النفاذ الذى أعتقد أنه مركب من اللحم والفضلات والنباتات ، وقد تداخلت كلها ف كيانها الذى يشبه الحرير الكثيف . إنه نوع غريب من الحب لأنى لا أحس بأنى أمتلكها ـ ولا إرغب حقًّا فى امتلاكها ـ إن الأمر يبدو وكإننا لم نلتق إلا فى امتلاك كل منا لذاته ، وغدونا شريكين لفترة مشتركة من فترات نمونا . إننا فى الحقيقة نهين الحب ذاته لأننا قد أثبتنا أن أواصر الصداقة أقوى من الحب . إن تلك المذكرات ، إذا قدر لها أن تقرأ ، لا تعنى أكثر من تعليق ودى شديد الحرص عن عالم ولدت فيه لأقضى أشد اللحظات وحدة لحظات المضاجعة ــ مع «جوستين» . إننى لا أستطيع الاقتراب من الحقيقة أكثر من ذلك .

منذ فترة قريبة ، عندما غدا من العسير رؤيتها لسبب أو آخر ، وجدت نفسى فى اشتياق شديد إليها حتى أنى قطعت الطريق كله إلى «بيترانتونى» لأحاول شراء زجاجة من زجاجات العطر الذى تستعمله . ولكن بلا جدوى ، فقد بللت الفتاة المهذبة والتى تعمل مساعدة للبائعة راحتى بكل أنواع العطور التى لديها واعتقدت مرة أو مرتين أنى أشم عطرها . ولكن عبثاً . كان هناك شىء مفتقد على الدوام ـ أعتقد أنه الجسد الذى يوضع العطر فوقه . كان الشىء المفتقد هو ما يعتمل فى داخل الجسد ذاته . وعندما فقدت الأمل ذكرت اسم «جوستين» وللحال استدارت الفتاة إلى أول زجاجة عطر كنا قد جربناها ، وسألت وقد بدا عليها أنه قد أسىً إلى تخصصها : «لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟» كانت لهجتها تعنى أن كل امرئٍ يعرف العطر الذى تستخدمه «جوستين» ما عداى . ومع ذلك لم أستطع التعرف عليه . ودهشت إذ اكتشفت

أن عطر «جاميه ده لاف» لم يكن من بين العطور الغالية أو المستوردة .

«(عندما أخذت الزجاجة الصغيرة التي عثروا عليها في جيب صيديرية «كوهين» إلى منزلي ، كان طيب «ميليسا» ما زال حبيساً هناك . كان من الممكن اكتشافه)» .

كان «بومبال» يقرأ بصوت عال تلك العبارة الطويلة الفظيعة من كتاب «عادات» والتي يطلق عليها اسم «الدمية تتكلم» . كانت «جوستين» تقول ، إني لم أعرف ألبتة الانطلاق والانعتاق في كل تلك الصدامات التي وقعت عن طريق الصدفة . بيني وبين ذكر الحيوان ، مهما كانت التجارب التي أخضعت لها جسدي . إنني أرى دائماً في المرآة صورة الجنون يصرخ وقد بلغ الشيخوخة : «لقد فاتني حبي لذاتي . حبي أنا . كرامتي . حبي لذاتي . لم أتألم ألبتة ، لم أحظ أبداً بمتعة بسيطة ولذيذة» .

ولم يتوقف «بومبال» إلا ليقول : «لو كان هذا الكلام حقًّا ، فقد اتخذت أنت من مرضها وسيلة لحبها» . ووقعت عليّ تلك الملاحظة كما يقع طرف فأس يمسك بها شخص يتمتع بقوة هائلة وخارقة على جذع شجرة .

وغمر «نسيم» شعوراً سحريًّا بالارتياح ، عندما حل موعد الصيد السنوي الكبير في بحيرة «مريوط» ، لقد أدرك أخيراً ان ما كان عليه أن يقرر عمله سيتقرر في هذا الوقت وليس في أي وقت آخر . كان يبدو كرجل قاوم بنجاح مرضاً طويلاً . هل كان حكمه خاطئاً حقًّا إلى هذا الحد رغم أنه لم يكن يعي هذا الحكم ؟ لقد ظل خلال سبع سنوات من الزواج يردد كل يوم . «إنني في غاية السعادة» ـ كلمات مشئومة كضربات ساعة جد عجوز يزحف الصمت عليها بلا توقف . والآن لم يعد في وسعه أن يقول تلك الكلمات مرة أخرى . إن حياتهما المشتركة تشبه سلكاً مدفوناً تحت الرمال ، قطع بطريقة غامضة في نقطة يستحيل اكتشافها ، فألقى بهما في ظلام دامس غير مألوف .

إن الجنون لم يأخذ بالطبع في اعتباره الظروف المحيطة بنا . لقد بدا وكأنه

قد ركز نفسه كلية فوق حالة قائمة بذاتها ، وليس فوق حالات الأشخاص الذين تعذبوا عذاباً يفوق حدود الصبر والاحتمال ـ لقد شاركنا جميعًا على نحو حقيقى فى هذا الجنون ، رغم أن «نسيم» وحده ، كشخص ، هو الذى أخرجه إلى حيز الوجود ، مجسداً إياه كمثل حى . لقد استمرت المرحلة السابقة على الصيد الكبير فى «مريوط» ما يقرب من شهر ـــ لقد كانت بالتأكيد أكثر من ذلك قليلاً إلا أن أحداً ممن كانوا لا يعرفون أمره لم يلحظ أى شىء . ورغم ذلك ضاعفت أوهامه نفسها حتى أن ما سجله من ذكريات يعطى المرء إحساساً كإحساس الذى يرقب تكاثر البيكتريا تحت المجهر ـ تكاثر الخلايا الصحيحة بصورة غزيرة كما يحدث فى السرطان ، وقد جنت الخلايا ونفضت عن نفسها قدرتها على قمع ذاتها .

كانت سلسلة الرسائل السرية الغامضة التى تحملها إليه أسماء الشوارع التى يمر بها تكشف عن رموز مؤكدة لا يمكن دحضها تصدر عن قوة خارقة للطبيعة تنذر بكل قوة بعقاب غير مرئى ـ غير أنه لم يكن يعرف إذا ما كان هذا العقاب موجهاً إليه أم إلى آخرين. كذلك رؤيته لمقالة «بلتازار» وقد رقدت ذابلة الأوراق فى واجهة إحدى المكتبات ، ومروره فى نفس اليوم بقبر أبيه فى مدفنة اليهود ـــ وقد حفرت على حجر القبر تلك الأسماء التى يتميز بها اليهود الأوربيين والتى تعكس كل الخلل العقلى الذى يعانونه فى المنفى .

ثم تأتى مشكلة الأصوات التى يسمعها فى الغرفة المجاورة : صوت نفس ثقيل . صوت «بيانات» ثلاث يُضرب عليها فجأة وفى ذات الوقت . كان «نسيم» يرى أن هذه الأشياء ليست أوهاماً ولكنها حلقات فى سلسلة خفية لا يراها ، ولكنها لا تبدو منطقية ومقنعة إلا للعقل الذى تخطى حدود «السببية» . وغدا التظاهر بالعقل فى إطار مقاييس السلوك العادية أصعب وأصعب . كان يمر بحالة من الدمار التى وصفها «سويدنبرج» .

واشتعلت نيران الفحم متخذة أشكالاً غريبة . كان فى مقدوره أن يثبت هذا

الأمر بإشعال النيران مرة أخرى ليتحقق من اكتشافاته ـ مناظر ووجوه مفزعة . كما كانت الوحمة التى على رسغ «جوستين» تثير الضيق فى نفسه . كان خلال فترات الأكل يكبح رغبة تراود نفسه فى أن يلمسها ، يكبح نفسه بصورة حادة حتى أنه كان يشحب ويكاد أن يغمى عليه .

وذات أصيل أخذت ملاءة مجعدة تتنفس واستمرت كذلك لمدة تقرب من نصف ساعة ، متخذة هيئة الجسد الذى كانت تغطيه . كما استيقظ ذات ليلة على دوى أجنحة ضخمة فرأى مخلوقاً يشبه الوطواط له رأس «كمان» وقد استقر على حافة السرير .

ثم ما تقوم به قوى الخير من أعمال مضادة ـ رسالة حملتها إليه خنفساء ملونة حطت فوق كراسة يومياته التى كان يكتب فيها ، معزوفة «بان» للموسيقى «ويبر» تعزف كل يوم ما بين الثالثة والرابعة على «بيان» فى المنزل الملاحق لمنزله . وأحسن أن عقله قد غدا ساحة صراع لقوى الخير والشر وأن مهمته هى أن يشد كل عصب من أعصابه ليتعرف عليها ، إلا أن هذا لم يكن أمراً سهلاً . كان عالم الشواذ قد بدا يمارس حيَله عليه حتى أن أحاسيسه بدأت تتهم الحقيقة ذاتها بالتناقض والتباين . كان معرضاً لخطر انهيار عقلى .

وأخذت صديريته « تتكتك » ذات مرة وهي معلقة على ظهر أحد الكراسي ، وكأنما تسكنها مستعمرة من نبضات قلب غير قلبه . غير أنها توقفت عند فحصها ورفضت أن تستمر فيما تقوم به من أجل خاطر « سليم » الذي استدعاه «نسيم » إلى الحجرة . ورأى ذات يوم الحروف الأولى من اسمه منقوشة بالذهب فوق إحدى السحب وقد انعكست صورتها في واجهة إحدى المحلات في شارع « سانت سابا » . وبدا أن هذا الأمر برهان على صحة كل شيء.

وأحس عندما سار يقطع « شارع فؤاد » بطوله أن الرصيف كله قد تحول تحت قدميه إلى إسفنج ، وخيل إليه قبل أن يختفي هذا الوهم أن يغوص فيه حتى وسطه . واستيقظ عصر هذا اليوم في الثانية والنصف من نوم محموم ثم

ارتـدي ملابسـه واتخذ سمته إلى « بـاسترودي » ومقهى « دوردالي » ليؤكـد إحساسًا لم يستطع الخلاص منه بأنهما خاليان .

وكانـا بالفعل كذلك ، فملأه ذلـك بشعور من الارتياح الظافـر ، غير أن هذا الشعور لم يعمر طويلاً ، فقد أحس فجأة وهو عائد إلى حجرته وكأن قلبه يُطرد من جسده عن طريق الحركات الآلية القصيرة لمضخة هوائية . ووصل به الأمر إلى حد أنـه بدأ يكره ويخاف تلك الحجـرة . كان يقف مصغيًا لمدة طـويلة حتى يواتيـه الصوت من جـديد ـــ صوت انـزلاق الأسلاك وهي تمد فـوق أرضية الحجرة ، ضجة حيوان صغير ، صرخاته والبعض يكتم أنفاسه بينما كان يلفه ليضعـه في كيس . ثم سمع في وضـوح صـوت مشـابك الحقـائب وهي تغلق وتطقطق وصوت تنفس شخص ما كان يقف خلف الباب المجاور يتصنت لأقل الأصـوات . وخلع « نسيم » حـذاءه ودخل على أطـراف أصـابعه إلى النـافـذة ليحاول رؤية ما في الحجرة المجـاورة لقد خيل إليه أن قاتله ، رجل كبير السن ، ضخم الجثة حـاد التقاطيع ، لـه عينان حمراوان غـائرتان كعيني الـدب . كان عاجزًا عن إثبات ذلك . ثم ما رآه وأثار الفزع في نفسه ، عندما استيقظ مبكرًا في اليوم الذي يجب أن توجه فيه الدعوات للصيد الكبير ، فرأى ، من نافذة حجرة نومه رجـلان يرتديان الملابس العـربية وقد بدت الريبـة عليهما وهما يربطان حبلاً إلى شيء كالـرافعة موجودًا على سطح المنزل . وأشارا إليـه وتحدثا معًا في صوت منخفض. ثم بدآ ينزلان إلى قارعة الطـريق شيئًا ثقيلاً ملفوفًا في معطف من الفرو .

وأخذت يداه ترتعشان وهو يملأ مـربعات الدعوات الكبيرة البيضاء بخطه المنساب الجميل ، منتقيـًا أسماء مدعويـه من قائمـة ضخمة مكتوبـة على الآلة الكاتبة كان « سليم » قد وضعها على المكتب . و مع ذلك فقد ابتسم عندما تذكر المساحة الكبيرة التي تخصصها الصحافة المحليـة كل عام بمناسبة هذا الحدث المشهود ـ العيـد الكبير في مريوط . وأحس وقد وجد أن لديـه الكثير مما يشغله

بأن عليه ألا يترك أي شيء للصدفة . ورغم أن « سليم » كـان يحوم حوله راغبًا في مساعدته إلا أنه زم شفتيه وأصر على أن يقوم هو بنفسه بكتابة كل الدعوات. وكانت الدعوة الموجهة إليّ ترقد فوق رف المدفأة تحملق فيّ وقد حملت كل دلائل الكارثة . ونظرت إليها وقـد شتت النيكوتين والخمر انتباهي ، وأدركت أن هنا وبطريقـة لايمكن التكهن بها يوجد الحل الـذي نتحرك جميعًا نحوه . (عنـدما يغادر العلم المكان تحتل الأعصاب مكانة . « عادات ») .

قـالت « جوستين » في حـدة ، « سـترفض الدعـوة بـالتأكيد . لن تـذهب إلى هناك؟« وأدركت أنها كانت تتابع نظراتي .

ووقفت في ضوء الصبـاح الباكـر الذي يغلفـه الضباب . تصغي بأذنها إلى شبح « حميد » بأنفاسه الثقيلـة خلف الباب . « لن تغري بك القدر . أجبني هل ستفعل ذلك ؟ » .

وانزلقت من قميصها وحذائهـا واستلقت في رقة فوق السرير إلى جواري . وكأنها تبغي بذلك أن تتأكـد من تسليمي برأيها ـــ كان شعرهـا وفمها دافئين وخانتهـا حركات جسـدها القلقة وهي تنثني عليّ وكأنها تتـوجع ، تشكو من جراح لا تندمل . وبدا لى حينئذ ـ وليس هناك ما يدعو للزهو فيما أكرهت نفسي عليه ـ بدا لي حينئذ أنني لن أستطيع أن أحرم » نسيم » ، فترة أطول ، من المتعة التي يبحث عنها في الانتقام منى ، أو في الحقيقـة التي ستنتج عن هذا الانتقام . وكان يوجـد تحت كل هذا أيضًا ، شعور بالارتياح جعلني أكـاد أحس بالبهجة حتى رأيت التعبير الحزين الجاد يكسو وجه رفيقتي النائمة في أحضاني . كانت ترقد إلي جواري تنظر إلى بهاتين العينين الرائعتين المعبرتين السوداوين وكأنها تطل من نافـذة عالية في ذاكرتها . كنت أدرك أنها تطل في عيني « ميليسـا » ـ في العينين القلقتين الصريحتين للمرأة التي كانت تقترب منا أكثر فأكثر مع كل يوم يزداد فيه الخطـر علينا . ومع ذلك فمن غير »« ميليسا » سيصيبـه أشد الإيلام نتيجة مـا يدبـره » نسيم » ؟ وعدت إلى الوراء أفكـر من خلال سلسلـة قبلات

«جوستين » الملتهبة المتلاحقة . عدت بثبات إلى الوراء إلى ذاكرتي وراحتي فوق معصمي ، كبحار يهبط على سلسلة المرساة إلى أشد الأعماق ظلامًا في مرفأ كبير راكد للذاكرة .

إن كلاً منا يختار من بين جميع أنواع الفشل الذي عانا ه ذلك الذي يعرض احترامه لنفسه إلى أقل أنواع الهوان . ذلك الذي يدني شأنه بأقل قدر . لقد فشلت في الفن ، والدين ، والتعامل مع الناس . فشلت في الفن (وقد واتتني الفكرة فجأة في هذه اللحظة) لأنني لم أكن أؤمن بالشخصية الإنسانية المطلقة الحرية . (يكتب « بورسواردن » : « هل يثبت الناس على حالهم بصورة دائمة ، أم أنهم يتغيرون مرة إثر أخرى في سرعة فائقة حتى أنهم يعكسون شعورًا وهميًا باتصال ملامحهم كالارتعاشة المؤقتة ، لشريط سينمائي صامت قديم»؟) كانت تنقصنى الثقة الحقيقية بالناس حتى أستطيع أن أصوّرهم بنجاح .

وفي الدين ؟ حسنًا ، إنني لم أجد أن أي دين من الأديان التي تستحق الاهتمام يحتوي على أقل ذرة من السكينة ــ أو أنه في وسعه أن ينجو من الاتهام. لقد بدا لي مسايرة « لبلتازار » أن كل الكنائس وكل الطوائف ليست في أفضل الأحوال غير معاهد تثقيف ذاتي ضد الخوف . غير أن فشلي الأخير ، وأسوأ فشل عانيته (ودفعت شفتي في شعر « جوستين » الفاحم المليء بالحياة) هو فشلي مع الناس : ولقد كان ذلك نتاج انفصال روحي أخذ يزداد بالتدريج ، انفصال نهائي عن التملك بينما أطلق لي العنان كي أتعاطف مع الناس. وغدوت شيئًا فشيئًا وعلى نحو لا يمكن تفسيره أشد عجزًا عن ممارس الحب . ومع ذلك أفضل في البذل والتضحية ـ وهما أجمل ما في الحب . وأدركت وقد تملكني الرعب أن هذا هو مصدر سيطرتي الآن على « جوستين » .

لقد كان محكومًا عليها ، كامرأة من طبيعتها حب التملك أن تحاول السيطرة على ذلك الجزء من نفسي الذي كان على الدوام بعيد المنال ، إنه ملاذي الأخير

المؤلم ، إنه مقدرتي على أن أضحك وأصادق . ولقد جعلها مثل هذا الحب يائسة على نحو ما . لأني لم أكن أعتمد عليها . ولأن الرغبة في السيطرة إذا ما أصابها الحرمان يمكنها أن تجعل المرء خاضعًا خضوعًا تامًّا لما تمليه عليه نوازعه .

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نحلل تلك العلاقات التي تكمن تحت سطح أفعالنا مباشرة . فالحب ليس إلا نوعًا من اللغة التي يتحدث بها الجسد ، والجنس ليس إلا اصطلاحًا وتسمية خاصة .

ولكي أوضح هذه العلاقة الحزينة التي سببت لي الألم الكثير أكثر من ذلك ـ فإنني قد رأيت أن الألم ذاته كان الغذاء الوحيد للذاكرة . فالبهجة تنهي نفسها ـ وكان كل ما خلفته لي هو رصيد من الصحة الدائمة ـ وعزلة تهب الحياة . كنت مثل بطارية جافة . غير ملتزم بشيء ، كنت حرًّا في أن أجوب عالم الرجال والنساء كحارس أمين على ما للحب من حقوق حقيقية ـ ليس من أجل العاطفة ، ولا بحكم العادة (وكلاهما أهل لها فقط) ولكنه الهجوم المقدس ممن له الخلود بين بشر مصيرهم إلى فناء ـ من « أفروديت » في كامل لباس حربها .

ومع أني كنت محاصرًا على هذا النحو غير أني رغم ذلك كنت محددًا ، أعرف نفسي بالصفة التي تتميز بها والتي آلمتني (بالطبع) أكثر من غيرها ألا وهي نكراني لذاتي . إن هذا وليس شخصيتي هو ما أحبته « جوستين » فيَّ ـ فالنساء لصوص رغبة جنسية وهذا الكنز من العزلة والانفصام هو ما أرادت «جوستين» أن تسرقه مني ــ إنه الجوهرة النامية في رأس الضفدع . لقد رأيت بصمات هذه العزلة مدونة عبر صفحة حياتي بكل ما فيها من عشوائية وتنافر واضطراب .

لم تكن قيمتي في أي عمل أنجزته أو أي شيء أمتلكه ــ لقد أحبتني «جوستين» لأني كنت أعني بالنسبة لها شيئًا لا يمكن النيل منه . إنسان قد تشكل بالفعل ولا يمكن تحطيمه . كان يطاردها شعور بأنني حتى وأنا أحبها

لا أرغب في شيء غير أن أموت . ولقد وجدت « جـوستين » أن هذا الأمر لا يطاق ولا يحتمل .

و « ميليسا » ؟ بالطبـع كانت تفتقر إلى إدراك « جوستين » لحـــــالتي . لم تكن تعـرف غـير أن قـــوتي هي سندها في أشد حالات ضعفها ـــ فـي تعاملها مع العالم. كـانت تلتقط وكأنها قد عثـرت على شي ثمين ، جملة ظلت تنتفض في عقله منذ ذلك الحين كما تنتفض سكين ألقى بها لتغـرز في شيء ما . لقد انتفخت ملفاته حقـًا منذ فترة طويلة بـالتقارير عن تلك الحقيقة البشعـة ، ولكنها كانت أشبه بتفاصيل صحفيـة عن كارثة وقعت منذ زمن بعيد في بلـدة لم يزرها من قبل . إنه يجد نفسه الآن فجأة وجهًا لوجه مع شاهد عيان ، ضحية ، مع إنسانة نجت من المعـركة ..... وبعث دوي هذه العبـارة الواحـدة كل قوي مشـاعره . وهبت فجأة كل التقارير المدونة على الورق تصرخ في وجهه .

كانت الحجرة التي ترتدي فيها « ميليســا » ملابسها كريهة الرائحة مكعبة المنظر مليئـة بالأنابيب الملتويـة التي تصل دورات المياه بالمجاري . كـان لديها قطعة واحدة حادة من مرآة مشروخة ورف صغير مغطى بالورق الأبيض الذي توضـع فوقـه كعكات الأفراح . هنا كانت تضع خليط المساحيق وأقـلام الزينة والتي كانت تسيء استخدامها بصورة مخيفة .

في هذه المرآة ظهرت صورة « سليم » وهي تـرتعش . ألسنة اللهب الراقصة كشبح من العـالم السفلي . تكلم بلهجـة قاطعـة مقلـدًا لهجة سيـده ، وأحست «ميليسا» في ذلك الصـوت بالقلق الذي يحسـه السكرتير نحو الآدمي الـوحيد الذي يعبده عبادة حقيقية والذي كان يستجيب لما يعانيه من قلق كما يستجيب جهاز الاختبار .

وأحست « ميليسا » بالخوف الآن . فقد كانت تعرف أن الإهانة الموجهة إلى كبير من الكبراء ، يمكن بمعايير المدينـة ، أن تؤدي إلى عقابها بسرعة وفظـاعة . وأصـابها الذعر لما فعلت وأخذت تقاوم رغبة ملحة في البكاء إنتابتها وهي تلتقط

رموشها الصناعية بأصابع مرتعشة . لم يكن أمامها من وسيلة ترفض بها الدعوة . فارتدت أفضل ثيابها البالية وحملت ما تعانية من إجهاد كصرة ثقيلة وتبعت « سليم » إلى السيارة الضخمة التي كانت تقف في الظلام الداكن . وساعدها في أن تركب إلى جوار « نسيم » . و سارت العربة بطيئة في ذلك المساء المبهم الداكن من أمسيات « الإسكندرية » التي لم تعد لفرط ذعرها تتعرف عليها. ورأوا البحر وقد تحول إلى ياقوت أزرق ثم استدارت السيارة إلى داخل المدينة تجتاز الأحياء القذرة المكتظة متجهين نحو « مريوط » وأكوام خبث المعادن التي تشبه القطران عند « المكس » ، حيث أزاحت كشافات السيارة الأمامية بضوئها الشديد طبقات الظلام طبقة وراء طبقة ، كاشفة عن مشاهد محدودة من الحياة المصرية الصميمة ــ سكير يغني ، شخص يركب بغلاً ويهرب من « هيرودوت » ومعه طفلين كشخصية من شخصيات الإنجيل ، حمال يفرز أكياسه - إنها تمر في سرعة وخفة كخفة من يوزع ورق اللعب .

وتابعت « ميليسا » تلك المناظر المألوفة بعاطفة جياشة فوراءها كانت ترقد الصحراء بما فيها من فراغ يطن كما تطن محارة البحر . ولم يتكلم رفيقها طوال هذا الوقت ولم تجرؤ هي على أن تغامر إلى حد النظر في اتجاهه .

والآن وقد بدأت تظهر خطوط الكثبان الرملية القاطعة اللامعة كالصلب في ضوء القمر ، أوقف « نسيم » السيارة وأخذ يتحسس جيبه بحثًا عن دفتر شيكاته وهو يقول في صوت مرتعش ، وقد فاضت عيناه بالدموع : « كم تطلبين ثمنًا لصمتك ؟ واستدرات نحوه ، فرأت لأول مرة الرقة والأسى المرتسمان على ذلك الوجه الأسمر ، وأحست أن خجلا طاغيًا قد حل محل ما انتابها من خوف - ورأت في تعبير وجهه الرغبة في صنع الخير والتي لا يمكن أن تجعل منه عدوًا لأمثالها . فوضعت يدًا تحمل شعورها بالهيبة فوق ذراعه وقالت : « إنني أحس بالخجل الشديد ، أرجوك أن تسامحني . لم أكن أدري ما كنت أقول » . وطغى عليها ما كانت تعانيه من إرهاق حتى أن عواطفها التي كادت تجهش بالبكاء

تحولت الآن إلى تثاؤب . وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض بـروح جديدة وقد أدرك كل منهما بـراءة الآخر . وقـد بدا عليهما للحظـة أنهما قد أحبـا بعضهما البعض ، بعد هذا الارتياح الخالص الذي أحسا به .

وعادت العربة تسير ، واستعادت سرعتها مرة أخرى كما استعاد « نسيم » «وميليسا » صمتهما ـ وسرعان ما كانوا يقطعون الصحراء في سرعة نحو بريق النجوم اللامع . وأفق صبغته الأمواج المزمجرة المرتطمـة بالشاطئ بالسواد . ووجد « نسيم » نفسه وإلى جـواره تلك المخلوقة الغريبة النعسانـة ، يفكر مرة وأخرى:

« الحمد لله أنني لم أكن عبقريًا ـ فالعبقري لا يأتمن أحدًا على أسراره » .

ومكنتـه النظـرات التي كـان يتلصـص بها عليهـا من أن يـدرسهـا ، وأن يدرسنـي من خلالها . ولا شك أن جمالها قـد أقلقه وجرده مـن أسلحته ، كما فعل بي من قبل ، لأنــه وصفه فيما بعـد بأنه جمال يملأ المرء بشعـور رهيب ، جمال وجد ليغدو هدفًا لقوى التدمير . وأصابته رجفة عندما تذكر فكاهة كتبها «بـورسواردن » وقـد ظهرت فيهـا شخصيتها لأنـه كان قـد لقيها كما لقيهـا «نسيم»، في نفس الكبـاريـه المبتذل ، غير أنها في تلك الأمسيـة كـانت تجلس في صف من الـراقصـات المضيفات اللـواتي يبعن بطـاقـات الرقـص . وأخذهـا «بورسواردن » الذي كان سكرانًا سكرًا شديدًا إلى الطابق الأرضي ، وبعد فترة من الصمت خاطبها بطريقته الحزينة الآمرة ، متسائلا « كيف تحمين نفسك في مواجهة الوحدة ؟ » وتطلعت إليه « ميليسا » بعين مفعمة بكل ما تحمله تجربتها من صدق وأجابته في رقة : « سيدي ، إنني الوحدة ذاتها » . وكان لهذه العبارة أثرها العميق في نفس « بورسـواردن » حتى أنه ظل يذكرها ويرددها لأصدقائه فيما بعد ، مضيفًا إليهـا ، « وفكرت فجأة بيني وبين نفسي ، هناك تـوجد امرأة يمكن أن يتدله المرء في حبها » . غير أنه لم يغامر بزيارتها مرة أخرى ، فقد كان يسير سيرًا حسنًا في الكتـاب الذي يؤلفه ، كـان يعرف أن اشتعال تلك العـاطفة

إنما هو خدعة يمارسها عليه أضعف ما في طبيعته . كان يكتب عن الحب في ذلك الوقت لا يـريد أن تشوش الأفكـار التي كونها عن هذا الموضـوع . (وقد جعل إحدى شخصيات كتابه تصرخ قائلة « ليس في مقدوري أن أقع في الحب ، لأنني أنتمي إلى تلك الجمعية السريـة القديمة ـ جمعيـة المهرجين » . وتحدث في مكان آخر عن زواجه فكتب « لقد وجدت أنني في الوقت الذي كنت أسيء فيه إلى غيري كنت أسيء فيه أيضًا إلى نفسي أما الآن وأنـا بمفردي فليس لديَّ غير نفسي أسيء إليها . يا فرحتي ! »)

كانت « جوستين » ما تزال تلح عليَّ ، ترقب وجهي وأنا أصنف تلك المشاهد الحارقة في عقلي . وكررت في صوت أجش : « سـوف تنتحل عذرًا ما ، لن تذهب إلى هناك.» . لقد ألح « سليم » على هذه النقطة بصورة خاصة ، وندت عنه شهقة جافة وهو يغادر الحجرة . وبدالي أنه من المستحيل أن أعثر على مخرج من هذه الورطة . فقلت لها « كيف يمكنني أن أرفض » ؟

« كيف يمكنك أن ترفض » ؟

وانطلقت السيـارة «بنسيم » و « ميليسا » عبر ليل الصحـراء الدافئ الهادئ وقـد غمرهما شعـور مفـاجئ بالتعـاطف كل نحـو الآخر ، ورغم ذلك ، ظـلا صامتين. وأبطل « سليم » آلـة السيارة عبر المنحدر الأخير قبل « بـرج العرب » وترك السيـارة تنزلق بعيـدًا عن الطريق وقـال لها : « تعالي إنني أود أن أريك قصر «جوستين » الصيفي » .

وسارا على الطريق نحو البيت الصغير وقد تشابكت أيديهما . كان الحارس نائماً غير أن المفتاح كان معه ، وفاحت من الحجـرات رائحة الرطوبة والأماكن الخالية من السكان ، غير أنها كانت مليئة بـالضوء المنعكس عن الكثبان الرملية البيضاء . ولم يمض وقت طويل حتى كـان قد أشعل نارا من الشوك في المدفأة الكبيرة ، وأخرج عباءته القديمة من الدولاب وارتداها ثم جلس أمام النار وقال: «والآن أخبريني يا « ميليسـا » ، من الذي أرسلك لتعذيبي ؟ » لقـد قال ذلك على

سبيل الدعاية ولكنه نسي أن يضحك ، وغمر الخجل « ميليسا » فغدا لونها قانيًا وأخذت تعض شفتها . و لفترة طويلة جلسا هناك يستمتعان بضوء النار والشعور بأنهما يتقاسمان شيئًا مشتركا ـ يتقاسمان يأسهما .

أطفأت « جوستين » سيجارتها ونهضت في بطء من الفراش . ثم أخذت تسير في بطء فوق السجادة جيئة وذهابًا . لقد تغلب عليها الخوف وكان في وسعي أن أرى أنها قد بذلت جهدًا حتى تتغلب على حاجتها للانفجار على طريقتها الخاصة . قالت تحدث المرآة : « لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي ، ربما كانت أشياء شريرة ، ولكنى لم أقم بها وأنا غافلة ، أو دون هدف . لقد أخذت الأعمال دائماً كأنها رسالات ، رغبات يحملها الماضي للمستقبل ، رغبات تدعو المرء كي يتعرف على ذاته . هل كنت على خطأ ؟ هل كنت على خطأ ؟ » . لم تكن توجه الخطاب إليَّ الآن ولكنها كات توجهه إلى « نسيم » . إنه لأمر أكثر سهولة أن تتوجه المرأة إلى عشيقها بالأسئلة التي تنوي إلقاءها على زوجها ، ثم استمرت بعد لحظة : « أما بالنسبة للموتى ، فلقد اعتقدت دائماً أن الموتى هم الذين يعتبروننا نحن أمواتًا . لقد لحقوا هم بالأحياء بعد تلك الجولة القصيرة في وجود وهمي » . وأخذ « حميد »يتقلب الآن ، فاستدارت في ذعر إلى ملابسها . وقالت في حزن « إذن فأنت ترى ضرورة ذهابك ، وكذلك أنا . إنك لعلي صواب ، يجب أن تذهب » . وأضافت وقد استدارت إلى المرآة لتكمل زينتها « شعرة بيضاء أخرى». وأخذت تتأمل ذلك الوجه الشرير المزين بأحدث الأساليب .

وأخذت أرقبها وهي واقفة هكذا وقد التف حولها شعاع رفيع من أشعة الشمس كان يخترق زجاج النافذة . لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير مرة أخرى في أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يتحكم في بصيرتها أو بغير تلك البصيرة التي نمت وتطورت من طبيعة تغذت على تأمل النفس وفحصها : لا تعليم ولا مصادر عقلية لتقاتل رغبات قلب عاصف . كانت موهبتها كتلك الموهبة التي يعثر المرء عليها بين الحين والحين عند قارئات المستقبل الجاهلات.

لقد كان كل ما يمت إلى الفكر في « جـوستين » مقتبسًا ـ حتى ملاحظتها عن الموتى كانت مقتبسة من كتاب « عادات » ، لقد انتقت من الكتب كل ما يمكن أن يكـون هامـًا وذو دلالـة ، لا عن طريق القـراءة ولكن عن طـريق الاستماع إلى أحاديث « بلتازار » و « الأرناؤوطي » « وبورسواردن » التي لا نظير لها في هذه الموضوعات . كانت تلخيصًا متحركًا للكتاب والمفكرين الذين أحبتهم أو أعجبت بهم ـ ولكن هل هناك ما تستطيع أية امرأة ذكية أن تتفوق به عليها ؟

وأخذ « نسيم » الآن راحتي « ميليسا » بين راحتيه (فـرقدتا هناك هادئتين ساكنتين كـالرقائق) وأخذ يـوجه إليها الأسئلة عني في لهفـة يمكن أن توحي بأني محور اهتمامــه العــاطفي وليست « جـــوستين » . إن المرء يحب دائماً الشخص الذي اختـارته حبيبته حبيبًا لها . إننى لا أبخل بأي شيء حتى أتمكن من معرفة ما قالته له . وقد نـالت بنقائها وحذرها غير المنتظر من عواطفه . إن كان ما أعرفه هو أنها اختتمت حـديثها بطريقة غبية وهي تقول : « وحتى الآن فإنهما غير سعيدان: إنهما يتشاجران مشاجرات مخيفة : لقد أخبرني « حميد » بذلك عندما التقيت به آخر مـرة » . وبالتأكيد فإن « ميليسا » كانت على قدر من الخبرة يجعلها تـدرك أن تلك المشاجرات التي تسمع عنهـا إنما هي لعب حبنا . لكنني أعتقد أنها لم تـر في ذلك غير أنانيـة « جوستين » ـ غير الافتقـار الرهيب للاهتمام بالآخرين والذي كـانت تتصف به حبيبتي المستبدة . كانت تفتقر إلى السماحة افتقارًا تامًا ، وبذا افتقـدت الأساس الوحيد الذي يمكن أن تقيم عليه «ميليسا » فكرة طيبة عنها . لم تكن في الحقيقة إنسانية النزعة ـ وهذا شأن كل من يتملكه حبـه لذاته . ماذا يمكن أن أجـده مميزًا لها ؟ لقد ســاءلت نفسى هذا السؤال للمرة الألف . ومع ذلك فإن « نسيم » عندما بدأ فى اكتشـاف « ميليسا » وحبها كـامتداد « لجوستين » ، قد حدد بـدقة الحالة التي تعيشها الإنســانية ـ وكانت « ميليسا » تبحث فيه عن ميزات تتصـور أننى قد عثرت عليها فى زوجته. لقد كنا نحن الأربعة نكمل بعضنا البعض دون أن نـدرى ، كنا قد ارتبطنا معًا

بطريقة معقـدة . (« نحن الذين ارتحلنا كثيرًا وأحببنا كثيرًا : نحن الـذين ـ لن أقول عـانينا لأننـا قد حققنـا اكتفاءنـا الذاتي على الـدوام من خلال المعـاناة ـ ولكننى أقول أننا وحدنا نعرف قـدر اختلاط العواطف الرقيقة ، ونفهم الصلة الوثيقة بين الحب والصداقة » . «عادات ») .

إنهما يتبادلان الحديث الآن كما لو كانا أخًا وأختًا يواجهان مصيرًا محتومًا، أن كلاً منهما يجد فى الآخـر شعور الارتيـاح الذي يحل بهؤلاء الـذين يجدون شخصًا يشـاركهم عبء همومهم التي لم يعترفـوا بها لأحد . وأخـذ يتحرك فى دخيلـة كل منهما فى خلال كـل هذا التعـاطف ظل غير متـوقع مجرد طيف من الشهوة ، إنه ربيب الاعتراف والخلاص . كان ينذر ، على نحو ما ؛ بعلاقة الحب التي كـانت ستنشأ فيما بينهما ، والتي كان قبحهـا أقل بكثير من قبح علاقتنـا نحن ـ أنا « وجوستين » . إن الحب يغدو أكثر صدقًا إذا كان مصدره التعاطف لا الشهوة ، لأنه لا يترك حينئذ أى جراح . كان الفجر قد أشرق عندما نهضا من حديثهما ، وقـد تصلبت وتقلصت عضلاتهما لأن النـار كانت قـد انطفأت منذ وقت طويل ، وسـارا إلى السيارة عبر الـرمال الرطبـة ، يتأملان ضيـاء الفجر بلونه القرمـزي الباهت . لقد عثرت « ميليسا » على صديق وحام يـرعاها ، أما عن «نسيم » فقـد تبدل حالـه ، إن الشعوربتعـاطف جديـد قد مكنـه ، بصورة سحرية ، من أن يستعيـد نفسه مرة أخرى ـ أي يغـو رجـلا فى وسعه أن يقدم على [illegible] ما (فى وسعه أن يقتل [illegible]شيق زوجته إن أراد .) !

وأخذا يرقبان ، بينما كـا[illegible]سيارة تنطلق بهما على الشاطئ المحلى الرائق المياه ، خيوط الشمس الممتدة من أفق إلى أفق عبر البحر المتوسط الداكن الذي لا تقيده حدود والـذي تلمس أطرافه « قرطـاجنة » المقدسة في نفس الـوقت الذي تلمس فيه « سلاميس » في « قبرص » .

وأبطأ « نسيم » ، مرة أخرى عند انحدار الطريق وسط الكثبان الرملية نحو الشاطئ ، واقترح بطريقة لا إرادية أن يسبحا . لقد انتابته فجأة ، وقد تغير عن

ذى قبل ، رغبة في أن تـراه « ميليسـا » عـاريًا ، في أن تطرى جمال جسـده الذي حجب طويلا ، كبذلة جيدة التفصيل منسية في دولاب الخزين .

وخاضا في الميـاه الباردة وهما عاريان يضحكـان وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، يحسان ضوء الشمس الرقيق يتـوهج على ظهريهما . كان هذا الصباح يشبه أول صبـاح صـاحب ميـلاد العالم . ونضت « ميليسـا » من نفسها وهي تخلع ملابسها آخر ما بقى من أثقال الجسـد ، وغدت الراقصة التي كانتها على حقيقتها ، فقد كـان العرى يمنحها دائماً قدرتها على الانطـلاق والاتزان ، وهي مهارات كانت تفتقد إليها في الكبارية .

ورقدا معًا لفترة طويلة في صمت تـام ، يبحثان عبر مشاعرهما الحالكة عن طريق للمستقبل . وأدرك أنه قد نال استجابتها المباشرة وأنها قد غدت محظيته فى كل شىء .

وعادا سـويًّا إلى المدينـة ، يحسان السعـادة والحرج في نفس الوقت ــ فقد شعر كـلاهما بنوع من الفراغ كـامن في أعماق سعادتها . ومع ذلك فقـد تمهلا حيث كـان كل منهما مترددًا في تسليم الآخــر إلى نــوع الحيـاة التي كـانت في انتظارهما، وأبطأت السيـارة كذلك ، وطال صمتهما بين ما كان يتبـادلانه من تودد وتحبب .

وأخيرًا تـذكـر « نسيم » مقهى متهـدمـًا في المكس حيث يمكن أن يجد المرء بيضًا مسلوقًا وقهوة ، ومع أن الوقت كان مبكرًا إلا أن صاحب المقهى اليونانى النعسان كان مستيقظًا وأعد لهما المقاعد تحت شجرة تين يابسة في فناء خلفي ملىء بالدجاج « وذبلها » القليل . وارتفعت حـولهما المصانع والأرصفة المقامة من الحديد المضلع ولم يكن للبحر وجود إلا في الرطوبة اللزجة ورائحة الحديد المحمى والقطران النفاذة .

وأخيرًا أنزلها عند قمة أحد الشوارع التي ذكرت له اسمها وودعها بطريقة تحمل في مظهـرها طابـع الجفاف ــ لعلـه كان يخشـى أن يراه معها واحـد من

مـوظفيـه . (إن هــذا التعليق الأخير إنما هــو حــدس من جـانبي إذ أن كلمتى «جفاف» و « تـحمل في مظهرها » التي جاءت في يومياته ، تبدو إلى حد ما أنها في غير مكانها .) وعادت ضجــة المدينة القاسية تتدخل ، تشــدهما إلى مشاعرهما وهمومهما الماضية . أمــا من نــاحيتها فقد تــركته وهي تتثـاءب يداعـب النوم جفناها وقد استعادت طبيعتها كما كانت ، لتميل إلى الكنيسة اليونانية الصغيرة وتشعل شمعــة للقديس . ورسمــت الصليب على نفسها من اليســار إلى اليمين كعادة الأرثــوذكس ، وأزاحت إلى الوراء خصلــة من شعرهـا وهي تنحني على الأيقونة ، تتذوق ، في طعم النحاس الأصفر ، وهي تقبلها ، كل السلوى والعزاء الذي كانت تحسه وهي تمارس عادة منسية من عادات صباها . واستدارت في إعياء لتجـد « نسيم » يقف أمامهـا . كان شــاحبًا شحوب الموتــى يحملق فيها بفضول يلتهب رقة ولطفًا . وللحال أدركت كل شيء . وتعانقا وقد حلق فوقهما نوع من الحزن ، لم يتبادلا القبل . إلا أن كلا منهما كان يضغط جسده إلى جسد الآخــر ، وفجأة أخذ « نسيم » يـرتعش من الإعياء ، وبـدأت أسنانــه تصطك . وسحبته « ميليسا » إلى كرسي أحد الشمامسة حيث جلس ذاهلا بضع لحظات ، يجاهد كي يتكلم ، يمر بيده على جبهته كشخص يفيق من الغرق . لم يكن يفعل هذا لأن لــديه مايقــوله لها ولكن شعوره بـأنه قد فقــد النطق جعله يخشى أن يكون ما يعـانيه الآن نوبة من نــوبات المرض . وقال في صوت كـالنقيق : « لقد تأخر الوقت كثيرًا ، فالساعة الآن قد أشرفت على السادسة والنصف » . ونهض وهو يضغط راحتها إلى وجنته الخشنة : وكــرجل عجوز أخذ يتحسس طريقه إلى الخارج عبر الأبواب الضخمة إلى ضيــاء الشمس ، وقد تركها جـالسة هناك تتابعه بنظراتها .

لم يبد ضيــاء الفجر الباكــر « لنسيم » جميلا في أي يوم من الأيــام كما بدا الآن. ولاحت له المدينــة متلألئة كحجــر من الأحجار النفيســة . ورنت أصوات التليفونات الحادة التي كانت تملأ الأبنية الحجرية الضخمة حيث يعيش رجال

الأعمال ، رنت في أذنيه وكأنها أصوات طيور آلية ضخمة ولودة كانت تتلألأ في شباب خالد فرعوني . وكانت أشجار الحديقة قد اغتسلت بمطر الفجر النادر . كانت تغطيها حبات الماء اللامعة كالماس . وبدت كقطط كبيرة ناعمة تزين نفسها .

وسبح به المصعد إلى الطابق الخامس ، وحاول عدة محاولات مرتبكة حتى يبدو لائق المظهر (تحسس الشعر الأسود الخشن على خده وأعاد إحكام ربطة عنقه.) وتأمل « نسيم » صورته في المرآة الرخيصة متسائلاً ، وقد أثار المدى الجديد للمشاعر والمعتقدات التي منحتها لـه تلك المشاهد الوجيزة حيرته . غير أن المعنى الـذي انتفض عن تلك الكلمات الست التي أسكنتها « ميليسا » في أعماقه ، كان يكمن تحت كل شيء ، ينبض بالألم كسن أو أصبع أصابه التلف . وأدرك « نسيم » وهو داخل أن « جوستين » قد ماتت بالنسبة إليه ـ تحولت من صورة تعيش في عقله إلى نقش ، إلى قلادة يستطيع المرء أن يضعها على قلبه أبد الدهر . إنه لأمر قاس على النفس أن يترك المرء حياته القديمة إلى حياة جديدة ـ فكل امرأة حياة جديدة ، متماسكة ، متكاملة ولا نظير لها . لقد غدت فجأة شخصية باهتة . لم يعد يرغب في امتلاكها أكثر من ذلك ، بل غدا يرغب في أن يحرر نفسه منها ، من امرأةقد تحولت إلى حالة معينة .

دق الجرس ينادي « سليم » ، ثم أخذ يملي عليه ، بعد ما جاء ، بعضًا من الخطابات الكئيبة الخاصة بالأعمال ، كان يملي بطريقة هادئة أثارت دهشة «سليم » حتى أن يده ارتعشت وهو يكتبها بالاختزال بطريقته الحريصة الدقيقة. وبدا « نسيم » مخيفًا « لسليم » في تلك اللحظة كما لم يبدو من قبل ، كان جالسـًا إلى مكتبه الضخم المصقول وقد وضع أمامه حشدًا لامعًا من التليفونات.

ولم يلتق « نسيم » « بميليسا » بعد ذلك الحدث ، إلا أنه كتب لها خطابات طويلة مزقها وألقى بها ف دورة المياه . لقد بدا أنه من الضروري له ، لسبب

وهمي ، أن يفسر ويبرر لها تصرفات « جوستين » ، ولذا ابتدأ كل خطاب من تلك الخطابات بمقدمة يعرض فيها ماضي « جوستين » وماضيه . كان يحس أنه بدون تلك الديباجة ، يستحيل عليه تمام الاستحالة أن يتحدث عن الطريقة التي دخلت بها « ميليسا » حياته وسلبته لبه .كان بالطبع ، يدافع عن زوجته ، لا في مواجهة « ميليسا » التي لم تنطق بأي نقد ضدها (ما عدا تلك العبارة) ولكن في مواجهة كل الشكوك الجديدة التي برزت بشكل حاد أمامه بعد تجربته مع «ميليسا » ـــ تمامًا كما ألقت تجربتي مع « جوستين » الضوء على علاقتي «بميليسا » وأعادت تقييمها بالنسبة إليَّ ، كذلك كان « نسيم » يرى وهو ينظر في عيني « ميليسا ! الرماديتين ، « جوستين » جديدة لا يتطرق الشك إليها تولد هناك في أعماقهما .

وشعر الآن بالانزعاج ، فقد أحس المدى الذي يمكن أن يصل إليه في كراهيته لها . وأدرك الآن أن الكراهية ما هي إلا حب لم يتحقق . وأحس الحسد عندما تذكر الطريقة ، ذات الاتجاه الواحد التي يفكر بها « بورسواردن » الذي كتب على الصفحة الأولى لكتابه الأخير الذي عطاه « لبلتازار » تلك الكلمات الساخرة .

« بورسواردن » والحياة .

لا تنسى أن : الطعام للأكل .

والفن للفن .

والنساء للـ ....

انتهى .

ر . ا . ب .

عندما التقيا في المرة التالية ، تحت ظروف مختلفة تمام الاختلاف .... لكنى لا أملك الشجاعة لأكمل العبارة التي بدأتها .

لقد ارتَدَتْ أعماق « ميليسا » بعقلي وقلبي إلى أبعاد كافية ولن أحتمل

استعادة تذكر مـا عثر عليه « نسيم » فيها ـ صفحات غطتهـا الجمل المشطوبة والتعديلات . صفحات مزقتها من يومياته وأعدمتها . الغيرة الجنسية هي أشد عواطف الحيوانات غرابة ، وفي وسعها أن تأوى في أي مكان ، حتى في الذاكرة . إنني أدير وجهي بعيـدًا عن فكرة قبـلات « نسيم » الخجلة ، بعيـدًا عن قبلات «ميليسا » التي لم تختر في « نسيم » إلا أقرب الشفاه إلى شفتي ...

وانتقيت بطاقة من رزمة جديدة من البطاقات الكرتونية التي كنت قد أقنعت أحد عمال الطباعة المحليين بأن يضع عليها اسمي وعنواني بعدأن ألححت عليه كثيرًا وبطريقة مخجلة ، ثم تناولت قلمي وكتبت .

السيد .. يقبل بسرور .

دعوة السيد .. الكريمة لصيد .

البط في بحيرة « مريوط » .

وبـدا لي الآن أنه في وسع المرء أن يتعلم بعض الحقـائق الهامة عن السلـوك الإنسـاني .

* * *

وأخيرًا انتهى الخريف إلى ركب الشتـاء الـواضح المعـالم . وأمواج البحـر العالية تجلد حاجز الصخور البيضـاء على طول الكورنيش . والطيور المهاجرة تتكاثر على طول الآماد الضحلة لمياه « مريوط » ، التي تتراوح بين اللون الذهبي والرمادي ، لون الشتاء .

وتلتئم الجماعـات مع الغسق عنـد بيت « نسيم » ـ مجمـوعـات هائلـة من السيـارات وأجمات الصيد . من هنـا يبدأ ملءٌ وتفـريغ السـلال المصنوعـة من الصفصـاف المجـدول وأكياس البنـادق ، ويصحب ذلك تقـديم الكـوكتيـلات والسندوتشات . وتعـد بذلات الصيد . ويقارن الحاضرون بين أنـواع البنادق والخرطوش ، حديث لا ينفصل عن حياة الصياد ، إنه يبدأ الآن متشعبًا ، تافهًا ، حكيماً . وينتهي الغسق الخالي من القمـر بلونـه المائل للصفرة ، وتأخـذ أشعة

الشمس في الانحسار ببطء إلى أعلى نحو سماء المساء بلونها البنفسيجي الفاتح الشفاف. إنه طقس رائق ككوب الماء ، يبعث في النفس النشاط .

ونسير أنا و « جوستين » في نسيج همومنا التي تشبه بيت العنكبوت ، كأناس قد إفترقوا بالفعل عن بعضهم البعض . إنها ترتدي البذلة المخملية المعتادة ـــ السترة بجيوبها الطويلة المائلة : وقبعة كقبعات التلميذات ـــ من القطيفة الناعمة وقد شدت على رأسها حتى حاجبيها : وأحذية جلدية طويلة تصل إلى ما فوق الركبة . لم نعد ننظر إلى بعضنا البعض مباشرة ، ولكننا تبادلنا حديثًا أجوفا لا علاقة له بأمورنا الشخصية . كنت أعاني من صداع يشق الرأس . وألحت عليَّ لآخذ بندقيتها الزائدة عن حاجتها ـ بندقية خفيفة جميلة عيار ١٢ من صناعة « بوردي » ، بندقية نموذجية لمن كانت عينه ويده ينقصها المران مثل عيني ويدي .

هناك ضحك وتصفيق حيث تسحب القرعة لتكوين المجموعات المختلفة . علينا أن نحتل مواقع متفرقة عن بعضها البعض بصورة كبيرة حول البحيرة ، وكان على هؤلاء الذين أصابتهم القرعة في المواقع الغربية ،أن يقوموا بجولة طويلة على طريق احتياطي عبر « المكس والمناطق الصحراوية . وسحب قادة المجموعات على التوالي ، قصاصات الورق من القبعة ، وقد كتب على كل قصاصة منها اسم واحد من الضيوف . كان « نسيم » قد سحب بالفعل ورقة عليها اسم « كابوديستريا » الذي كان يرتدي سترة جلدية قصيرة أنيقة أسورة أكمامها من القطيفة ، وبنطلونًا قصيرًا من الجبردين البني المائل للصفرة وجوربًا منقوشًا بالمربعات . كان يرتدي قبعة قديمة من الصوف الخشن ، بها ريشة ديك بري ، وقد تزين بأحزمة مليئة بالخرطوش كانت تتدلي من فوق كتفه. ثم سحب اسم « رالي » و الجنرال اليوناني العجوز ، بجيوب عينيه الرمادية المنتفخة وبنطلونه القصير المليء بالرقع ، ثم « باليس » القائم بالأعمال الفرنسي والذي يرتدي سترة من جلد الخراف ، وأخيرًا أنا .

وانضمت « جـوستين » و « بومبـال » إلى مجموعـة اللورد « إرول » . لقـد اتضح الآن أننا يجب أن ننفصل . وفجأة ولأول مرة أحس بخوف حقيقي بينما أراقب بريق عيني « نسيم » الذي لا معنى له . ونحتل أماكننا المختلفة في أجمات الصيد . ويعالج « نسيم » أشرطة جراب بندقية ثقيل مصنوع من جلد الخنزير. كانت يداه ترتعشـان . وبانتهاء كل الإعدادات تبدأ السيارات بزئير آلاتها ، وعند تلك الإشـارة تنـدفع مجمـوعة من الخدم تـركض من المنـزل الكبير بأكـواب الشمبانيا ليقدموا لنا كأس الإنطلاق . ولقد مكنت هذه الضجة «جوستين » من أن تجيء إلى سيارتنا بحجة أنها تناولني حـزمة من الخرطوش الذي لا يصدر عنه دخان . وأن تضغـط ذراعي بحنان وأن تركز عليَّ لمدةنصف دقيقـة هاتان العينـان السوداوان المعبرتـان ، واللتـان تلمعان الآن بتعبير يكـاد المرء يخطئُ فهمه على أنه دليل الارتياح . وجاهدت أن أجعل شفتي تبتسمان .

وتحركنا نسير في مثـابرة وْ « نسيم » يجلس إلى عجلة القيادة لنلحق بـآخر أشعة الشمس الغـاربة بينما نغـادر المدينة لننطلق على طـول الكثبان الـرملية المنخفضـة نحو « أبو قير » . كان الجميع يتمتعـون بمعنويات عالية، « فرالي » لا يكف عن الثـرثرة ، و « كـابوديستريـا » يعمل على تسليتنا بسرد نـوادر والده الأسطوري المجنون (لقد كان أول عمل أقدم عليه عندما أصابه الجنون أن رفع دعـوى ضد ولـديه يتهمهما فيهـا بأنهما قـد ولدا عن عمـد وسابق قصـد من جانبهما بطريقة غير شرعية) كان يرفع أصبعه من وقت لآخر ليلمس الضمادة القطنية التي كانت تمسك بها عصابة سوداء كي تحتفظ بها في موضعها . كيف حدث أني لم أتعـرف في « كابوديستريـا » على الرجل الذي صنع كل تعـاسات «جوستين » ـــ الرجل ذي العصابة السـوداء؟ وأخرج « باليس » قبعة قـديمة مصنوعـة من جلد الغـزال ، لها حافتان عـريضتان كالأذنـان مما جعلـه يبدو كأرنب فرنسي في حالة تفكير عميق . ومن وقت لآخر كانت تلتقي عيناي بعيني « نسيم » في مرآة العربة فيبتسم .

كانت العتمة قد خيمت عندما وصلنا إلى شواطئ البحيرة والطائرة المائية القديمة تهمهم وتزأر في انتظارنا. كانت ممتلئة بأكوام من الشراك والخدع . وجمع « نسيم » لنفسه زوجًا من بنادق صيد البط الطويلة وركائز ثلاثية القوائم قبل أن يلحق بنا في القارب القليل العمق ، المسطح القاع ، لننطلق عبر البركة الموحشة بغابها المتشابك إلى المأوى الخرب الذي سنقضي فيه الليلة . واختفت كل الآفاق بشكل فجائي بينما تشق القنوات المعتمة بمركبنا الشديد الضوضاء ، نزعج زوار البركة من الطيور بزئير آلاتنا، والغاب يعلو فوق رءوسنا . وهنا وهناك ترتفع قمم نبات الحلفا من الجزر رغم إخفاء الماء لها . وينفتح أمامنا مرة أو مرتين ممر مائي طويل ضيق ـ ونلمح زوبعة من الطيور ـ البط البري يجرجر أغشية أرجله عبر سطح الماء الساكن . وبالقرب منا هنا وهناك وقفت الطيور الشرهة في متناول يدنا تتطلع إلينا في فضول ومناقيرها الطويلة ، التي استعبدتها شهيتها المفتوحة ، مليئة بالحلفا . وحولناالآن ، بعيدًا عن الأنظار تتهيأ مستعمرات البركة المكتظة لقضاء الليل . وعندما توقفت آلات الطائرة المائية ، امتلأ الصمت فجأة بأنين وطنين البط .

وتهب ريح خفيفة نشطة تغضن سطح الماء حول الكوخ الخشبي الصغير الذي ينتظرنا في شرفته حملة النبادق والذين يقومون بحشوها . وهبط الظلام فجأة ، وأصوات البحارة خشنة زاهية مرحة . وحملة النبادق مجموعة وحشية الطباع يركضون من جزيرة إلى أخرى بنداءاتهم الحادة ،.وقد شمروا جلابيبهم وشدوها حول وسطهم ، غير مبالين بالبرد . إنهم يبدون سود الشرة ضخام الأجسام وكأنهم قد نحتوا من الظلام . إنهم يشدوننا واحدًا بعد الآخر إلى الشرفة ثم ينطلقون في القوارب القليلة العمق المسطحة القاع لينصبوا كل عدتهم من الشراك والخدع بينما نتجه نحن إلى الحجرة الداخلية حيث تضيء بالفعل مصابيح بترولية . وتأتي من ناحية المطبخ الصغير رائحة الطعام التي تبعث الطمأنينة في نفوسنا والتي نستنشقها في استحسان ، بينما نتخلص من

بنادقنا وأحزمة الخرطوش ، ونركل أحذيتنا بعد خلعها . وينغمس الرياضيون الآن في لعب الطاولة أو الحديث عن الصيد ، ذلك الحديث الذي يستغرق الرجال ويدخل البهجة على نفوسهم أكثر من أي حديث آخر في الدنيا . « ورالي » يحك دهن الخنزير في حذائه القديم المليء بالرقع . إن الطبيخ المسبك رائع والنبيذ الأحمر قد جعل مزاج الجميع في حالة طيبة .

وعلى أى حال ،، في التاسعة ، تستعد غالبية الحاضرين للنوم ، ونسيم منهمك في الظلام في الخارج يلقي بآخر تعليماته لحملةالبنادق ويضبط المنبه القديم الصدئ ليدق في الثالثة . « وكابوديستريا » وحده لا يبدو عليه أي ميل للنوم . إنه يجلس وكأنما قد غرق في تأملاته ، يرشف نبيذه ويدخن سيجاره المفتوح الطرفين . ونتحدث لفترة من الزمن في مسائل تافهة ، وعلى حين غرة يندفع « كابوديستريا » في نقد كتاب «بورسوارون » الثالث والذي ظهر في المكتبات منذ فترة وجيزة . إنه يقول : « إن ما يدهشني هو أنه يقدم مجموعة من القضايا الروحية وكأنها أشياء عادية ، إنه يصورها من خلال شخصياته . إنني أفكر في شخصية « بار » الرجل الشهواني . إنه يشبهني إلى حد كبير . إن تبريره لحياة الإنسان الشهواني لشيء جيد إلى درجة خيالية ـــ كتلك الفقرة التي يقول فيها : « إن الناس لا يرون فينا غير المظهر الخارجي لحمى الشهوة الحقيرة التي تتحكم في أفعالنا ، ولكن يفوتهم ما يكمن تحت هذا المظهر من رغبة عارمة للجمال . إن المرء يلتقي في بعض الأحيان بوجه من الوجوه التي يتمنى أن يلتهم ملامحه قطعة فقطعة . حتى مضاجعة الجسد الراقد تحت المرء لا تنهي ما بنفسه أو تمنحه الراحة . ما الذي يجب عمله مع أناس مثلنا ؟ » . ويتنهد ثم يبدأ فجأة في الحديث عن « الإسكندرية » في الأيام الخالية . إنه يتحدث بطريقة جديدة فيها الرقة والإذعان ، عن تلك الأيام التي مضت منذ زمن بعيد والتي يرى نفسه يتحرك خلالها كحدث وشاب ، بكل هدوء ودون أي عناء . « لم أصل ألبتة إلى أعماق والدى . كانت نظرته للأمور نظرة لاذعة .

ومع ذلك فـربما كانت تخفي تلك السخـريـة نفسًا جـريحة . إن الرجل الـذي يستطيع أن يقـول أشياء سديـدة إلى حد أنها تشغـل انتباه وذاكرة الآخـرين ، ليس رجلا عاديًا ، كان يتحدث ذات مرة عن الزواج فقال ، « إنهم يقننون اليأس في الزواج » . وقال : « كل قبلة إنما هي إخضاع صد سابق » . ولقد صدمني أن نظرتـه التي تتلاءم مع الحيـاة قد تخللها الجنـون ، وكل ما بقى لى هـو ذكرى بعض الأحـداث والأقـوال المأثورة . والتـي أرغب في أن أترك ورائي قـدر مـا أستطيع منها » .

وأرقد مستيقظـًا في السرير الخشبي الضيق بعـض الوقت أفكـر فيما كان يقول : الظـلام والصمت يلفان المكان خـلا صوت « نسيم » السريع في الخارج وهو في الشرفـة يتحدث إلى حملـة البنادق . إنني لا أستطيع أن ألتقط الكلمات . ويجلس « كابوديسـتريا » في الظـلام مدة من الزمن قصيرة لينهي سيجارة قبل أن يتسلّق ببطء إلى السرير الواقع تحت النافـذة . ونام الآخرون بالفعل ، الأمر الذي يمكن الحكم عليه من شخير « رالي » الثقيل . وحل الاستسلام محل خوفي مرة أخرى إنني أفكر الآن وأنا على حافة النوم في« جوستين » مرة أخرى ، أفكر للحظة قبل أن أدع ذكـراها تنـزلق إلى عالم النسيـان الذي لا تسكنـه اليوم إلا أصوات بعيـدة ناعسة وتأوهـات مياه البركة الكبيرة المنـدفعة . وأستيقظ من لمسة يد « نسيم » الـرقيقة وهو يهز كتفي ، لأجد الظلام حالكـًا كالقطران ، لقد خذلنا المنبه فلم يدق . غير أن الحجرة مليئة بأشباح تتمطى وتتثاءب وتهبط من أسرتها . وكان حملة البنادق قد تكـوروا وهـم نيام في الشرفة في الخارج ككلاب الحراسة . إنهم يشغلون أنفسهم الآن بإشعال مصابيح الزيت ، والتي سيضيء وهجها الغريب إفطارنا المتقطع ، والمكـون من القهوة والسندويتشات . وأهبط درجة المرسى وأغسل وجهي في مياه البحيرة الثلجية . الظلام المطبق يحيط بنا. والجميع يتكلمون بأصوات خفيضة ، وكأنما أثقل عبء الظلام عليهم . دفعات

من الريح تبعث الـرعشة في المأوى الصغير المبني فوق المياه على قـوائم خشبية هزيلة .

ويعطي كل منا قـارب مسطح القاع وشخص يحمل لـه البندقيـة . ويقول «نسيم » : ستأخذ « فرج » معك . إنه أكثر حملة البنادق دربة ، كما أنه أكثر من يمكن الاعتماد عليهم . » وأشكره . وجه بـربري أسود مكتئب لا يبتسم ، تحت عمامة بيضـاء متسخة . إنه يتناول حـاجياتي ويستديـر في صمت إلى القارب المظلم . وأتسلق القارب وأنا أهمس مودعـا ، ثم أجلس . ويدفع « فرج » بالمدرة لتتأرجح بطـريقة مـرنة ، ويسير بنا القـارب في القناة . وفجأة نبحـر عبر قلب جوهرة سوداء . المياه زاخرة بـالنجوم ، هناك « أوريون » ، « والعيوق » يرمي بشراراته المتألقة . وظللنا نزحف في صمت لفترة طويلة فوق صفحة من النجوم تـزينها الجواهـر ، لم يكن هناك من صـوت غير صوت المدرة وهـي تنغـرز في الطين، ثم صوتها وهي تسحب منـه . ثم نستديـر فجأة إلى قناة أوسع لنسمع صوت سلسلة من التموجات وهي تدق مقدمة القارب ، بينما تصل إلينا نفحات لها طعم الملح من هواء البحر الذي لا يمكن رؤية شاطئه .

تباشير الفجر تلـوح بالفعل في الجو ، بينما نعبر ظلام هـذا العالم الضائع . والآن ترتجف القنوات الموصلة إلى الميـاه الفسيجة ، بأقل النقوش التي تكونها الجزر ، ونبتـة الحسك ، والحلفـا والغـاب . ويأتي الآن نقيق جماعـات البط وصوت النورس الحاد الرفيع عند شاطئ البحر من جميع النواحي . ويزمجر «فرج » كـالخنزيـر ويديـر القارب نحـو جزيـرة قريبة . وتمسك يـدي وهـي تتحسس في الظلام ، بالحافة الثلجية لأقرب برميل ، وأبذل جهدًا حتى أتسلقه. كانت الأمـاكن التي سنحتمي بها مكونـة من مجرد زوج من إلبراميل التي هـي ألواح خشبية جافة مربوطة معًا وقد غطتها فروع أغصان الغاب ، لتحجبها عن الأنظار . ويمسك « فرج » القارب بثبات بينما أخلصه من عدتي . ولم يعد هناك

ما يفعله المرء الآن غير أن يجلس وينتظر الفجر الذي يشرق في بطء في مكان ما، الفجر الذي يولد من هذا الظلام الأسود الأخرس .

الجو الآن قارس البرد حتى أن معطفي الثقيل لم يعد يدفئني بما فيه الكفاية. وقد أخبرت « فرج » بأني سأقوم بنفسي بحشو بندقيتي ، فأنا لا أرغب في أن تكون بندقيتي الإضافية والخرطوش الموجود في البرميل المجاور ، في متناول يده، ويجب أن أعترف بأنني كنت أحس الخجل وأنا أفعل ذلك ، غير أن هذا التصرف قد جعل أعصابي هادئة . ويومئ بوجه خال من التعبير ، ويقف بعيدًا بالقارب في دغل الغاب القريب ، وقد بدا متنكرًا مثل خيال المآتة . إننا ننتظر الآن وقد ولينا وجهينا ننظر إلى أبعد آفاق البحيرة ـ وبدا كأن قرونًا تمر.

وفجأة يشد أنظاري عند نهاية قبة السماء الهائلة فاصل شاحب مرتعش يبدو كحاجز من الأزهار الصفراء ينمو بالتدريج إلى شعاع يسقط في بطء عبر كتل السحاب الداكنة عند الشرق ، ويزداد الزعيق وحركة الماء في مستعمرات الطيور حولنا ونحن لا نراها . ويشرق الفجر علينا في بطء وألم ، كباب نصف مفتوح ، يدفع الظلام إلى الخلف في قوة . وتمر دقيقة وينزلق في لين سلم من الأقحوان الأصفر الناعم من السماء ليلمس آفاقنا ، وليزود عقولنا وبصائرنا بأبعاد عن المكان كانت تنقصها . وتثاءب « فرج » بقوة وأخذ يحك جسمه . وتشتعل الزهور الحمراء بلون الذهب الساخن . وتتحول السحب إلى اللون الأخضر والأصفر . لقد بدأت البحيرة تنفض عنها نعاسها . وأرى خيالات البط السوداء عبر ناظري نحو الشرق . ويتمتم « فرج » : « لقد حان ا لوقت » . إلا أن عقرب الدقائق في ساعة معصمي يوضح أنه مازال لدينا خمسة دقائق لنغادر المكان . وأحسست بعظامي وكأنها قد نقعت في الظلام . وأحس بالتوتر والقصور يجاهدان كي يسيطرا على عقلي الناعس . هناك اتفاق ألا يبدأ الصيد قبل الرابعة والنصف . وأحشو بندقيتي في بطء ، وأضع حزام الخرطوش إلى

جواري وفي متناول يدي ، عبر المكان الذي أحتمى فيه . ويقول « فرج » بصورة أكثر استعجالا : « لقد حان الوقت . » وفي الجوار يوجد صوت طيور مختفية تطير في سرعة أو تغطس في الماء . ويقرفص في وسط البحيرة زوج من دجاج الماء، وكأنه غارق في التأمل والتفكير . وأكاد أقول شيئًا عندما تنطلق المجموعة الأولى من البنادق في الجنوب ـ مثل طقطقة كرات الكريكيت الصادرة من بعيد .

والآن بدأت تمر الطيور المنفردة ، واحد ، اثنان ، وثلاثة . ويزداد الضوء ويتسع ، متحولا من اللون الأحمر إلى الأخضر . وتتحرك السحب لتكشف عن فجوات هائلة في السماء . إنها تقشر الصباح كما تقشر الفاكهة . وترتفع نحو السماء على بعد مائتي ياردة أربعة تشكيلات منفصلة من البط ، كل منها على صورة رأس السهم . وتعبر من فوقي في نظام بديع وهي تميل بزاوية ، وأفتح عليها نيراني من بندقية اختيرت خصيصًا للمسافات البعيدة . إلا أن البط كالمعتاد ، أسرع وأبعد مما يبدو . وتمر الدقائق « تتكتك » في القلب ، وتنطلق النيران من بنادق أكثر قربًا ، إن البحيرة الآن في حالة عامة من النشاط . ويفد البط الآن في مجموعات تتزايد بصورة لا بأس بها . ثلاثة ، خمسة ، تسعة : إنها تطير على ارتفاع قليل وفي سرعة . وحفيف يصدر عن أجنحتها وهي تشق السماء بريشها وقد مدت أعناقها . ومرة أخرى تنطلق إلى أعلى في وسط السماء تشكيلات البط البري ، وقد تجمعت ينعكس عليها الضياء مثل الطائرات ، تشق طريقها في طيران سهل بطيء . البنادق تزحم الهواء برصاصها وتسطو على أسراب البط البري الطائرة ، نحو البحر الطليق في خط متعرج. ويأتي الأوز البري بعد ذلك في تتابعات أعلى وأبعد من أن تنال ، وصرخاته النائحة ترن في وضوح عبر مياه مريوط وقد غمرتها الشمس الآن .

لم يعد هناك وقت للتفكير : فالأنواع المختلفة من بط المياه العذبة والبط البري تصفر فوقي وكأنها السهام المنطلقة ، وأبدأ إطلاق النار في بطء وبطريقة منهجية . الأهداف وفيرة ، إلا أن المرء غالبًا ما يجد صعوبة في اختيار واحد منها

خلال الجزء من الثـانية الذي تكون فيـه أمام مرمى البندقيـة . ووجدت نفسي أطلق النار في سرعة مرة أو مـرتين على إحدى التشكيلات . فإن أصيب طائر في الصميم فإنه يترنـح ويدور على نفسه ، ويتـوقف للحظة ثم يغطس في رشـاقة كمنديل يسقط من يد سيدة . ويلتئم نبات الغاب على أجسام البط البنية ، إلا أن « فرج » الذي لا يتعب ولا يكل يتجه نحوها كالمجنون ليسترد الطيور . إنه يقفز في بعض الأحيان إلى الماء « بجلبيته ! وقـد شدها إلى حجابـه الحاجز . وتتوهج ملامحه بالانفعال . وهو يطلق ما بين الفينة والأخرى شهقة حادة .

إنها تفد الآن من كـل مكان ، من كل زاويـة يمكن تصورها وبكـل درجات السرعة . وتعـوى البنادق وتختلـط في الأسماع بينما تسوق الطيـور إلى الأمام وإلى الخلف عبر البحيرة . بعض الأسراب قـد أرهقتهـا الحرب بشكل واضح ، رغم رشاقتها وخفة حركتها ، بعـد الخسائر الفادحة التي أصابتها ، والبعض الآخر من الطيور المنفردة قد جن جنونها رعبًا وفزعًا . وتحط بطة صغيرة غبية للحظة إلى جوار المكان الذي أختبئ فيه ، إنها تكاد تكون في متناول يد « فرج » ، قبل أن تري فجأة الخطر المحـدق بها وتقفز منزلقة كالـرغوة . وفي تواضع لم أكن شـديد السوء رغم أنـه من الصعب في ذلك الهيجـان ، أن يسيطر المرء على نفسه ليطلق الرصاص بتأن ورويـة . الشمس ترتفع الآن بصورة لا بأس بها ورطوبـة الليل قد تبددت . سأغرق بعـد ساعة ، وأنـا بتلك الملابس الثقيلة ، في عرقي مرة أخـرى . الشمس تلمع فوق مياه « مريوط » المتموجـة حيث ماتزال الطيـور تطير . إن ا لمكامن التي يختبئ فيهـا الصيـادون ممتلئة الآن بأجسـاد الضحايا المخضلة ، الدم القاني يجري من المناقير المحطمة ، والريش الرائع ، قد جعله الموت كئيبًا .

وأطيل أمد الـذخيرة الباقيـة معي على قدر استطـاعتي ، غير أني أطلق آخر خـرطوش في الثـامنة والـربع ، « وفرج » مـايزال يعمل في همة ، يـلاحق البط المترنح بين الغـاب ، لا يسيطـر عليـه غير اهتمامه بـاستعـادة مـا وقع منهـا .

وأشعلت سيجـارة ، وأحسست لأول مرة وقـد نفضت عن كاهلي شبح النـذر والتطير ـ بأني حـر في أن أتنفس ، في أن ألم شتات عقلي مـرة أخرى . إنـه لأمر غريب ، كيف يحد منظر الموت من انطلاقة العقل ، كدرفة الشباك المصنوعة من الصلب ، تفصل المستقبل الذي يتغذى بمفرده على الأمال والرغبات . وأتحسس الشعر النامـي على ذقني غير الحليقة وأفكر باشتياق في حمام سـاخن، وإفطار دافئ . « وفـرج » مايـزال يستكشف بلا كلـل جزر الحلفـا . وتراخت البنـادق وصمتت بالفعل في أركـان البحيرة . وفكرت في « جوستين » باكتئـاب موجع ، إنها موجودة في مكـان ما هناك عبر المياه التي تغمـرها الشمس . لم أكن أخاف كثيرًا على سـلامتها ، لأنها كـانت قد أخـذت معها خـادمي « حميد » ، كحـامل لبندقيتها .

وأحسست فجأة بـالمرح ، وبأني لا أحمل همًّا عنـدما نـاديت على « فـرج » حتى يكف عن بحثـه ويعود بـالقـارب . وينصاع للنـداء على مضض . وأخيرًا نغـادر المكان ، ونعـود أدراجنا نعبر البحيرة . خـلال نتـوءات وممرات الغـاب نحوالكوخ .

ويقول « فرج » : « ثمانية أزواج ليست بالصيد الوفير » ، إنه يفكر في زكائب محترفي الصيد التي علينا أن نواجهها عنـدما يعود « رالي » و « كابوديستريا » . وأقول ، « إنها صيـد جيد للغايـة بالنسبـة إليّ ، إنني صياد رديء لم يحدث أن أجدت الصيد كما أجدته اليوم » . ودخلنا القنوات المائية الكثيفة النباتات والتي تتاخم البحيرة كمجاري مياه صغيرة .

وأرى في النهاية قاربًا آخر ينعكس عليـه الضوء يتجه نحونا ، ويتضح فيه بالتدريج منظر « نسيم » المألوف . إنه يرتـدي قلنسوته القديمة المصنوعة من الفرو قد ثنى أطرافها التي تغطي أذنيه وعقدها فوق رأسه ، وألوح له غير أنه لا يستجيب لي . إنـه لا يجلس في مقدمـة القارب ، يهيم بعيـدًا بأفكاره وقـد شبك راحتيه فـوق ركبتيه . وأزعق : « نسيم » ، كيف كـانت أحوالك ؟ لقـد اصطدت

ثمانية أزواج ، وفقدت واحدًا » . والآن يكاد القاربان أن يتوازيا ، فقد كنا نتجه نحو مدخل آخر مجرى للمياه يقودنا إلى الكوخ . وينتظر « نسيم » حتى تصبح المسافة بيننا بضع ياردات قبل أن يقول في هدوء غريب ! « هل سمعت ؟ لقد وقعت حادثة . « كابوديستريا » ... » وفجأة ينكمش قلبي داخل جسدي . وأقول متلعثما ، « كابوديستريا ؟ » . ومايزال يكسو وجه « نسيم » ذلك الهدوء الشيطاني الغريب . هدوء إمرئ يستريح بعد أن بذل جهدًا كبيرًا . ويقول ، «لقد مات » ، وأسمع صوت الزئير المفاجئ لآلات الطائرة المائية وهي تبدأ خلف جدار الغاب . ويومئ برأسه نحو الصوت ، ويضيف بنفس الصوت الهادئ : « إنهم يأخذونه إلى « الإسكندرية » مرة أخرى . وتقفز إلى رأسي ألف تفاهة ، ألف سؤال عادي ، غير أني لا أستطيع أن أقول شيئًا لفترة طويلة من الزمن .

ويتجمع الآخرون في الشرفة وقد بدا عليهم الانزعاج ، يكاد يغمرهم الخجل، إنه يشبهون مجموعة من التلاميذ الحمقى ، انتهت إحدى ألعابهم بموت واحد منهم . وماتزال الضجة الصادرة من الطائرة المائية والمخيمة على المكان تكسو الهواء . وفي وسع المرء أن يسمع على بعد يساوي نصف المسافة زعيق وضجيج آلات السيارات وهي تستعد للانطلاق . وترقد أجساد البط المكومة والتي لابد وأن تكون مادة طبيعية للتعليقات الخبيثة ، كشيء سخيف في غير مكانه . ويبدو أن الموت قضية بشعة ، لم نكن معدين إلا لتقبل نصيب معين منه عندما دخلنا البحيرة المظلمة نحمل أسلحتنا . إن موت « كابوديستريا » يعلق في الهواء الراكد كرائحة كريهة ... كنكتة سخيفة .

لقد أرسل « رالي » لإحضاره ، فوجد الجسد ممددًا ، وقد اتجه الوجه إلى أسفل في مياه البحيرة الضحلة ، وعصابة عينه السوداء تطفو إلى جواره . كان من الواضح أنها حادثة وقعت بالصدفة . كان حامل بندقية « كابوديستريا » رجلا متقدمًا في السن ، نحيلا كطائر بحري شره ، إنه يجلس الآن في الشرفة منكبًا فوق أكله فول . إنه لا يستطيع أن يقدم عرضًا متماسكًا للواقعة . إنه من

الصعيد يحمل وجهه تعبير شخصي مرهق يوشك على الجنون كالتعبير الذي يرتسم على سمات رهبان الصحراء .

إن « رالي » في حالة عصبية شديدة وهو يشرب جرعات كبيرة من البراندي ، إنه يعيد سرد القصة للمرة السابعة ، لا لشيء إلا ليتكلم حتى يهدئ أعصابه . ورغم أن الجسد لم يمض عليه وقت طويل في الماء ، إلا أن جلده كان يشبه جلد راحتي امرأة غسالة . وانزلقت أسنانه الصناعية من فمه عندما حملوه ليضعوه في الطائرة المائية ، وتحطمت على الأرض فأخفتهم جميعًا . ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت أثرًا عميقًا على نفسه . وأحس أنا فجأة بالإرهاق وهو ينال مني وأحس بركبتي وقد أخذتا في الارتعاش . وأتناول كوزًا من القهوة الساخنة، وأركل حذائي بعيدا ، وأزحف أنا والقهوة إلى أقرب سرير . « رالي » مازال يتكلم في إصرار يصم الآذان ، وراحته الطليقة تشق الهواء في أشكال معبرة . والآخرون يرقبونه في كآبة وفضول لا يعني شيئًا محددًا ، كان كل منهم غارقًا في أفكاره الخاصة . وحامل بندقية « كابوديستريا » مايزال يأكل في صخب كحيوان يكاد يموت جوعًا ، ويرمش في ضوء الشمس . الآن يظهر للعيان قارب به ثلاثة من رجال البوليس وقد جلسو في حذر داخله . « ونسيم » يرقب منظرهم الهزلي بجأش ثابت ، حتى أنه بدت عليه لمحة سريعة من الرضا ، وكأنه كان يبتسم لنفسه . وترتفع طقطقة الأحذية وقعقعة أقعاب البنادق فوق السلالم الخشبية ، إنهم يصعدون إلى أعلى ليأخذوا أقوالنا في مذكراتهم . إنهم يجلبون معهم جوًا من الشك خطيرًا يحوم فوق رءوسنا جميعًا . ويضع أحدهم القيد في حرص في يديّ حامل بندقية « كابوديستريا » قبل أن يقودوه إلى القارب. ويمد الخادم معصميه للقيد الحديدي بطريقة رقيقة خالية من الفهم والإدراك ، نفس الانطباعات التي يراها المرء على وجوه القردة العجوزة عندما يطلب منها أن تؤدي عملا إنسانيًا تعلمت أداءه دون أن تفهم مغزاه .

كانت قد بلغت الواحدة قبل أن ينتهي رجال البوليس من عملهم . لابد أن

باقي المجموعات قد عادت الآن من البحيرة إلى المدينة حيث تنتظرهم أنباء موت «كابوديستريا » . غير أن هذا لن يكون كل شيء .

ونهيم واحد بعد الآخر بعدتنا نحو الشاطئ . السيارات في انتظارنا ، وتبدأ الآن مرحلة طويلة من المساومات مع حملة البنادق والبحارة الذين يجب أن ندفع لهم أجورهم ، وتفرغ البنادق ، وتوزع الأكياس ، وأرى خادمي « حميد » في كل هذه الفوضى وهو يتقدم على استحياء خلال الزحام وقد أغلق عينه السليمة اتقاءً لضوء الشمس . وأعتقد أنه يبحث عني ولكن كلا : إنه يتجه إلى «نسيم » ويناوله مظروفًا أزرق صغيرًا . إنني أود أن أصف هذه الواقعة بدقة. « نسيم » يتناول الخطاب بيسراه وهو شارد بينما تمتد يمناه داخل السيارة ليضع صندوق الخرطوش في علبة قفازه . ويفحص العنوان دون ترو مرة ، ثم يفحصه مرة أخرى بانتباه ملحوظ . ثم يأخذ نفسًا عميقًا وعيناه على وجه «حميد» ، ويفتح الخطاب ليقرأ ما هو مكتوب على نصف صفحة من ورق الخطابات . إنه يطالعه في دقيقة ثم يضع الخطاب مرة أخرى في المظروف . وينظر حواليه وقد ارتسم فجأة على وجه تعبير متغير ، وكأنه قد أحس بالغثيان فجأة ، إنه ينظر حواليه بحثًا عن مكان يتقيأ فيه ، ويشق طريقة خلال الزحام ليضع رأسه على زاوية حائط طيني ويطلق إجهاشة قصيرة لاهثة ، كتلك التي يطلقها شخص جرى حتى تقطعت أنفاسه . ثم يستدير إلى العربة ، وقد سيطر على نفسه تمامًا وجفف دموعه ، ليكمل حزم حاجياته . وتمر هذه الحادثة القصيرة دون أن يلحظها باقي الضيوف على الإطلاق .

وترتفع الآن غمامات من التراب ، فقد بدأت السيارات انطلاقها نحو المدينة، وتزعق وتلوح لنا زمرة البحارة الخشنة الطباع ، يودعوننا بابتسامات تبدو وكأنها منحوتة من بطيخ مرصع بالذهب والعاج . ويفتح «حميد » باب السيارة ويتسلق كالقرد . وأقول : « ما الأمر ؟ » ويقول وهو يمد راحتيه الصغيرتين نحوي في اعتذار وتوسل ، وكأنه يعني ، « لا تلم حامل الأخبار

السيئة . » ويقـول في صوت خفيض يحاول مـواساتي : « سيـدي ، لقد رحلت السيدة ، وهناك خطاب في المنزل من أجلك » .

وأحس وكأن المدينة كلها قد تحطمت حول أذني : وأسير في بطء إلى الشقة ، على غير هـدي ، كـالنـاجين من زلـزال وهم يسيرون في شـوارع مـدينتهم ، مندهشين عندما يجدون أن كل ما كان مألوفًا لديهم قد تغير . شارع « بيرو » ، شارع « فرنسا » ، جامع « التربانة » (دولاب تفوح منه رائحة التفاح) ، شارع « سيدي أبو العباس » (الميـاة المثلجة والقهوة) ، « الأنفوشي » ، « رأس التين» ، « كنج مـريـوط » (حيث كنـا نجمـع الأزهـار البريـة ، وأنـا مقتنع أن ليس في مقدورهـا أن تبادلني الحب) ، تمثـال « محمد على » ممتطيًا جـواداً في الميدان . تمثال نصفي صغير مضحك للجنـرال « أيرل » الذي قتل في « السـودان » عام ١٨٨٥ .... أمسيـة زاخرة بعصـافير الجنة .... المقـابر في « كـوم الشقافـة » ، الظلام والتربة الرطبة ، لقد أرعبنا الظـلام .... « شارع فؤاد » باعتباره الطريق القـديم الـذي تظللـه الأشجـار ، والذي كـان يطلق عليـه ذات يـوم شـارع « روزيت».... «هتشينسون » وقد أخل بكل النظام المائي الخاص بـالمدينة عندما هدم السـدود المقامـة على البحر .... المشهـد الموجود في كتـاب « عادات » حيث يحاول أن يقرأ لها الكتاب الذي يكتبه عنهـا . « إنها تجلس في كرسيها المصنوع من الأغصان المجدولة وقد وضعت راحتيهـا في حجرها ، كأنها ستتخذ وضعًا تصور منه ، غير أن نظـرة فزع كانت تزداد بـاضطراد على وجهها . وأخيرًا لم يعد في وسعي أن أحتمل أكثر من هذا ، فألقي بالمخطوط إلى المدفأة ، وأنا أصيح، (ما قيمة تلك الصفحات النابعة من قلب مطعون حتى أعماقه النابضة ، ما دمت لا تفهمين منها شيئًا ؟) إنني أستطيع أن أرى بعين خيـالي « نسيم » وهو يقطع السلم الكبير في سرعة إلى حجـرتها ليجد « سليم » في حـالة من الـذهول يتأمل الدواليب الفارغة ومنضدة الزينة وقد أزيح كل ما فوقها كأنما أطاح بها مخلب نمـر . وتـزعق صفـارات السفن في مينـاء « الإسكنـدريـة وتنـوح ، وتمضـع

وتجرش محركات السفن مياه الحاجز الداخلي الخضراء التي يكسوها الزيت . وتدير اليخوت سواريها نحو السماء وهي تتثنى وتميل في كسل ، وتنفخ دون جهد كأنها نبضات الأرض ذاتها وهي تنقبض وتتمدد . هناك في مكان ما في قلب التجربة نظام وانسجام يمكن أن نضع أيدينا عليه إذا انتبهنا بما في الكفاية، وأحببنا بما فيه الكفاية ، أو تذرعنا بالصبر بما فيه الكفاية .

هل سيكون هنالك متسع من الوقت لذلك ؟

الجزء الرابع

كان اختفاء « جوستين » أمرًا جديدًا يجب احتماله . لقد غير كل النمط الذي قامت عليه علاقاتنا . لقد بدا الأمر وكأنها قد أزاحت حجرًا هو واسطة العقد الذي يمسك ببناء أحدالأقواس . ويمكن القول : إنها قد تركتنا أنا و « نسيم » بين الأنقاض نواجه مهمة إصلاح علاقة هي التي أوجدتها وقد صارت خواء لغيابها ، يتردد فيها أصداء إثم أحسست أنه سيخيم دائماً من الآن فصاعدًا على عواطفي .

كان ألمه واضحًا لكل إنسان . وبدا ذلك الوجه المعبر مسلوخًا عليلاً ـ شاحبًا شحوب تمثال شهيد في كنيسة . وعندما رأيته على تلك الحالة تذكرت بصورة حادة مشاعري الخاصة خلال آخر لقاء لي مع « ميليسا » قبل أن تغادر المدينة إلى المصحة في « أورشليم » حيث مضى عليها حتى الآن ما يقرب من عام كامل. الصفاء والرقة اللتان تحدثت بهما عندما قالت : « لقد انتهى الأمر كله .... وربما إلى غير رجعة .... على الأقل هذا الفراق » . وغدا صوتها ناعماً دامعًا يطمس أطراف الكلمات . كانت في ذلك الوقت صريعة المرض . فقد انفتحت إصابتها من جديد . « سيكون لدينا الوقت لنراجع ما في نفوسنا .... ليتني كنت «جوستين»..... إنني أعرف أنك تفكر فيها عندما تضاجعني .... لا تنكر ذلك ... إنني أعرف يا حبيبي ... أنني أحس بالغيرة حتى مما يطوف بخيالك .... إنه لأمر فظيع أن يلوم الإنسان نفسه فوق ما يعانيه من شقاء وعذاب .. وعلى كل حال لا تهتم » . ودعكت أنفها وهي تنتفض وحاولت أن تبتسم ، « إنني في حاجة ملحة إلى الراحة ....

لقد وقع « نسيم » الآ في حبي » . ووضعت راحتي فوق فمها الحزين واختلجت سيارة التاكسي في عنف ، وكأنها شخص ما يعيش على أعصابه . كان

كل شيء حولنا يسير ، نساء الإسكندرية ، وقد غادرن دورهن أنيقات ، وكأنهن أطياف صقلت صقلاً جيدًا . كان السـائق يرقبنا في المرآة كجاسوس . ربما كان يفكر في أن عـواطف البيض شاذة مثيرة فاجـرة ، كان يراقبنـا كما يراقب المرء قططًا تتعاشر .

« لن أنساك أبد الدهر » .

« ولا أنا ، اكتبي إليّ ».

« سأعود في أي وقت إن أردت عودتي » .

« لا يخالجك الشك في ذلك . اشف ، يـا « ميليسـا » من مـرضك . يجب أن تشفى . سأكـون في انتظار عـودتك . سنبدأ دورة جـديدة من الحيـاة . إن كل شيء مايزال في أعماقي كما كان . إنني أحس به » .

إن الكلمات التي يتبادلها العشاق في مثل تلك الأوقات تكون محملة بمشاعر مشوهـة . إن صمتهم وحده هو الـذي يلتزم الـدقة المتناهيـة التي تشدهم إلى الحقيقة . كنا صـامتين ، يمسك كل منا بيد الآخر . فعـانقتني وأشارت للسائق أن ينطلق .

يكتب « الأرناؤوطي » : « وبرحيلها اتخذت المدينة حياله مظهرًا ، تثير غرابة الضعف في نفسـه . فحيثما تقع ذكـراه عنها على ركن مألـوف لـديهما ، فإنها تستعيد وجودهـا في سرعة وحيوية ، مسلطـة تلك العينين واليدين الشبحيتين على الشوارع والميادين . وقفـزت أحاديث قديمة تبـادلاها تلطمه وسط الموائد المصقولة في المقاهي التي جلسا فيها ذات مرة من قبل ، ينظر كل منهما في عيني الآخر كنمرين . كـانت تتراءى له في بعض الأحيان وهي تسير أمـامه في الظلام ببضع خطـوات . كانـت تقف لتصلح رباط صنـدلها فيلحق بها وقـد أسرعت دقات قلبه ، ليجـد أنها واحدة غيرها . وبدت لـه بعض الأبواب وقد أوشكت أن تفتح لتسمح لها بالدخول . فكان يجلس يرقبها في عناد . وفي أحيان أخرى كان يتملكه فجأة اعتقاد لا يقاوم بأنها على وشك أن تصل في قطار معين ، فيسرع إلى

المحطة ويخوض بين جمهرة المسافرين كما يخوض المرء نهرًا . أو ربما جلس في غرفة الانتظار المكتومة في المطار بعد منتصف الليل يرقب الراحلين والقادمين ، كأنما ستفاجئه بعودتها . وسيطرت بهذه الطريقة على خياله ، وعلمته إلى أي مدى كان إدراكه ضعيفًا . وحمل معه ثقل إحساسه برحيلها حيثما ذهب كما يحمل المرء طفلاً ميتًا لا يستطيع التخلي عنه » .

ولقد هبت في الليلة التي أعقبت رحيل « جوستين » عاصفة رعدية بالغة الحدة . كنت قد همت لساعات تحت المطر ، نهبًا ليس فقط لمشاعر عجزت عن التحكم فيها ولكن أيضًا لتبكيت ضميري لما جال بخاطري من مشاعر لابد وأن يعانيها الآن « نسيم » . وفي صراحة ، فإنني لم أجرؤ على العودة إلى شقتي الخالية، حتى لا يغريني نفس الطريق الذي كان « بورسواردن » قد سلكه في غاية اليسر والسهولة ، مع قليل من العمد وسبق الإصرار . وبينما أقطع « شارع فؤاد » للمرة السابعة ، بلا معطف ، ولا قبعة ، في ذلك المطر المدرار الذي يلف كل شيء ، تصادف أن لمحت الضوء في نافذة « كليا » العالية ، فاندفعت إلى أعلا أدق الجرس . وأنّ الباب الخارجي وهو يفتح ، فخطوت من الشارع المظلم بأمطاره الهادرة كالميازيب ورشاش فتحات البالوعات وقد فاضت منها المياه .

وفتحت لي الباب ، وبنظرة واحدة أدركت حالتي . وسمحت لى بالدخول ، لأخلع ملابسي المبتلة وأرتدى جلبابًا أزرقًا . ونعمت بنار المدفأة الكهربية الصغيرة وأخذت تعد لى القهوة الساخنة .

كانت ترتدي بيجامتها ، وقد مشطت شعرها الذهبي استعدادًا للنوم . ونسخة من كتاب « بالعكس » موجودة على الأرض وغلافها إلى أسفل إلى جوار المنفضة حيث توجد بها سيجارة تحترق . وظل البرق يومض عند النافذة بصورة متقطعة ، يضيء وجهها الرصين بومضاته التي تماثل ومضات الماغنسيوم ، وتدحرج الرعد وتلوي في السماوات الحالكة خارج النافذة . كان من الممكن إلى حد ما أن أتخلص من مخاوفي من ذلك الهدوء بالحديث عن

«جوستين » . وبدا لي أنها تعرف كل شيء ـ لم يكن في الاستطاعة إخفاء شيء عن فضول سكان « الإسكندرية » . ويمكن القول ، أنها كانت تعرف كل شيء عن «جوستين » .

قالت « كليا » في قلب كل هذا : « لابد أنك قد خمنت أن « جوستين » كانت هي المرأة التي أخبرتك ذات مرة أنني قد أحببتها حبًا جمًا » .

لقد كلفها هذا القول جهداً كبيرًا . كانت تقف إلى جوار الباب وقد ارتدت بيجامتها ذات الخطوط الزرقاء ، وقد أمسكت قدح القهوة في إحدى يديها . وأغلقت عينيها وهي تتكلم ، وكأنها تتوقع ضربة على أم رأسها . وسالت في بطء دمعتان من عينيها المغلقتين وانحدرتا حول أنفها . وبدت كوعل صغير انكسر مفصل قدمه . وأخيرًا قالت في صوت هامس : « آه ، دعنا لا نتحدث عنها مرة أخرى ، إنها لن تعود أبدًا » .

ولقد حاولت فيما بعد أن أغادر المكان إلا أن العاصفة كانت على أشدها وملابسي مبتلة إلى درجة لا يمكن تصورها . و قالت « كليا » : « في وسعك أن تبقى هنا معي » . ثم أضافت في رقة جعلتني أحس بغصة في حلقي « ولكن أرجوك ـ لا أدري كيف أقولها ـ أرجوك ألا تضاجعني » .

ورقدنا سويًا في ذلك السرير الضيق نتحدث عن « جوستين » بينما العاصفة تدوي في الخارج ، والأمطار المندفعة من عند شاطئ البحر تحك زجاج نوافذ الشقة . كانت ترقد الآن هادئة في نوع من الاستسلام الذي كان يفصح عن نفسه بطريقة مؤثرة . وأخبرتني الكثير عما في « جوستين » والذي لم يكن يعرفه سواها ، تحدثت عنها في حيرة ورقة كما يتحدث عامة الناس عن ملكة محبوبة غير أنها تثير الحنق والغضب .

وعندما تحدثت معها عن مجازفات « أرناؤوطي » في عالم التحليل النفسي قالت وهي تحس أن الأمر مسل : « إنها لم تكن بالفعل ماهرة ، كما تعلم ، إلا أنها كانت تمتلك فكر حيوان بري وقع في مأزق . إنني لست متأكدة من أنها قد

فهمت بالفعل موضوع تلك الفحوص . رغم أنها كانت تراوغ الأطباء إلا أنها كانت صريحة للغاية مع أصدقائها .

مثلا كل تلك المكاتبات حول كلمات « واشنجطن . د . ك . » والتي تدارسوها كثيرًا ، هل تتذكر ؟ لقد سألتها ذات ليلة بينما كنا نرقد هنا سويًّا أن تشرح لي ما ترتبط به تلك العبارة . بالطبع كانت تثق في تعقلي بشكل مطلق . فأجابت دون أن تقع في خطأ (كان من الواضح أنها قد درست هذا الأمر بالفعل رغم أنها لم تخبر « أرناؤوطي » بذلك) . توجد مدينة قرب «واشنجطن» تدعى «الإسكندرية » . وكان أبي دائم الحديث عن الذهاب إلى هناك لزيارة بعض الأقارب البعيدين . وكانت لهم ابنة تدعى « جوستين » في مثل عمري بالضبط .

ولقد جنت « جوستين » تلك وعزلت . كان قد اغتصبها أحد الرجال . وعندئذ سألتها عن معنى د . ك . فقالت « داكابو كابوديسترِيا » .

إنني لا أدري كم استغرق ذلك الحديث أو كيف انتهى بنا إلى النوم . غير أننا استيقظنا صباح اليوم التالي متعانقين لنجد أن العاصفة قد كفت . والمدينة نظيفة وكأنها قد مسحت بالإسفنج . وتناولت إفطارًا سريعا واتخذت طريقي نحو دكان « منمجيان » ، لأحلق ذقني ، عبر شوارع قد غسل المطر ألوانها الأصلية حتى أنها كانت تتوهج بالدفء والجمال في ذلك الطقس الناعم . كنت ما أزال أحتفظ بخطاب « جوستين » في جيبي غير أنني لم أجرأ على قراءته مرة ثانية وإلا تحطمت راحة البال التي منحتني إياها « كليا » . غير أن العبارة الافتتاحية ظلت تدوي في رأسي في إصرار عنيد نابض : « إذا قدر لك أن تعود حيًّا من البحيرة فستجد هذا الخطاب في انتظارك » .

وفي الشقة في غرفة الاستقبال على رف المدفأة كان هناك خطاب آخر يعرض على عقدًا لمدة عامين كمدرس في مدرسة كاثوليكية في الصعيد . وأجلس للحال دون أدنى تفكير وأكتب مسودة موافقتي . إن هذا الأمر سيغير كل شيء مرة

أخرى ، سيحـررني من شوارع المدينـة التي أخذت تـلاحقني أخيرًا حتى أني أحلم بأني أسير بلا نهايـة جيئة وذهـابًا ، أبحث عن « ميليسـا » بين الشعلات المحتضرة في الحي العربي .

وبإرسـال خطاب القبول هذا بالبريد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتي . إنـه يحدد ميعاد انفصـالي عن المدينـة التي وقعت لي فيها أحـداث كثيرة ، ذات أهميـة خطيرة ، أحـداث من الكثـرة بمكـان حتى أنها جعلتني أسرع نحـو الشيخوخـة . ومع ذلك فإن الحيـاة ستحمل نبضهـا ساعـات وأيـامـًا لفترة محدودة من الزمـن . ستتوهج نفس الشـوارع والميادين في خيالي كما يتـوهج الفراعنـة في التاريخ . حجـرات بذاتها ضـاجعت فيها عشيقتي ، مـوائد ، مقاه بذاتها حيث سحرني ضغط الأنامل فوق معصمي ، وذلك الإحساس بإيقاعات «الإسكندرية» والـذي ينتقل عبر الشوارع الحارة إلى أعلى ، إلى الأجساد التي لا تستطيع أن تترجمها إلا إلى قبلات جائعـة ، أو عبارات تودد وتحبب في أصوات مبحوحة من الـدهشة والحيرة . إن هذه الفواصل ، في حيـاة تلميذ الحب مُرة ، غير أنها ضرورية لنمـوه ونضجه . إنها تساعد المرء كي يجرد نفسـه بصورة ذهنية من كل شيء عدا الرغبة العارمة في مزيد من الحياة .

والآن يعاني الوضع الراهن للأمور أيضـًا عملية تغيير غامضة ، فقد بدأت عمليات رحيل أخـرى . « نسيم » ذاهب إلى « كينيا » في إجازة . نال « بـومبال » الترقية ونقل إلى وظيفة بالمحكمة العليا « بروما » حيث سيكون دون شك أسعد حالا . وبـدأت سلسلة من حفـلات الوداع التي تحقق أهـداف كل منا ، إلا أنها كانت حفـلات ثقيلة الظل لغياب الشخـص الوحيد الـذي لم يعد يذكـره أحد ـ «جـوستين » . من الواضح أيضـا أن حـربًا عـالميـة تزحف علينـا في بطء عبر مضـايق التاريـخ ـ تضاعف مطالبنا إزاء بعضنـا البعض وإزاء الحياة . وتعلق رائحـة الـدم الحلوة إلى حـد الغثيـان في الجو المعتم وتعمل على خلق إحسـاس بالإثارة والغرام والاستهتار . وهي نغمة كنا نفتقدها حتى الآن .

إن الثريات التي في المنزل الكبير والتي بدأت أكره قبحها تتوهج فوق الجمع الذي التأم شمله ليودع صديقي . إن الجميع هناك ، الوجوه والتواريخ التي عرفتها معرفة جيدة ، « سفيفا » ترتدي الأسود ، « وكليا » ترتدي رداء ذهبيًا ، «جاستون » ، « كلير » ، و « جابي » . وألاحظ أن اللون الرمادي قد بدأ يأخذ طريقة بصورة طفيفة إلى شعر « نسيم » خلال الأسابيع الأخيرة . « بتوليميو» و« فؤاد » يتشاجران بكل الحيوية التي يتمتع بها العشاق القدامى . وترتفع حولى الحيوية السكندرية الأصيلة وتهدأ إلى مناقشات هشة حقيقة كالزجاج المشغول . هنا نساء الإسكندرية بكل خبثهن المهذب يودعن الرجل الذي أسرهن بالسماح لهن بمصادقته . أما عن « بومبال » ذاته فقد غدا منذ نال الترقية أتخن مما كان ، وأكثر ثقة في نفسه . وأصبح لمنظر وجهه الجانبي شبهًا معينًا «بنيرون » . إنه يفضي إلى بقلقه علىّ في صوت خفيض ، إننا لم نلتق منذ بضعة أسابيع اللقاء الواجب ، لم يسمع هو بمشروعي عن التدريس إلا الليلة . وأخذ يكرر ، يجب أن ترحل ، أن ترجع إلى أوربا . إن هذه المدينة ستقوض إرادتك . ماذا سيقدم لك الصعيد ؟ حر مشتعل ، غبار ، ذباب ، عمل حقير ... وعلى كل حال فإنك لست « ريمبود » .

وتحول الوجوه التي تتموج حولنا وترشف الأنخاب دون الرد عليه ، ويغمرني هذا الأمر بالسعادة إذ ليس لدي ما أقوله . وأحملق فيه أومئ برأسي ، وأنا أحس بخدر هائل . وتمسكني « كليا » من معصمي لتسخبني جانبًا وتهمس لي : « بطاقة من « جوستين » . إنها تعمل في « الكيبوتز » اليهودي في فلسطين . هل أخبر « نسيم ؟ » .

« نعم . كلا . لست أدري » .

« إنها تطلب مني ألا أخبره » .

« إذن فلا تخبريه » .

وتحول كبريائي دون سؤالها إذا كانت هناك أية رسالة من أجلي . وأخذ

الجمع يغني تلك الأغنية القديمة « لأنه إنسان طيب خفيف الروح » ، في فترات مختلفة وبلهجات متنوعة . وغدا وجه « بومبال » قانيًا من فرط سعادته . وأنزل يد « كليا » بلطف حتى ألحق بالغناء . والقنصل العام الضئيل الجسد يأتي بحركات من يديه وجسده ويتملق « بومبال » . إنه مرتاح ارتياحًا كبيرًا لرحيل صديقي حتى أنه ارتدي لباس الصداقة والأسى بصورة تبدو وكأنها نوبة مرضية . وتبدو مجموعة القنصلية الإنجليزية في جو كئيب كأنها عائلة من الديكة الرومية تبدل ريشها . وتتابع مدام « فنيوتا » النغم بنقرات من يدها الرشيقة المكسوة بالقفاز . والخدم السود بقفازاتهم البيضاء الطويلة يتحركون من مجموعة إلى أخرى من مجموعات الضيوف في خفة كأقمار مخسوفة . وأجد نفسي أفكر في الذهاب إلى إيطاليا أو فرنسا : حتى أبدأ نوعًا جديدًا من الحياة : لن تكون حياة مدنية في تلك المرة ، ربما في جزيرة في خليج «نابولي » ... غير أني أدرك أن المشكلة التي بقيت بلا حل في حياتي ليست هي مشكلة « جوستين » ولكنها مشكلة « ميليسا » . فقد كان المستقبل ، إذا كان هناك ثمة مستقبل ، مرتبطًا بها دائماً على نحو غريب . ومع ذلك فإنني أحس بعجزي عن التأثير فيه بالقرارات أو حتى بالأماني . إننى أحس بأن على أن أنتظر في صبر حتى تلتئم آثار تاريخنا الضحلة مرة أخرى ، حتى تلتقي خطانا مرة أخرى . ربما يستغرق هذا الأمر سنوات ـ ربما يكون كلانا قد ابيض شعره عندما يتغير مجرى التيار فجأة . أو قد يموت الأمل وهو مازال وليدًا ، وتسحقه تيارات الأحداث كحطام سفينة غارقة . إنني لا أثق في نفسي إلا بقدر محدود للغاية . النقود التي تركها « بورسواردن » ما تزال في البنك ـ لم ألمس مليماً واحدا منها . إنه بمثل هذا القدر من المال يمكننا أن نمضي عامين نتمتع بالشمس في كل مكان رخيص .

« ميليسا » ما تزال تكتب إلى تلك الخطابات المرحة اللامبالية والتي أعاني صعوبة حقيقية في الرد عليها إلا بردود باكية عن الأحوال التي أعيشها أو عن

تبذيـري وفشلي . ما أن أغـادر المدينة حتى يسهل الأمـر على . سينفتح أمامي طريق جـديد . سأكتب لها في صراحة مطلقـة لأخبرها بكل ما أشعر بـه ـ حتى بـالأشيـاء التي أؤمن أنها لن تستطيع فهمهـا أبـدًا على الـوجـه الصحيح . إن «نسيم» يقول للبـارون « ثيبولت » : « سأعود في الـربيع فترة الصيف في « أبو الصبر » *. لقد عقـدت النية على الاسترخاء لمدة تقـرب من عامين . فقـد بذلت جهدًا شـاقًّا في العمل غير أنه لا يستحق ذلك » . ورغم الشحـوب الشجي الذي كـان يكسو وجهـه فقد كـان في وسع المرء أن يرى مـا فيه من شعـور جديـد بـالطمأنينة ، وراحـة البـال ، ربما كـان قلبه يعـاني التشتت والحيرة ، غير أن أعصابـه قد هـدأت أخيرًا . إنه ضعيف ، ضعـف المتماثل للشفاء ، لكنـه لم يعد مريضًا . ونتحـدث ونتبادل النكات لفترة في هدوء . فمن الـواضح أن صداقتنا سـوف تلتئم من تلقاء نفسهـا إن عاجـلا أو آجلا ـــ فكلانـا لديـه الآن ذخيرة مشتركة من التعاسة يمكن أن يجتر منها . وأقول له « جوستين » فيشهق قليلا وكأن أحدهم قـد دفع بشوكة تحت ظفـر إصبعه . « إنها تكتب من فلسطين » . ويومئ برأسه في سرعة ، ويشير إلى إشارة بسيطة : « إنني أعرف . فقد اقتفينا أثرها . لا داعي لـــ .. إنني أكتب إليها . في مقدورها أن تظـل بعيدًا كيفما تشاء . وتعود وقتما تشاء » .

من الغبـاء أن يحرمه المرء من الأمـل والعزاء الـذي يمنحـه له هـذا الأمل ، ولكنني أدرك الآن أن « جوستين » لن تعود أبـدًا على أسس حياتها الماضية . إن كل جملـة في خطابها إليّ تـوضح هـذا المعنى . لسنا نحن الـذي هجـرتنا هـذا الهجران ولكنه نمط الحياة الذي هدد عقلهـا ـ المدينة ، والحب ، مجموع كل ما تقاسمناه معًا . ماذا كتبت له ، كنت في حيرة ، كلما تذكرت النهنهة القصيرة التي صدرت عنه عندما كان مستندًا إلى الحائط المطلي باللون الأبيض ؟

---

* يقصد المؤلف « أبو صير »

إنني أسير على الشواطئ المهجورة ، صباح الأيام الربيعية عندما تتمدد الجزيرة في بطء بعيدًا عن البحر في الساعات الأولى لشروق الشمس ، أحاول أن أستيعد ذكريات العامين اللذين قضيتهما في صعيد مصر . ومن الغريب أن يكون كل شيء عن « الإسكندرية » مليئًا بالحياة حتى أنني لا أتذكر إلا القليل عن تلك الفترة الضائعة . أو هي ربما ليست على هذا القدر من الغرابة ـ إذ عند مقارنتها بالحياة التي عشتها في المدينة فإن حياتي الجديدة كانت كئيبة رتيبة.

إنني أتذكر الجهد الذي يقصم الظهر في العمل المدرسي ، النزهات في الحقول المنبسطة الغنية بمحاصيلها الفائضة والتي تتغذى على عظام الموتى من الرجال: النيل الأسود بغذائه من الطمي يتحرك سمينًا ممتلئ الجسم إلى البحر عبر الدلتا: الفلاحون الذين تمكنت البلهارسيا منهم والذين تشع النبالة والصبر من أسمالهم يبدون كاختراعات منزوعة الملكية : قساوسة القرية ينشدون ترانيمهم: الأبقار المعصوبة تدير عجلة الساقية البطيئة ، معصوبة العينين حتى تحمى من رتابة عملها ــ انظر إلى أي مدى يمكن أن يغدو العالم صغيرًا ؟ لم أقرأ شيئًا خلال تلك الفترة ، ولم أفكر في شيء ، لم أكن أي شيء . كان آباء المدرسة كرماء معي فتركوني بمفردي خلال أوقات فراغي ، ربما أحسوا عدم استطابتي للملبس وللجهاز الإداري الكهنوتي .

أما الأطفال فقد كانوا بالطبع مصدر عذاب لي ـ ولكن أي مدرس حساس لا يردد في أعماقه كلمات « تلستوي » الرهيبة : ــ « ما أن أدخل مدرسة وأرى مجموعة من الأطفال ، مهلهلي الثياب نحاف الأجسام قذرين إلا أن عيونهم صافية تطفر منها أحيانًا تعابير ملائكية ، حتى يسيطر عليّ القلق والرعب ، وكأنني قد رأيت بعض الناس وهم يغرقون » .

ورغم زيف المكاتبة إلا أنني حافظت على اتصال غير منتظم مع « ميليسا » التي كانت تصلني خطاباتها بطريقة منتظمة ، وكتبت لي « كليا » مرة أو مرتين، إلا أن الشيء الذي كان غاية في الغرابة هو أن « سكوبي » العجوز كان متضايقًا

لأنــه افتقدني بصــورة كبيرة كما عبر عن ذلك بنفسه . كـانت خطابـاته مليئـة بالسـخرية المدهشة من اليهود (والذي كان يشير إليهم على الدوام مستهزئًا ـ « بالديكـة القارضة ») . وكذلك كـان غريبًا للغايـة أن يشـير إلى اللواطين (الذين أطلق . عليهم اسم الخناث) . لم أفاجأ عندما علمت أن البوليس السري قد ألقى بـه واستغني عنه ، وغـدا في مقـدوره الآن أن يمضي معظم اليـوم في فراشــه و «زجاجة خمر قوية » في متناول يده ، إلا أنه كان يحس الوحدة ، لذا فقد كتب إليّ يراسلني .

كانت تلك الخطابات مفيـدة لي . فإن شعوري بأن كل شيء غير حقيقي كان قد نما إلى درجة أنني لم أعد أأتمن ذاكرتي في بعـض الأحيان ، فأجد صعوبة في أن أصدق بأن هناك على الإطلاق شيئًا كمدينة « الإسكندرية » .

ما إن ينتهي عملي حتى أغلق حجرتي عليّ وأزحف إلى سريري ، الذي يوجد إلى جواره صندوق أخضر مصنــوع من حجر اليشم ملىء بالسجـاير المحشوة بالحشيش . وإن كـان البعض قد لاحظ نهجي في الحيـاة أو علق عليه فإنني لم أترك على الأقل أي ثغرة للنقد في عملي . كان من العسـير أن يغبطني أحد لرغبتي المفرطـة في الوحـدة . وللحقيقة فإن الأب « راسـين » قـد بذل معـي محاولة أو محاولتين كي يستثير همتي . كان أكثـرهم حساسيـة وذكاء وربما أحس بأن صداقتي له قد تلطف من وحدته الفكرية .

كنت حـزينـًا من أجله وآسفـًا على نحـو مـا لعجزي عن الاستجـابـة لتلك العروض الـودية . غير أني كنت مصابـًا بتبلد كـان يزداد بصورة تـدريجية ، جمود ذهني جعلني أحجم عن الاتصال بالآخرين . وقـد رافقته مرة أو مرتين في نزهــة إلى جانب النهر (كــان عالمًا في النبات) واستمعت إليـه يتحدث في يسر وذكاء عن مـوضوعه . غير أن المناظر الطبيعيـة كانت بلا طعم لتفـاهتها وعدم تجانسـها مع الفصول . وبدا أن الشمس قـد لفحت شهيتي لكل شيء ـ للطعام ، وللصحبة، وحتى للحـديث . وفضلت أن أستلقي في سريري أحملق في السقف

وأتسمع الضوضاء حولي في جناح المدرسين : الأب « جودير » يعطس . يفتح الأدراج ويغلقها ، الأب « راسين » يعزف على ناية بعض المقطوعات مرة أخرى ، وتتلاشى أصوات الأرغن وسط أنغامه في الكنيسة المظلمة ، ومنحت السجاير الثقيلة عقلي حالة من الهدوء ، وقد خلصته من كل همومه .

وناداني « جودير » ذات يوم بينما كانت أعبر السور ، وأخبرني أن أحدهم يرغب في مكالمتي هاتفيا . كان من الصعوبة بمكان أن أدرك ما يقول أو أن أصدق أذنيّ . من الذي سيطلب مكالمتي بالهاتف بعد كل هذا الصمت ؟ ربما كان « نسيم » ؟

كان الهاتف في مكتب الرئيس ، حجرة لا يسمح لأحد بدخولها مليئة بالأثاث الضخم والكتب الفاخرة التجليد . كانت السماعة تطقطق طقطقة خفيفة ، وقد رقدت فوق نشافة الحبر أمامه . ونظر إلى شزرًا وقال في قرف : « إنها امرأة تتحدث من « الإسكندرية » . واعتقدت أنها لابد وأن تكون « ميليسا » ، ولكن لدهشتي انساب فجأة صوت « كليا » سابحًا من شذرات الذاكرة : « إنني أتحدث إليك من المستشفى اليوناني . إن « ميليسا » هنا ، إنها في الحقيقة مريضة للغاية ربما كانت تحتضر » .

إنني لا أنكر أن دهشتي وارتباكي قد تحولا إلى غضب .. « غير أنها لم تكن لتسمح لي بأخبارك من قبل ، لم تكن ترغب في أن تراها مريضة ـ نحيفة للغاية. ولكن يجب أن أخبرك الآن . هل في وسعك الحضور سريعًا ؟ سوف تراك الآن».

واستطعت أن أرى بعين خيالي قطار الليل المتسكع بوقفاته وانطلاقاته التي تنتهي عند المدن والقرى التي يغلفها التراب والحر والقذارة . ربما استغرق السفر طوال الليل . واتجهت إلى « جودير » وسألته أن يسمح لي التغيب طوال نهاية الأسبوع . وقال مفكرًا : « إننا نمنح الإذن في الحالات الاستثنائية . كأن تتزوج مثلاً أو أن يكون أحدهم مريضًا للغاية » . وأقسم أن فكرة زواج «ميليسا» لم تكن قد خطرت برأسي حتى نطق تلك الكلمات .

وعاودتني الآن أيضـًا ذكرى أخـرى بينما كنت أحزم حقيبتي الـرخيصة . الخاتمان ، خاتما « كـوهين » ، إنهما مازالا في علبة أزرار القمصـان ملفوفين في ورقـة بنية . ووقفت أتأملهـا للحظـة وأنا أتسـاءل في حيرة إن كـان للأشيـاء الجامدة أيضًا مصيرها كما للإنسـان . هذان الخاتمان اللعينان ، وفكرت ـ لماذا ، بدا الأمـر وكأنهما كانا ينتظران هنـا طوال هذا الوقت في اشتيـاق كالآدميين ، ينتظران أن يـوفيا حقهما التـافه بأن يـوضعا علي أصبع أحدهـم وقد وقع في مصيدة زواج قائم على المنفعة . ووضعت الخاتمين البائسين في جيبي .

إن الأحداث البعيـدة تكتسب وقد حولتهـا وغيرتها الذاكرة لمعانـًا مصقولا لأنها ترى في عـزلتها ، مفصولـة عن التفاصيل السـابقة واللاحقـه عن خيوط الزمن ولفافاته . إن ممثلو الأحداث يعانون أيضًا التحويل والتغير ، ويغطسون في بطء، أعمق فأعمق في محيط الـذاكـرة كالأجسـاد مثقلة ، ويجدون عنـد كل مستو في القلب الإنسـاني تقديرًا جديدًا، وتقييماً جديدًا .

لم يكن ألمًا ما أحسست به لانتكاسة « ميليسا » ، لكنه كان الغضب ، هياج لا يستهـدف شيئًا ، ويقـوم كما أعتقـد ، على شعـور بالنـدم . وانتهت كل آفـاق المستقبل الهائلـة والتي عمرتها رغم تشتت فكـري بصور « ميليسـا » ، انتهت الآن إلى العجـز والفشل ، ولم أدرك إلا الآن إلى أي مدى كنت أغـذي نفسي بتلك الآمال . كانت كلها هناك ، كذخيرة ضخمة مؤتمنة ، كحساب يمكنني أن أسحب منه ذات يوم . وفجأة غدوت الآن مفلسًا .

كان « بلتازار » ينتظرني عند المحطـة بسيارته الصغيرة . وضغط على يدي في تعاطف حـار وخشن بينما كان يقول في أسلوب عملي : « لقد مـاتت المسكينة مســاء أمس . لقـد أعطيتهـا المورفين كي أسـاعـدهـا على أن تنتهي دون ألم . حسنًا». وتنهد وهو ينظر إلى نظرة جانبية . « المؤسف أنك غير معتاد على ذرف الدموع . كان من الممكن أن تخفف عنك » .

« تخفف عن النفس بطريقة سوقية » .

« إنها تعمق العواطف .... وتغسلها » .

« اصمت يا « بلتازار » ، أصمت » .

« كانت تحبك على ما أعتقد » .

« إننى أعرف ذلك » .

« كانت تتحدث عنك دائماً . وكانت كليا معها طوال الأسبوع » .

« كفى » .

لم تبد المدينة أبدًا جميلة مذهلة إلى هذا الحد كما بدت في هواء ذلك الصباح الناعم . وتلقيت الريح الخفيفة القادمة من الميناء على خدي الخشن كقبلة صديق قديم . ولمعت « مريوط » هنا وهناك بين ذرا النخيل ، بين الأكواخ الطينية والمصانع . وبدت الحوانيت على طول « شارع فؤاد » وقد اكتسبت كل لمعان « باريس » وجدتها . لقد غدوت ، كما أدركت ، مواطنًا حقيقيًا من صعيد مصر . وبدت لي « الإسكندرية » مدينة رئيسية . وفي الحدائق المشذبة كانت المربيات تدفعن عربات الأطفال بينما كان الأطفال يدفعون أطواقهم . وقطارات الترام تهرس الأرض تحتها وتقعقع وتصلصل . وقال « بلتازار » بينما كنا نقطع الطريق في سرعة : « هناك شيء آخر . طفلة « ميليسا » ، إنها ابنة « نسيم » غير أني أعتقد أنك تعرف كل شيء عنها . إنها في الفيلا الصيفية . فتاة صغيرة » .

لم أستطع أن أستوعب كل هذا وأنا نشوان بجمال المدينة التي كدت أن أنساها . وخارج مبنى البلدية جلس الكتبة المحترفون على مقاعدهم ، وإلى جوارهم محابرهم وأقلامهم وعرائض التمغة . كانوا يحكون أنفسهم ويثرثرون بطريقة ودية . وصعدنا التبة المنخفضة التي تقوم عليها المستشفى بعد أن قطعنا الجزء الرئيسي من الطريق الذي تظلله الأشجار . كان « بلتازار » ما يزال يتكلم عندما غادرنا المصعد وبدأنا سيرنا في ممرات الطابق الثاني الطويلة البيضاء .

« لقد نما بيني وبين « نسيم » حائل من البرود . لقد رفض في تقزز رؤية

«ميليسا » بعـد ما عــادت ، ورأيت في ذلك تصرفًا غير إنســاني ، يصعب فهمه . إنني لا أعرف .... أما عن الطفلة فإنه يسعى لتبنيهـا . وأعتقد أنه قد بدأ يمقتها. إنه يعتقد أن « جوستين » لن تعود إليـه طالما احتفظ بطفلة « ميليسا » . أما من ناحيتي » ، وأضــاف في بطء أكثر ، « فإنني انظـر إلى الأمر على هذا النحـو : لقد حدث عن طريق واحـدة من عمليات التبادل المخيفة والتي يبـدو ألا يقدر عليها غير الحب أن « نسيم » قـد أعـاد طفلة « جـوستين » المفقـودة لا « لجوستين » ولكن « لميليسا » . أترى ؟ » .

إن الشعور بالألفة المخيفة والذي أخذ ينمو في نفسي إنما يعود إلى حقيقة أننا كنا نقترب من الحجرة الصغيرة التي زرت فيها « كوهين » عندما كان يحتضر . بالطبع ستكون « ميليسا » راقدة في نفس السرير الحديدي الضيق في الركن إلى جوار الحائط . وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن في هذه النقطة .

كانت هنـاك بعض المرضــات في الحجرة ، كن مشغـولات ، يهمسن حول السرير ، يعـددن الستائر ، ولكنهن تفـرقن واختفين بكلمة واحـدة صدرت من «بلتازار » . ووقفنـا عند مـدخل الباب ننتظر لحظـة وقد أمسك كل منـا بذراع الآخر . كانت « ميليسا » شاحبة يابســة . كانوا قد ربطوا فكها بشريط وأغلقوا عينيها ، حتى بدت وكأنها قد نامت أثنـاء عملية تجميل . وأحسست بالراحة إذ كانت عيناها مغلقتين ،فقد كنت أخشي نظرتهما .

وتــركت وحدي معهــا لفترة من الـزمن ، في ذلك الصمت الهائل الذي ســاد حجـرة المستشفي البيضـاء الجدران ، وفجأة وجـدت نفسي أعـاني من حيرة بالغة. إنه لأمـر عسير أن تعرف كيف تتصرف مع الموتي ، إن صممهم الشديد وصرامتهم البـالغة تبـدو أمرًا مـدروسًا ومعـدًّا إعدادًا متقنـًا . ويغدو المرء في في حضرتهم مرتبكـًا وكأنه في حضرة ملكيـة . وسعلت من خلف يـدي وأخذت أمشي في الحجرة جيئة وذهابًا وأنــا أسترق منها نظرات خاطفة من ركن عيني ، فتذكرا الاضطراب الذي حل ذات مرة عندمــا زارتني ومعها هدية من الزهور .

كنت أرغب في أن أضع خاتمي « كـوهين » في أصابعهـا غير أنهم كانوا قـد لفوا جسدها في الأربطـة ، وكانت ذراعاها مشـدودتين متصلبتين إلى جوارها . ففي مثل هذا الطقس تتحلل الأجساد في سرعة حتى أنهم يدفعون بها إلى القبور دون طقوس أو مراسيم . وقلت « ميليسـا » مـرتين في صوت هامس واهن وأنا أميل بشفتي فوق أذنها . ثم أشعلت سيجارة وجلست إلى جـوارها فوق كرسي حتى أدرس وجهها دراسة مستفيضـة ، مقارنًا إياه بكل وجـوه « ميليسا» الأخرى والتي تـزحم ذاكرتي والتي وطـدت كيانها هناك . لم تكن تحمـل أي شبه لأي منها ـ ومع ذلك فقد فاقتهم وكـانت خاتمة لهم . إن هذا الوجه الأبيض الصغير كان الحلقة الأخيرة في سلسلة الوجوه التي عرفتها لها . وبعد تلك النقطة هناك باب مغلق .

في مثل تلك الأوقـات يتلمس المرء بـــادرة يمكن أن تماثل استرخـاء الإرادة الرخامي الرهيب والـذي يقرأه المرء على وجوه الموتى . ليس هناك من شيء في كل مخزون العـواطف الإنسانية المهلهـل . وقد كتب « الأرناؤوطـي » في سياق آخـر : «كم هي مرعبـة وجوه الحب الأربعـة » . وعاهـدت الشبح المسجي على الفراش بأني سآخذ الطفلة إن تركها « نسيم » . وما إن انتهيت من هذا الاتفاق الصـامت حتى قبلت جبينها العـالي الشاحب وتـركتها لـرعايـة هؤلاء الـذين سيلفـونها ويـرسلون بها إلى القبر . كنـت مسرورًا أن أغادر الحجـرة ، أغـادر صمتًا محكماً ومانعـًا . إنني أعتقـد أننـا نحن الكتـاب قوم قسـاة . الموتي لا يعبأون. إن الأحياء هم الذين يمكن الإبقاء عليهم إذا استطعنا أن نحمل الرسالة التي ترقد مدفونة في أعماق التجربة الإنسانية .

(في الأيـام الغابـرة كـانت تقوم السفـن المبْحرة والتي تحتـاج إلى أن تثقل نفسها لتواجه البحر ، بجمع السـلاحف البرية من اليابسة وملء براميل كبيرة بها وهي حيـة . وقـد تباع تلك التي تنجـو من الـرحلـة الـرهيبة إلى الأطفـال كحيوانـات أليفة. أمـا أجساد البقية المتعفنـة فقد كـانت تفرغ في مـواني الهند

الشرقيـة . وأصبحت كمياتها هنـاك أكثر من كميـاتها في الأماكن التي جـاءت منها) .

سرت في المدية في خفـة دون جهد كسجين هارب . وكان عينـا « منمجيان » البنفسجية مليئة بدموع بنفسجية عنـدما عانقني في حرارة . وقرر أن يحلق لي ذقني بنفسه ، كانت كل حركة من حركـاته تعبر عن التعاطف والعزاء والرقة . وفي الخارج فوق الأرصفـة مشى أهل « الإسكندرية » يغمـرهم ضوء الشمس وكل منهم حبيس عالم من العـلاقات الشخصية والمخاوف .ومع ذلك فقـد بدا كل منهم غريبـًا غرابـة لا نهاية لها عما يشغل بالي من مشـاعر وأفكـار . كان المدينة تبتسم في لا مبالاة تحطم الفؤاد ، كعاهرة أنعشها الظلام .

لم يبق غير شيء واحـد أقوم بـه الآن ، أن أرى « نسيم » . وارتحت عندمـا علمت أنه ينتظر عودته إلى المدينة ، ذلك المسـاء . هنا أيضـًا كان الزمن يختزن لي مفاجأة أخـرى ، لأن « نسيم » الذي عاش في ذكـرياتي لمدة عـامين من قبل قد تغير .

كان قـد هرم كامرأة ـــ وتضخم وجهه وردفاه . كـان يسير الآن وقد وزع ثقله على سطـح قدمية بطـريقة مـريحة وكأن جسده قـد عانى الحمـل مرات عديدة. واختفت تلك الـر شاقة الغريبة التي كانت تتميـز بها خطاه . فضلاً عن ذلك فقد غدا يشع فتنة فيها رخـاوة تمتزج بالهم والقلق مما جعلني لا أتعرف عليه في باديءً الأمـر . وقد سيطرت عليه نزعة تسلط حمقـاء محل حيائه القديم الذي كان يبعث السرور في النفس .

لم يكن لدي مـا يكفي من الوقت لأضع يـدي على تلك الانطباعـات الجديدة وأفحصها عنـدما أقترح أن نزور « الإيتـوال » سويًا . ذلك النـادي الليلي الذي كانت تـرقص فيه « ميليسـا » . وأضاف أن أصحاب النـادي قد تغيروا ، وكأن هـذا التغيير يبرر زيارتنـا للملهى في نفس الليليـة التي شيعت فيها جنـازتها . ووافقت دون تـردد لقد كنت مصعـوقًا ومـدهوشـًا يحفزني فضـول لمعرفـة

مشاعره هو ورغبة في مناقشة المشكلة التي تخص الطفلة .

وعندما هبطنا السلم الضيق الخانق إلى ضوء المكان الساطع انطلقت صرخة وهـرعت البنات إليـه من كل ركن كالصراصير . وظهـر أنه معـروف لهن الآن معرفة جيدة كزبون للمكان . وفتح ذراعية بصيحة ضاحكة ، واستدار لي وهو يفعل ذلك لأقر تصرفه . ثم تناول أديديهن واحـدة بعد الأخرى وكان يضغطها بطـريقة شهـوانية إلى جيب سترتـه الواقع على صـدره حتى يمكنهن تحسس محفظته المحشوة بأوراق البنكنوت والتي يحملها الآن . وذكرتني هذه الحركة في الحال ، كيف أمسكت امـرأة حـامل اعترضت طـريقي ذات ليلـة في شـوارع المدينـة المظلمة بيـدي عنـدمـا حاولـت أن أهرب منهـا ، وكأنها كـانت يسعى لإعطـائي فكـرة عن المتعـة التي تعـرضها عليّ (أو ربما لتأكيـد حـاجتهـا) ، ووضعتهـا فوق بطنهـا المنتفخة . وتـذكرت فجأة وأنـا أراقب « نسيم » الآن ، دقات قلب الجنين المرتجفة وهو في شهره الثامن .

من الصعب أن أصف كيف وجـدت أن الجلـوس إلى جـوار هـذا الشبيـه السوقي « لنسيم » الـذي عرفته ذات مـرة ، أمر غـريب يستحيل التعبير عنه . وأخذت أرقبه بدقة غير أنه تجنب نظراتي إليه وحصر حديثه في توافه ثقيلة كان يقطعها بتثـاؤبه المتصل والذي كان يـداريه خلف أصابع مرصعـة بالخواتم . ومع ذلك فقـد كانت تظهـر مـا بين الفينة والأخـرى من خلف هـذه الواجهـة الجديدة لمحة من حياته القديم ، غير أنه الآن مـدفون ـ كما يدفن قوام جميل في جبل من السمنـة. ولقـد أسر لى « زولتـان » النـادل في حجـرة الغسيل : « لقـد استعاد ذاته الحقيقية منذ هجرته زوجته . إن كل « الإسكندرية » تقول ذلك » . والحقيقة أنه قد غدا مثل كل ما في « الإسكندرية » .

واستولت عليـه في ساعة متأخـرة من تلك الليلة نزوة في أن يتـوجه بي إلى المنتزه في ضوء القمر المتأخر ، وجلسنا في السيارة صامتين لمدة طويلة ، ندخن، ونحملق إلى الخارج في الأمواج التي تحجل عبر كثبان الرمـال وقد أضاءها نور

القمـر . لقـد أدركت حقيقتـه خلال هـذا الصمت . إنـه في الحقيقـة لم يتغير في أعماقه. لقد تخذ لنفسه قناعًا جديدًا فقط .

* * *

وتلقيت في أوائل الصيف رسالة طويلـة من « كليا » يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التذكارية القصيرة عن « الإسكندرية » .

« ربما تكون مهتماً بتقريـر مني عن لقاء قصير تم بيني وبين « جوستين » منذ أسـابيع قليلة . لقد كنا منـذ فترة مضت ، كما تعرف ، نتبادل البطـاقات في المناسبات كل من البلد التي تنتسب إليه ، وعندما عرفت « جوستين » أنه ينتظر مروري « بفلسطين » في طريقي إلى « سـوريا » اقترحت أن نلتقي لقاء قصيرًا . وقالت إنها ستأتي إلى محطـة الحدود حيث يتوقف قطـار « حيفا » لمدة نصف ساعة . إن المستعمرة التي تعمل بها تقع على مقـربة من المكان . وفي وسعها أن تجد من يوصلها . وإننـا سنتكلم لمدة قصيرة على رصيف المحطة . فوافقت على ذلك .

« وقد وجـدت في باديءً الأمر صعوبـة في التعرف عليها . لقـد سمن وجهها كثيرًا ، وقصت شعرها من الخلف بطريقة مهملة حتى أنه كان ملتصقًا ببعضه كذنب الفأر . وفي اعتقادي أنها تضمه أغلـب الوقت بقطعة من القماش . لم يعد هناك أثر لرشـاقة و « شياكة » الماضي . وتبدو تقاطيعهـا وقد اتسعت ، تقاطيع يهودية كلاسيكية ، الشفاه والأنف يميلان أكثر فأكثر نحو بعضهما البعض. ولقد صدمـت في باديءً الأمر بعينيها الـلامعتين وبالطريقة السريعـة الصارمة التي تتنفس وتتحدث بها ـ وكأنها محمـومة . وكما في وسعك أن تتصور ، فقد كنا خجلتين كلاً من الأخرى خجلا قاتلاً .

« وسرنا خارج المحطة على طول الطريق وجلسنا عند حافة واد ضيق جاف، وتحت أقدامنا بعض زهور الربيع التي كانت تطل برأسها في خوف وأحسست بانطباع أن أختيارها هذا المكان للقائنـا ربما تم لكآبته التي تناسب كآبة اللقاء .

إنني لا أدري . أنها لم تذكر « نسيم » أو تذكـرك في بادئ الأمر ، ولكنها تكلمت فقط عن حيـاتها الجديدة . وادعت أنها قـد حققت سعادة كـاملة جديـدة ، من خلال قيامها « بالخدمـة الاجتماعية » . وأوحت لى الطريقة التي تحدثت به عن نوع من الهداية الدينية . لا تبتسم . إنه لأمر صعب ، كما أعرف أن تكون حليماً مع الضعيف . إنها تدعى بأنها قـد حققت من ذلك الجهد الـذي يقصم الظهر في المستعمرة الجماعية « تواضع جديد » (تواضع ! الفخ الأخير الذي يترقب الأنا في بحثهـا عن الحقيقـة المطلقة . وأحسست بـالتقـزز ولكنني لم أقل شيئًا) . ووصفت العمل في المستعمرة بطـريقة خشنة خاليـة من الخيال ، كما يفعل أي فـلاح . ولاحظت أن يديها اللتين كـانتا تعتني بهما في الماضي عنـاية فـائقة قـد أصبحتـا غليظتين خشنتين . وقلت لنفسي وأنا أحس الخجل إذ لابـد أنني كنت أشع نظافـة وراحة ، غـذاء واستحمامًا ، قلت إنني أعتقـد أن للناس الحق في أن يتصرفوا في أجسـادهم بالطريقـة التي تروق لهم ، وبالمنـاسبة فهي لم تصبح ماركسية بعـد ، إنها روحانية على طريقة « بنايـوتس » في « أبو الصير » . ولقد وجدت وأنـا أراقبها الآن وأتـذكر الإنسانـة التي كانتهـا ذات يوم ، الإنسـانة المعذَّبة لنا جميعًا ، إنه من الصعب فهم التغير الذي أصاب تلك الصغيرة المكتنزة ذات المخالب الصلبة .

« إنني أعتقـد أن الأحداث مـا هي إلا تفسير لمشاعـرنا ـــ يمكن أن تقودنـا واحدة منهـا إلى الأخرى . الـزمن يحملنا (إذا تخيلنـا في جرأة أننـا شخصيات متميزة ، نشكل بإرادتنـا مستقبلنا الشخصي) ـ الزمن يحملنـا إلى الأمام بقوة تلك المشاعر التي تعيش في أعماقنا والتي لا نعى عنها إلا القليل . هل الأمر مبهم بالنسبة إليها إلى هذا الحد ؟ إذًا فقد عبرت عن الفكرة بطريقة سيئة ... أقصد أن « جوستين »، وقد شفيت من الخلل العقلي الذي جلبته لها أحلاهما ، ومخاوفها، انكمشت كما تنكش الغرارة . لقد شغلت النزوات الجزء الظاهر من حياتها فترة طويلـة حتى أنها جردت الآن من كل مخزونها . إن مـوت « كابـوديستريا » لم

يكن وحده هو الذي أزاح الممثل الرئيسي في هذه التمثيلية الوهمية ، أزاح سجانها الأساسي . إن مرضها الذي كان دافع حركتها قد ترك محله ، عندما انتهى ، شعورًا كاملا بالإرهاق . و يمكن القول أنها قد أخمدت في نفسها دوافع الحياة وحتى شعلة عقلها مع خمود رغباتها الجنسية . إن الناس الذين يدفعون هكذا إلى أقصى آماد الإرادة الحرة يجبرون في مكان ما على طلب العون لاتخاذ قرارات حاسمة. ولو لم تكن « جوستين » سكندرية أي (متشككة) لاتخذ هذا الأمر مظهر الهداية الدينية . كيف يمكن للمرء أن يعبر عن هذه الأشياء ؟ إن القضية ليست قضية نمو المرء ليغدو سعيدًا أو تعيسًا . إن جزءًا كاملا من حياة امرئ يسقط في البحر فجأة . ربما كما حدث لك مع « ميليسا » . غير أن (فهكذا تجري الحياة ، قانون الجزاء الذي يمنح الخير للشر والشر للخير) عتقها هي إنما هو عتق أيضًا « لنسيم » من المواقع التي تحكم حياته العاطفية . إنني أعتقد أنه قد أحس دائماً بأنه طالما عاشت « جوستين » فإنه لن يقدر على احتمال أبسط علاقة إنسانية مع أي واحدة أخرى . غير أن « ميليسا » قد برهنت له على خطئه، أو على الأقل فإنه قد اعتقد ذلك ـ إلا أن آلام قلبه القديمة انطلقت مع رحيل «جوستين » وامتلأت نفسه بتقزز شامل مما فعله ـ مع « ميليسا » .

« العشاق ليسو على الإطلاق أندادًا ــ ألا تعتقد ذلك ؟ إن أحدهم يحجب الآخر دائماً ويوقف نموه أو نموها حتى أن المحبوب تؤرقه دائماً الرغبة في أن يهرب . في أن يكون حرًّا وينمو . إن هذا بالتأكيد هو الشيء المأساوي الوحيد في الحب؟

ولو كان « نسيم » من ناحية أخرى هو الذي خطط مقتل « كابوديستريا » (كما انتشرت الإشاعة وصدقت) فإنه يكون بذلك قد اختار أكثر السبل شؤمًا . والحقيقة أنه كان من الأحكم لو قتلك أنت . ربما كان يأمل في أن يخلص «جوستين » من الشبح (كما حاول « الأرناؤوطي » من قبله) يخلصها من أجله هو . (هذا ما قاله مرة ـ وأنت الذي أخبرتني) . غير أن ما حدث هوا

العكس تمامـًا . لقد منحها بما فعل نوعـًا من المغفرة والإبراء ، أو أن «كابوديستريا» المسكين هو الذي منحها ذلك دون قصد منه ـ والنتيجة أنها لم تعد تفكر فيه الآن كحبيب ولكن كرئيس قساوسة : إنها تتحدث عنه في إجلال سوف يرعبه إن سمعه .

إنها لن تعود أبدًا ، وكيف يمكن لها أن تفعل ذلك ! ولو فعلت لأدرك للتوأنه قد فقدها إلى الأبد ـ لأن هؤلاء الذين يقفون منا موقف المعترف لنا لا يمكنهم أن يحبوننا ، إنهم لا يحبوننا ألبتة حبًا حقيقيًا .

« (أما عنك فقد قالت « جوستين » في بساطة وبهزة خفيفة من كتفها . «كان على أن أقصيه عن تفكيري ») .

« حسنًا ، تلك هي بعض الأفكار التي جالت بخاطري بينما حملني القطار عبر بيارات البرتقال إلى الشاطئ . لقد تحددت معالم تلك الأفكار بصورة قاطعة بمعاونة الكتاب الذي اخترته كي أقرأه خلال الرحلة ، إنه الجزء الأخير من كتاب « الله يحب الفكاهة » . لكم ارتفعت مكانة « بورسواردن » بعد موته ، وكأنما كان يقف فيما مضى حائلا بين كتبه وبين فهمنا لها . إنني أرى الآن أن ما كنا نراه غامضًا في هذا الرجل إنما يرجع إلى خطأ في نفوسنا نحن . إن الفنان لا يحيا مثلنا حياة خاصة ، إنه يخفيها ، ويرغمنا أن نبحث في كتبه إن شئنا أن نلمس المنبع الحقيقي لأحاسيسه . فتحت كل اهتماماته بالجنس والمجتمع والدين.. إلخ (كل التجريدات الأساسية التي تسمح بالثرثرة للجزء الأمامي من المخ) هناك في بساطة شديدة رجل يتعذب فوق ما يحتمل لافتقاد هذا العالم إلى المعاملة الرقيقة .

« وتعود بي كل تلك الأمور إلى نفسي ، لأني أنا أيضًا أعاني تغييرًا غريبًا . إن الحياة القديمة القانعة المكتفية بذاتها قد تحولت إلى شيء أجوف بعض الشيء ، فارغ بعض الشيء . إنها لم تعد تستجيب لأعمق احتياجاتي . ففي مكان ما في أعماق نفسي يبدو أن تيارًا قد حول طبيعتي . لا أدري لما ، ولكن أفكاري ، يا

صديقي العزيـز ، قد تحولت أخيرًا أكثر فأكثر نحـوك ، هل في وسعي أن أكون صريحة ؟ هل يمكن أن توجد صداقة ينشدها المرء ويعتمد عليها في هذا الجانب من الحب ؟ إنني لن أتكلم أكثر من هذا عن الحب ـ فقـد غدت الكلمة وما تحمله من اصطلاحات كريهة إلى نفسي . ولكن هل تـوجد صـادقة يمكن أن ينالها المرء أكثر عمقـًا من ذلك ، عميقـة بلا حدود ، ومع ذلـك فهي صداقـة بلا كلمات أو أفكار ؟ يبدو ـ على نحو ما ــ أنه من الضروري أن يجد المرء إنسانًا يخلص له . لا في الجسـد (فأنا أتـرك هذا للقسـاوسة) ولكن في الفكـر الذي يحس اللـوم والتأنيب ؟ ولكن ربما لا تكون مثل هـذه المشكلة من النـوع الذي يثير اهتمامك كثيرًا في هذه الأيام . لقد أحسست مرة أو مـرتين بالرغبة السخيفة في أن أحضر إليك وأقدم خدماتي في العناية بـالطفلة . ولكن يبدو واضحًا الآن أنك لم تعد في الحقيقة تريد أحدًا ، وأنك تضع وحدتك فوق كل شيء .... »

وهناك بعض السطور الأخرى ثم الخاتمة العاطفية .

* * *

الحشرات المجنحة والتي يشبه صوتها الزقزقة تخفق في السهول الشاسعة، والبحر المتوسط يمتد في الصيف أمامي بكل زرقتـه الخلابة . هناك في مكان ما خلف خط الأفق الخفـاق الأرجـواني الفـاتح تـرقـد « إفـريقيـا » ، تـرقـد «الإسكندريـة» تمسك بقبضتها الـرقيقة عواطف المرء خـلال ذكريـات أخذت تعود في بطء إلى عالم النسيان ، ذكريات أصدقاء وأحداث مضت منذ زمن بعيد إن البطء الوهمى للـزمن يأخذ في الضغط عليها ، في طمس معالمهـا ـ حتى أنني أتساءل أحيـانًا عما إذا كـانت تلك الصفحات تسجل أفعـال أناس حقيقيين ، أو أنها ليست في بسـاطة قصة أشيـاء قليلة خـالية من الحيـاة أحاطتهم بمـأساة أقامتها حولهم ـ أعني عصابة سوداء ، غطاء أخضر من المطاط ، مفتاح ساعة ، وزوج من خواتم الزواج سلبت من صاحبها ....

وسرعان ما يحل الظلام وتغطي نجوم الصيف سماء الليل الصافية فتملؤها.

سأكون هنا ، كما كنت دائماً ، أدخن إلى جوار الماء . لقد قررت أن أترك خطاب « كليا » الأخير دون رد . لم أعد أرغب في أن أفرض إرادتي على أحد ، في أن أفكر في الحياة على أساس من العهود والقرارات والشروط . سيكون الأمر «لكليا» في أن تفسر صمتي طبقًا لحاجتها ورغباتها ، في أن تحضر إلى إن شاءت أو لا تحضر ، حسبما يتراءى لها . ألا يتوقف كل شيء على تفسيرنا للصمت الذي يحيط بنا ؟ .

عن الروايات المدهشة

.. ما من رواية تجاوزت شهرتها اسم صاحبها . قبل رباعية الاسكندرية لمبدعها لورانس داريل . بل إنه لا يذكر اسمه إلا متبوعًا بها لدرجة أنه تولد إحساس أنها تكمل اسمه . وإن ذكر بعيدًا عنها يترك الإحساس أن ثمة أمرًا من الأمور ما زال ناقصًا .

رباعية الاسكندرية ليست نصًا روائيًا فذا وفريدًا فقط . لقد تحولت مع مرور الوقت إلى علامة فارقه في الابداع الروائي . لدرجة أنه يمكن القول أن هناك ما قبل الاسكندرية وما بعدها .

وسيبقى من الصعب إحصاء النصوص الروائية التي خرجت من معطف هذا الاثر البديع من آداب العالم المختلفة . ومن بينها الأدب العربي الروائي المعاصر . فقد كان هذا النص فتحًا جديدًا وهامًا في الكتابة الروائية ويمكن القول ـ دون الابتعاد عن الحقيقة ـ أن هذا النص يعد من أهم النصوص الروائية في قرننا العشرين كله .

ليست هذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها . ولكنها المرة الأولى التي يترجم فيها كاملاً . من الكلمة الأولى وحتى الأخيرة .

والمحاولات السابقة لترجمة هذا الاثر . تمت على النحو التالي . من ابريل «نيسان» سنة ١٩٦١ . صدرت الرواية الأولى «جوستين» عن دار الطليعة في بيروت بالعربية . وكانت قد ترجمتها الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسى . وفي نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٦٢ أصدرت نفس الدار الرواية الثانية من

الرباعية لنفس المترجمة . ثم توقف المشروع ولم يكتمل رغم مرور ثلاثون عامًا على المحاولة .

وفي سنة ١٩٦٩ أصدرت دار المعارف بمصر . ترجمة أخرى للرواية الأولى من الرباعية . قام بترجمتها إلى العربية الدكتور فخري لبيب . ولكن السنوات مرت دون اكمال هذا النص العذب .

هذه المرة ستصدر الأجزاء الثلاثة الأخرى . تباعًا حتى يكتمل هذا الأثر . للمرة الأولى في المكتبة العربية ويكون في متناول أيادى أجيال طالعة من المثقفين والقراء لم تعاصر محاولات الترجمة السابقة .

وصاحب هذا العمل . يقال عنه أنه كاتب إنجليزي من باب التجاوز . فقد ولد في منطقة الهملايا في الهند سنة ١٩١٢ لأب إنجليزي من أصل ايرلندي وتعلم في مدارسها وقضى السنوات العشر الأولى من عمره فيها وإن كان قد عاش في بريطانيا سنوات المراهقة . ومقدمات الشباب . فإنه سرعان ما غادرها لكي يعمل صحفيًا ودبلوماسيًا في باريس والقاهرة واليونان واودس وبلجراد.

وفي سنة ١٩٥٧ استقر نهائيًا في فرنسا . إلى أن مات في العام الماضي . وقد قضي عمره كله رافضًا للحضارة الأوروبية ومتمردًا عليها حيث وجد في الشرق فردوسه المفقود . وفي الشرق اكتشف حقيقة موهبته الأدبية المتألقة .

أصدار داريل في حياته حوالى سبعين كتابًا ما بين الشعر والقصة والرواية وأدب الرحلات . وفي كل كتاباته وقف في منتصف المسافة بين الشعر والنثر لدرجة أنه من الصعب معرفة أين ينتهي الشعر في كتاباته وأين يبدأ النثر . وخلال الثلاثينات كرس داريل مواهبه للشعر الذي اكتسب كثيرًا من الاستحسان والمديح وإن كانت سنوات الحرب العالمية الثانية قد عرقلت مؤقتًا تطوره الأدبي .

وعلى الرغم من أن ميوله السياسية والفكرية أقرب إلى المحافظة . إلا أن كتاباته تعد مغامرة فنية فريدة في أعماله الروائية اكتشاف مدهش لعبقرية

المكان ، وتداخل للأحداث . واختراق للضمائر : مع سيولة في الزمان والمكان معًا . وتأكيد على استحالة الاحاطة بكافة جوانب أي حدث ما . إلا من زوايا رؤيا متعددة ومختلفة . فدائماً هناك ظلال أخرى في الجانب الآخر من الحدث . لا توجد حقيقة مطلقة أبدًا . والحقيقة لابد وأن تكون نسبيه .

« الكتاب الأسود » . كانت أول رواياته . وقد نشرها سنة ١٩٣٨ . وإن كان لم يتم تداولها في بريطانيا سوى في سنة ١٩٣٧ . بسبب الإباحية المنتشرة فيها. وقد قدمها : ت . س . اليوت بإعتبارها واحدة من أهم آمال الرواية الإنجليزية الحديثة .

ومهما تنوعت أعماله فيبقى داريل كاتبًا غربيًا يكتب عن الشرق . ولذلك ثمة حالات تصوف . وطيوف خيالات رحالة . وقدرة لا تنفد على الاندهاش عند رؤية أي شيء تقع عليه العين في هذه البلاد الغريبة .

« جوستين » هي الرواية الأولى . والروايات الثلاث الآخرى هي : «بلتازار»، « ماونت أوليف » و « كليا » . والروايات الثلاث الأولى ليست متتابعة ولكنها متجاورة . فيها الأحداث نفسها تقريبًا . حيث الإسكندرية قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة والرواية الرابعة والأخيرة تغطي تطورات الأحداث خلال هذه الحرب وقد صدرت جوستين لأول مرة سنة ١٩٥٧ . وتوالى ظهور الرباعية . بلتازار١٩٥٨ . مونتليف ١٩٥٩ . كليا ١٩٦٠ وكان مكتوبًا عليها لا توزع في المملكة المتحدة .

هنرى ميلر يقول عن داريل إنه سيد الأدب الانجليزي وعن رائعته الاسكندرية أنها أهم أثر أدبي من القرن العشرين . ونقاد الأدب يعتبرونه أحد البناة العظام للفن الروائي في زماننا ويضعونه في نفس مكان مارسيل بروست وجيمس جويس .

حيث قام الثلاثة . كل بمفرده بهدم دعائم الكتابة القديمة وأرسى كل واحد منهم ـ في نفس الوقت ـ كتابة أخرى مغايرة تمامًا . مشكلة خروجًا حقيقيًا على

ما كان سائدًا في الحكى والقص . ولـذلك يعتبر داريل أحد رواد التجديد الأدبى في الكتابه الروائية في القرن العشرين .

لا مفر من التوقف أمام النص بعيد عن الاعجاب الشديد به . الذي يستحقه. لم يعجبنى من هـذه الروايـة ، اتجاهها غير العادي نحـو الأجانب .. بكـل هذا الانجذاب وشحوب ابناء الوطن وحضورهم الباهت . لذلك فإن عين الروائي لم تر مصر بكل ما فيها ولم تستطع الهجرة خطوة واحدة بعيدًا عن الإسكندرية . ولم يـر في الإسكنـدريـة سـوى الأجـانب . ومن هم على هـامش حيـاتهم من المصريين . وظلت رؤيته للإسكنـدرية رؤية سياحية . رغم بـراعته الفنية التي لايمكن انكارها أو التقليل منها .

آلمني عنـد القـراءة كل هذا التركيـز على الـذبـاب والقذارة والاهمال . عنـد وصف المدينـة . لأن العين التي رأت هـذا . كـانت تخلو نظـراتها من أبجـديـة التعاطف والحب .

كذلك لم استرح لجوستين اليهوديـة التي تهرب من مصر إلى فلسطين هربًا من افتضاح امر زوجها نسيم في الإسكندرية كتاجر سلاح يهربه إلى اليهود في فلسطين .

على أن الـروايـة لابـد وأن تحرك فينـا ـــ خـاصـة الـروائيين من أبنـاء الإسكندريةـ تلك الغيرة الصحيـة الخلاقة فقـد اعاد داريل خلق المدينـة بقدرة فنية فذة . وطوال صفحات الرواية نجد الإسكندرية التي تحولت من مدينة إلى كائن حى . له حضوره الذي لا يقل عن حضور البشر أنفسـهم .

لدرجة أن المكان يصبح بعدًا جديدًا من الحكي والقص . وخلال هذا التفاعل نلمح بين السطـور ذلك الـوعي التاريخي بـالمدينـة والايحاءات الكثيرة . التي تثيرها في النفس .

وبصراحة . فإن كل هذا أو بعضـه لا نجده في كتـابات الذين قضوا أعمارهم كلها في الإسكندرية . ويبدو أن آلفة الحياة اليومية تفقدنا القدرة على الاندهاش.

وبالتالي تجعلنا نرى في كل الأمور غير العادية . انها أصبحت من الأمور العادية تمامًا .

لدينا كتابات عذبة عن الإسكندرية . ولكن للأسف ـ وهذه ظاهرة تستحق الدراسة والاهتمام . فإن أصحاب هذه الكتابات إما أجانب . أو مصريين ليسوا من أبناء الإسكندرية . زاروها . وترددوا عليها . ولكنهم لم يعيشوا فيها فترات طويلة من أعمارهم .

إن الغريب يشرب المرئيات ويسمع حتى دبيب النمل . في حين أن ابن البلد . يتآلف مع الأشياء . ويرها ضمن سوقية الحياة اليومية وتفاهتها وعاديتها . وينزع عنها اشراقات الشعر وبهاء الأسطورة . وقداسة الأماكن التي لا يمكن أن نعيش فيها أعمارنا كلها .

هذا عن الرواية والروائي . أما المترجم الدكتور فخرى لبيب . فقد قدمته لنا من قبل أعماله . عند ما قرأنا هذه الرواية من طبعة سابقة . أضاف إليها ونقحها وزادها بهاءًا في هذه الطبعة . وعندما قرأنا له ترجمته الرائعة لرواية : « غربان بين ذئاب » ليرونو أبيتز حيث تتفوق ترجماته على التفوق نفسه .

تبقى سلسلة روايات معاصرة . التي نحاول من خلالها أن نقدم كل ما هو جديد ومتميز من النتاج الروائى المصري والعربي والعالمي المترجم . يتم هذا في وقت تتربع فيه الرواية على عرش الوجدان العربي والعالمي . كتابه ونشرًا وقراءة ومتابعة . حيث تحاول القيام بدور معاصر لشهرزاد القديمة .

هذا زمان الرواية في بلادنا وفي أجزاء أخرى كثيرة من العالم . وفي الزمان الروائى . نحاول أن نقدم النصوص الروائية مؤلفة أو مترجمة . التي تعكس توهج وتألق هذا الفن الذي أصبح علامة على العصر ..

وعندما نقول إن الرواية هي ديوان العرب الآن . نتكئ في هذا على حقائق ثابتة وأساسية في ميادين القص الروائي . ابتداء من فوران الابداع وصولاً إلى الاقبال منقطع النظير على الرواية الآن .

يوسف القعيد

الفهرس

هذه الرواية

● ملحمة القرن العشرين ، وواحدة من أهم الروايات التي صدرت في هذا القرن . هي الرواية الأولى من رباعية الإسكندرية الشهيرة . التي تعد درة انتاج صاحبها رغم غزارته .

كان صدورها . علامة فارقة من تاريخ الكتابة الروائية . وقد تركت أثرها الكاسح في الكتابات الروائية التي جاءت بعدها . ويمكن تحديد حوالى عشر روايات هامة في الأدب العربي المعاصر ما كان يمكن أن تكتب . لو لم تكن رباعية الإسكندرية .

شكلت هذه الرواية الدقات الأولى التي أنهت زمان الكتابة التقليدية المستقرة . وفتحت الآفاق أمام مغامرة فنية في القص مازالت اصداؤها تتلألأ يومًا بعد الآخر .

ها هم أبطال النص . دارلي . ميلسيا . جوستين اليهودية المتزوجة من نسيم المصري . التي تهرب إلى فلسطين لكى تعمل هناك من أحد الكبوتزات .

لكن في الأجزاء التالية نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الجوانب الأخرى للصورة .

هذا الروائي

قال عنه هنري ميللر . سيد الأدب الانجليزي . ويضعه نقاد الأدب في نفس مكان: جيمس جويس ومارسيل بروست بإعتبار أن الثلاثة آباء شرعيين للتجديد الأدبي الذي كان من سمات قرننا العشرين .

ولد في الهند سنة ١٩١٢ ورحل عن عالمنا في العام الماضي . وترك لنا حوالى سبعين كتابا في الرواية والقصة وأدب الرحلات .

لورانس داريل غربي رفض حضارة الغرب . وعاش في شرق المتوسط . وكتب عنه ولذلك تناثرت في أعماله روائح صوفية ، وظلال رؤية رحاله . وفي كل الأحوال . فقد رأى الدنيا بقدر كبير ومستمر من الدهشة .

وتحولت هذه الدهشة إلى تجديد لا نهاية له في كل حرف كتبه .

وإن كان هناك كاتب ارتبطت حياته بقرننا العشرين . بدأ معه . ومات مع غروبه . وجسد في كتاباته كل أحلامه . فإن هذا الكاتب هو لورانس داريل دون سواه .

العدد القادم

بلتـــــازار

الرواية الثانية من رباعية الإسكندرية

لورانس داريل

لورانس داريل

لورانس داريل ، مواطن بريطاني من أصل ايرلندي ، ولد في منطقة الهملايا في الهند ، حيث قضى سنواته العشر الأولى . قرر بعد أن أنهى دراسته في انجلترا أن يصبح كاتبًا . كرس كل مواهبه خلال الثلاثينيات لشعره الذي حظى بكثير من الاستحسان . نشر له في باريس عام ١٩٣٨ «الكتاب الأسود » ، الذي كتب عنه ت . س . إلوت ، باعتباره واحدًا من الآمال الكبار للرواية الإنجليزية الحديثة . نشر « الكتاب الأسود » لأول مرة في الولايات المتحدة ، عام ١٩٦٠ .

واعترضت الحرب العالمية الثانية ، مستقبل داريل الأدبى بصورة مؤقتة . خدم خلال سنوات الحرب ، ولبعض الوقت بريطانيا العظمى ، في مجالات رسمية ودبلوماسية مختلفة في أثينا . القاهرة ، رودس وبلغراد .

إن نشر جوستين عام ١٩٥٧ والظهور المتتالى لـ « بلتازار » (١٩٥٨)، و«ماوتت أوليف » (١٩٥٩) و « كليا » (١٩٦٠) ، كأجزاء في نفس السلسلة الرائعة المسماة « رباعية الإسكندرية » ، والتي كرسها لمناقشة مسألة الحب بمختلف صوره ، قد أدت ، وبصورة سريعة ، إلى أن يغدو داريل معروفًا باعتباره واحدًا من أكبر كتاب بريطانيا في الأزمنة الحديثة وأكثرهم أهمية .

رقم الإيداع : ١٩٩٢/١٧٨٣

I.S.B.N. 977 - 00 - 2576 - 3

مطابع الشروق

القاهرة، ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت، ص ب . ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣